الحذر الحذر

من وجهة نظر

مخالفة للفقه والأثر

للشيخ العلامة
محمد بن أحمد عامود

دار أبي حنيفة

Scanned by CamScanner

الحذر الحذر
من وجهة نظر
مخالفة للفقه والأثر

Scanned by CamScanner

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

دار أبي حنيفة
للنشر والتوزيع
اليمن - الحديدة
يطلب من
السيد عمار / ٧٣٤٥٩٧٨٩٦
لؤي الحنفي / ٧٧٧ ٠٢٤٣ ٢٠
e-mail: daroabihanifah@gmail.com

Scanned by CamScanner

الحذر الحذر

من وجهة نظر

مخالفة للفقه والأثر

للشيخ العلامة

محمد بن أحمد عاموه

حفظه الله تعالى

دار أبي حنيفة

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

تصدير

قال الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه:

من الدِّين كشف العيب عن كلِ كاذب وعن كل بدعي أتىٰ بالمصائب
ولولا رجال مسلمون لهدمت صوامع دين الله من كل جانب

قال الإمام شرف الدين أبو عبدالله محمد البوصيري رحمه الله:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأُسْدُ في آجامها تجم
ولن ترىٰ من ولي غير منتصر به ولا من عدو غير منقصم

قال سيدي عبدالغني النابلسي رحمه الله مخاطباً لرسول الله ﷺ:

وما دعوناك في تفريج شدتنا إلا لأنك في تفريجها سبب
وأنت باب العطا والجود يا أملي بك الإله علىٰ طول المدىٰ يهب

Scanned by CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين وأشهد أن سيدنا محمداً عبدالله ورسوله وصفوته من الخلق أجمعين أما بعد فهذه رسالة سميتها «الحذر الحذر من وجهة نظر مخالفة للفقه والأثر» كتبتها جواباً على مقالة لبعض الناس حول انكار صحة حديث توسل الأعمى لمخالفته للقرآن سماها «وجهة نظر حول حديث الأعمى» وما حملني على كتابة هذا الجواب إلا واجب النصح الذي أمرنا الله عز وجل به ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وأرشدنا إليها رسول الله ﷺ بقوله: «الدين النصيحة» أخرجه مسلم.

وإني لأعلم أن الكثير من الناس سيزعجهم ما كتبته هنا مخالفاً لعواطفهم ومشربهم الذي تشربوه ولكني أجدني ملزماً بالكتابة وفاء لأمر الله عز وجل بتبليغ كلمة الحق ووفاء مع الميثاق الذي أخذه الله عز وجل على عباده الذين ائتمنهم على شريعة الإسلام قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فعليَّ أن أبلغ ما أعرفه من أمر الله وشرعه وللآخرين أن يقبلوا أو لا يقبلوا أن يثقوا أو يرتابوا ولأن يرضى الله عني بارتيابهم أو سخطهم خير من أن تصفق لي الدنيا بأسرها فهذا حبيبي وسيدي ومولاي ﷺ يقول «من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» أخرجه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها.

Scanned by CamScanner

وقد ابتدأته بمقدمات وحقائق لا غنىٰ لطالب العلم عنها ثم وضعت باباً لتخريج الحديث وآخر لدفع الشبهات الواردة عليه ثم ختمت الكتاب بخاتمة مشتملة علىٰ أدلة التوسل في مصادر التشريع وحكمه عند الأئمة الأربعة رضي الله عنهم.

والله أسأل الإخلاص والسداد في القول والعمل وهو حسبي وكفىٰ ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

Scanned by CamScanner

الدين النصيحة

النصيحة للمسلمين مطلب شرعي فقد نصح الرسل لأممهم وقد سجل الله عز وجل هذا في القرآن:

١- قال تعالى في سورة الأعراف ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٥٩-٦٢] دعا نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قومه إلى عبادة الله عز وجل وأبان لهم حرصه على مصلحتهم وأنه يخاف عليهم عذاب يوم عظيم وأنه يبلغهم رسالة ربه وينصح لهم فهو فيما يدعوهم إليه مبلغ عن ربه وناصح لهم فدعوة الخلق إلى الحق من أعظم النصيحة.

٢- قال تعالى كذلك في سورة الأعراف ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٥-٦٨] فقد اتهمه الكافرون من ملأ قومه وهم وجوههم وأعيانهم بأنه في سفاهة أي هو ناقص العقل غير قادر على فهم حقائق الأمور فأجابهم على اتهامهم له بمجرد النفي: ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ وعلل لهم أخبار الغيوب التي يخبرهم بها والتي من أجلها اتهموه بنقص العقل بأنها بلاغات يبلغها عن ربه الذي أرسله لهم فهي ليست من عنده ثم أكد لهم أنه لهم ناصح أمين فالدعوة إلى الحق والنجاة من النصيحة وإبلاغ الرسالة وفق التحمل من الأمانة.

Scanned by CamScanner

٣- قال تعالىٰ في سورة الأعراف في معرض قصة صالح عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩].

٤- وكذلك قال شعيب عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام لقومه كما في سورة الأعراف ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

ولاشك أن سيدنا محمداً ﷺ سيد الناصحين وأحاديثه ﷺ في بذل النصح كثيرة منها:

١- عن جرير بن عبدالله البجلي قال: (بايعت النبي ﷺ علىٰ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) رواه البخاري ومسلم دل هذا الحديث علىٰ شدة اهتمام رسولنا الأعظم ﷺ بالنصح لكل مسلم لذلك أدخله في عناصر ما يبايع أصحابه عليه في بعض أحواله.

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (حق المسلم علىٰ المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه وإذا دعاك فأجبه وإذا استنصحك فانصح له وإذا عطس فحمد الله فشمته وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه) رواه مسلم.

٣- عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) رواه مسلم.

والنصيحة هي إعطاء أو معاملة الناصح غيره بأحسن ما هو له من حق أو واجب أو أحسن ما يطلبه أو ينفعه أو يصلحه ويكون ذلك بخلوص ما يقدمه أو يجريه من تعامل من غش أو نقص أو عيب دون بيان أو مخالفة للمطلوب أو لمقتضىٰ الحق أو الواجب ونحو ذلك والنصيحة تشمل كل ما فيه إرادة الخير للمنصوح.

Scanned by CamScanner

تقول لغة: نصح الشيء إذا خلص من الشوائب والناصح هو الخالص من العسل وغيره وهو الذي لم يخالطه ما يكون به مغشوشاً فالنصح ضد الغش وقد صح تحذيره ﷺ ممن غش في الطعام قال ﷺ (من غشنا فليس منا) رواه مسلم، فإذا كان هذا في الطعام فما بالك بالغش في الدين لذلك وجب النصح والبيان وقد ثبت في صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال في رجلين كانا يعيشان بين المسلمين «ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً» انظر كتاب الأدب باب ما يجوز من الظن.

فنصيحة العلماء للناس تكون ببيان أحكام دين الله سالمة صافية مهذبة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قرر ذلك أهل العلم المعتبرين وفق قواعد الشرع المقررة وفقنا الله لذلك بمنه وكرمه آمين.

ذم من يتبع نفسه وهواه:

إن غاية ما يسعى له الشيطان ويبذل له جهوده ومحاولاته هو أن يضل هذا الإنسان ويجعله تبعاً لهواه وأن لا يعمل إلا ما تشير إليه نفسه ويميل إليه قلبه وإذا قام الإنسان بذلك استولى عليه الشيطان ودخل أحشاء قلبه وخامر لحمه ودمه ثم لا يمكن له بعد ذلك إلا أن يكون تبعاً لما يأمره به.

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الضالين المتبعين لأهوائهم والمتبعين للشيطان وشبههم بالكلب الذي هو في منتهى الضعة والخسة فقال تعالى ﴿وَلَكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وذم أولئك الذين يتبعون أهواءهم ولا يسيرون إلا وراء شهواتهم وجعلهم كأولئك الذين يعبدون الأصنام ويسجدون لها حيث يقول تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ

Scanned by CamScanner

بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالذين لا يتبعون إلا أنفسهم ولا يسيرون إلا وراء شهواتهم وأهوائهم ويتخذون الشيطان لهم ولياً وهادياً يضلهم الله ويعمي أبصارهم وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يمكن لهم السير على الصراط المستقيم ولا الاهتداء إلى سواء السبيل فلا يزالون يتيهون في الأرض ويخبطون خبط عشواء.

وفي جانب آخر مدح الله عز وجل أولئك الذين هم على نور من ربهم يقتدون بالرسول ويهتدون به مع ذم أولئك الذين يتبعون شهواتهم حيث يقول عز وجل ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٤] ويقول سبحانه وتعالى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] ويقول تعالى ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٤٩] ويقول تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

وأمر الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ أن لا يتبع هواه فيضل عن سبيله فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

وما أقبح هذا الاتباع للنفس حتى نبه الله رسوله وحذره من ذلك وهو في الحقيقة تحذير للأمة وإلا فالنبي ﷺ معصوم ولا يتصور في حقه اتباع الهوى وقد زكاه الله جل شأنه فقال عز وجل ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤] ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨] وقال عز وجل ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ [القصص ٥٠].

Scanned by CamScanner

إن هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن الذي لا يعمل بما أمر به من الأحكام التي جاء بها الرسول وأوحى إليه فهو يتبع الهوى وما تشتهيه نفسه وهو أذل الناس ضلالة وأقبحهم سفاهة يقول الله عز وجل ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن كان لا يتقن العلوم الإسلامية وأصولها ولا يعرف الناسخ من المنسوخ والراجح من المرجوح ولا تتوفر فيه شروط الاجتهاد التي قررها العلماء ومع ذلك يعتمد على نفسه ويثق بفقهه المبتور وبصيرته الناقصة المحدودة فهو في الحقيقة يتبع هوى نفسه ويسير وراء شهواته

قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

قال الحافظ النووي رحمه الله في أربعينيته هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح

وقال ﷺ (وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله) كذا في المشكاة برواية أحمد وأبي داود.

وبالتأمل في هذا الحديث تجد أن الذي عضه الكلب يتداخل السم في لحمه ودمه ثم يموت وأن هذا الرجل إذا عض إنساناً آخر صار مثله وكذلك الإنسان إذا اتبع هواه وسار وراء شهواته ألقى إيمانه في خطر وكاد أن يعدم ثم هو يضر أولئك الذين يصحبونه

إن اتباع النفس والسير وراء الشهوات إنما هما حائطان للنار من عمل بهما فكأنه عبر الطريق إلى النار كما أشار إليه النبي ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات».

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه قال «أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى» نقله الغزالي في الإحياء ج١.

Scanned by CamScanner

وقال الشيخ أبو عمر الزجاجي كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وتميل إليه طبائعهم فجاء النبي ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع لها فالعقل الصحيح هو الذي يستحسن ما يستحسن الشرع ويستقبح ما يستقبحه نقله في الاعتصام للشاطبي.

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله (الشريعة موضوعة لإخراج المكلف عن داعية هواه) قاله في الاعتصام وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب بل هو متابعتك لهواك ثم تلا قول الله عز وجل ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] قاله في فتوح الغيوب.

وقال الإمام الشيخ ولي الله الدهلوي رحمه الله في كتابه النفيس حجة الله البالغة واعلم أن النفس مجبولة على اتباع الشهوات وتزال على ذلك إلا أن يبهرها نور الإيمان.

فمن أراد سعادة الدنيا والآخرة فلا يعتمد على نفسه ولا يغتر بمعرفته الناقصة وعلمه الضيق المحدود بل عليه أن يعتمد على فهم وبصيرة الأئمة المعتبرين الذين أقرت لهم الأمة بالمكانة الرفيعة في علمهم ومعرفتهم وورعهم وتقواهم ورسوخهم خصوصاً الأئمة الأربعة المجتهدين وأتباعهم أساطين الدين خاصة في هذا العصر الذي انقرض فيه العلماء واندرس فيه العلم والذي قال عنه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح (ثم يفشو الكذب) يعني بعد خير القرون ا.هـ. بتصرف من التقليد الشرعي للمفتي عبدالرحيم اللاجفوري.

Scanned by CamScanner

الدين عماده شيئان

إنما بني هذا الدين على شيئين أحدهما النقل الصحيح وهو الرواية والثاني الفهم الصحيح وهو الدراية فلا بد من جماعة القراء والمحدثين التي تحافظ على جميع الألفاظ للقرآن والأحاديث الكريمة ثم تبلغها إلى جماعة الفقهاء وكذلك لابد من جماعة الفقهاء المجتهدين الذين يشرحون ما جاء به رسول الله ﷺ ويوضحون أغراضه وأهدافه ويبينون معاني الأصول والفروع وكانت توجد هاتان الجماعتان في عهد الصحابة ﷺ أيضاً يشير إلى ذلك العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية في كتابه أعلام الموقعين ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المفلحين وأتباعه من الصالحين كما قال تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به وتبليغ معانيه كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين أحدهما حفاظ الحديث وجهابذته والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام الذين حفظوا على الأمة مقاعد الدين ومعاقله وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس لم تشبها الآراء تغييرا ووردوا فيها ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في خطبته المشهورة في كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا

Scanned by CamScanner

ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتنة المضلين.

والقسم الثاني فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يهتدي الحيران في الظلماء وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب.

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩] ا.هـ كلام ابن القيم.

فالتفقه في الدين إنما هو نعمة عظيمة من الله سبحانه وتعالى خص الله تعالى بها عباده الصالحين الخيرين المقبولين لديه قال أبو عيسى الترمذي في جامعه باب ما جاء في غسل الميت: (وكذلك قال الفقهاء وهم أعلم بمعاني الحديث).

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله الحديث مضلة إلا للفقهاء يعني ذلك أن الذين يفقدون هذه النعمة العظيمة ويحرمونها لا يمكن لهم إدراك معاني الحديث وحقائقه وأسراره فلا يتيسر لهم الفهم الصحيح للحديث النبوي فيأخذون منه غير المعنى المراد فيضلون ويضلون.

وقد جاء عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ يا رسول الله ما أفعل إن اعترضني أمر ولم أجد فيه في كتاب الله ولا في سنة رسوله شيئا؟ فقال (شاور الفقهاء والعابدين ولا تمضوا فيه رأي خاصة) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات من أهل الصحيح كما في شرح الترمذي للبنوري.

Scanned by CamScanner

وبهذا أخذ أئمة الحديث فهذا الإمام الحافظ المحدث الكبير شيخ شعبة والسفيانين الإمام الأعمش رحمه الله سئل عن مسألة فقهية فقال إنما يحسن هذا النعمان بن ثابت وأظن أنه بورك له في العلم كما في الخيرات الحسان وقال الإمام عامر الشعبي الذي أدرك خمسمائة من الصحابة رضوان الله عليهم إنا لسنا بالفقهاء ولكننا سمعنا الأحاديث فروياناها للفقهاء.

فكل أمر لم يشاور فيه الفقهاء ولم يعتن بفقههم وبصيرتهم فهو خطأ وغي ولهذا السبب أخطأ اللامذهبيون في كثير من المسائل وشذوا بها عن جماهير علماء المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله وكفى ونعم الوكيل.

ضرورة التمسك بما عليه الجماعة:

قال الله تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال).

العصمة المنعة والحبل لفظ مشترك تتعاوره معان كثيرة وهو في اللغة السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة والحبل القصبة بين العنق والمنكب والحبل العهد وهو المقصود في هذه الآية كما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما وقال ابن مسعود ﷺ (حبل الله القرآن كما جاء مفسراً في الأثر الذي روي عنه وهو قال رسول الله ﷺ إن هذا القرآن هو حبل الله) وقال ابن مسعود ﷺ في تفسير الاعتصام بحبل الله الجماعة فالله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة وقد

Scanned by CamScanner

أوجب تعالىٰ علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف وأمرنا بالاجتماع علىٰ الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين والسلام من الاختلاف وأمر بالاجتماع ونهىٰ عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين.

وإنما قلنا بضرورة التمسك بما عليه الجماعة لأن الأمة معصومة من الاجتماع علىٰ الخطأ والضلال فمن الأحاديث المتواترة تواتراً معنوياً قوله ﷺ (لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة) كما نص علىٰ ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي الحافظ رحمه الله في الفقيه والمتفقه.

وفي التلخيص الحبير للحافظ ابن حجر قال ابن أبي شيبة أخبرنا أبو أسامة عن الأعمش عن المسيب بن رافع عن يسير بن عمرو قال شيعنا أبا مسعود البدري الصحابي عقبة بن عمرو ﷺ حين خرج.... فقال (لهم اتقوا الله واصبروا حتىٰ يستريح بر أو يستراح من فاجر وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمة محمد علىٰ ضلالة).

قال الحافظ رحمه الله إسناده صحيح ومثله لا يقال من قبل الرأي.

وفي جامع الترمذي عن ابن عمر قال خطبنا عمر بالجابية فقال (يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم.... من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة....) قال الترمذي حديث حسن صحيح وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الحافظ الذهبي، وقال الإمام الشافعي ﷺ في الرسالة (ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها وإنما تكون الغفلة في الفرقة فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلة عن معنىٰ كتاب ولا سنة ولا قياس إن شاء الله تعالىٰ) ا.هـ.

Scanned by CamScanner

بيان أن اتفاق المذاهب الأربعة على قول حجة عند أهل العلم

اعلم أن المسألة الشرعية إذا اتفق عليها الأئمة الأربعة ولم تكن مجمعاً عليها لم يجز تقليد غيرهم فيها ولو كان المخالف صحابياً وذلك لأنه لم تنقل مذاهب الصحابة ومن بعدهم من المجتهدين بشروطها وما يتعلق بها كاملة كما وقع ذلك في مذاهب الأئمة الأربعة وهاك طرفاً من نصوص العلماء الدالة على هذا:

١- قال الإمام الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء ج٧ص١١٧ في ترجمة الإمام الأوزاعي ما نصه (كما نقول اليوم لا يكاد يوجد الحق فيما اتفق أئمة الاجتهاد الأربعة على خلافه مع اعترافنا بأن اتفاقهم على مسألة لا يكون إجماع الأمة ونهاب أن نجزم في مسألة اتفقوا عليها بأن الحق في خلافها ا.هـ.

٢- قال العلامة ابن نجيم المصري المتوفى ٩٧٠هـ في كتابه الأشباه والنظائر وما خالف الأئمة الأربعة فهو مخالف للإجماع.

٣- وصرح بذلك العلامة ابن الهمام المتوفى ٨٦١هـ في كتابه التحرير في أصول الفقه حيث قال وعلى هذا ما ذكر بعض المتأخرين منع تقليد غير الائمة لانضباط مذاهبهم وتقييد مسائلهم وتخصيص عمومها ولم يُدَّرَ مثله في غيرهم الآن لانقراض أتباعهم وهو صحيح.

٤- قال الإمام ابن حجر المكي في كتابه فتح المبين في شرح الأربعين أما في زماننا فقال أئمتنا لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين.

٥- يقول العلامة جلال الدين المحلي في شرح جمع الجوامع يجب على العامي وغيره ممن لم يبلغ مرتبة الاجتهاد التزام مذهب معين من مذاهب المجتهدين.

٦- يقول الإمام النووي رحمه الله في روضة الطالبين أما الاجتهاد المطلق

Scanned by CamScanner

فقالوا اختتم بالأئمة الأربعة حتىٰ أوجبوا تقليد واحد من هؤلاء علىٰ الأمة ونقل إمام الحرمين الإجماع عليه.

٧- قال العلامة المفسر المحدث الفقيه الشيخ أحمد الطحطاوي في شرح الدر المختار في كتاب الذبائح (فعليكم يا معشر المؤمنين باتباع الفرقة الناجية المسماة بأهل السنة والجماعة فإن نصرة الله في موافقتهم وخذلانه وسخطه ومقته في مخالفتهم وهذه الطائفة الناجية قد اجتمعت اليوم في المذاهب الأربعة هم الحنفيون والمالكيون والشافعيون والحنبليون ومن كان خارجا من هذه المذاهب الأربعة في هذا الزمان فهو من أهل البدعة) ا.هـ المراد نقله.

٨- قال العلامة أحمد المعروف بمُلاَّ جُيون الصديقي في التفسيرات الأحمدية قد وقع الإجماع علىٰ أن الإتباع إنما يجوز للأربعة إلىٰ قوله وكذا لا يجوز الاتباع لمن حدث مجتهدا مخالفاً لهم.

٩- نص الأسنوي في التمهيد فقال ذكر إمام الحرمين في البرهان نحوه فقال أجمع المحققون علىٰ أن العوام ليس لهم أن يتعلقوا بمذهب أعيان الصحابة ﷺ بل عليهم أن يتبعوا مذاهب الأئمة الذين سبروا فنظروا وبوبوا الأبواب وذكروا أوضاع المسائل وجمعوها وهذبوها وثبتوها.

وذلك لما ذكره ابن برهان في الأوسط بقوله لأن مذاهبهم - أي الصحابة - غير مدونة ولا مضبوطة حتىٰ يمكن المقلد الاكتفاء بها فيؤديه ذلك إلىٰ الانتقال وذكر ذلك ابن الصلاح أيضاً ما حاصله أنه يتعين الآن تقليد الأئمة الأربعة دون غيرهم قال لأنها انتشرت وعلم تقييد مطلقها وتخصيص عامها وشرط فروعها بخلاف مذاهب غيرهم ﷺ أجمعين ا.هـ. من التمهيد.

١٠- يقول العلامة المحدث المفسر الكبير ثناء الله الباني بتي في التفسير المظهري ما نصه فإن أهل السنة والجماعة قد افترقوا بعد القرون

Scanned by CamScanner

الثلاثة أو الأربعة على أربعة مذاهب ولم يبق في فروع المسائل سوى هذه المذاهب الأربعة فقد انعقد الإجماع المركب على بطلان قول من يخالفهم كلهم وقد قال الله تعالى ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء:١١٥].

هذه عشرة نصوص كاملة ولو شئت لنقلت منها مئات بل ألوف ولكن في هذا القدر كفاية لمن نور الله قلبه.

ليس كل خلاف معتبر:

يخطئ من ظن أن كل خلاف معتبر قال العلامة أبو الحسن بن الحصار رحمه الله :

فليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر

ويخطئ من ظن أن اختلاف أهل العلم في الشيء حجة على جوازه.

قال الإمام العلامة الشاطبي رحمه الله في الموافقات تحت عنوان فصل: وقد زعم بعضهم باطلاً أن اختلاف أهل العلم في الشيء حجة على جوازه ما نصه فصل وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة ووقع فيما تقدم وتأخر من الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفاً فيه بين أهل العلم لا بمعنى مراعاة الخلاف فإن له نظراً آخر بل في غير ذلك فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع فيقال لم تمنع والمسألة مختلف فيها فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفاً فيها لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع وهو عين الخطأ في الشريعة حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمداً وما ليس بحجة حجة حكى الخطابي رحمه الله في مسألة البتع[1] المذكور في الحديث[1] عن بعض

---

(١)بكسر فسكون نبيذ يتخذ من عسل كأنه الخمر صلابة.

Scanned by CamScanner

الناس أنه قال إن الناس لما اختلفوا في الأشربة وأجمعوا على تحريم خمر العنب واختلفوا فيما سواه حرمنا ما اجتمعوا على تحريمه وأبحنا ما سواه قال وهذا خطأ فاحش وقد أمر الله تعالى المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول قال ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل للزم مثله في الربا والصرف ونكاح المتعة لأن الأمة قد اختلفت فيها قال وليس الاختلاف حجة وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين والآخرين هذا مختصر ما قال والقائل بهذا راجع إلى أن يتبع ما يشتهيه ويجعل القول الموافق حجة له ويدرأ بها عن نفسه فهو قد أخذ القول وسيلة إلى اتباع هواه لا وسيلة إلى تقواه وذلك أبعد له من أن يكون ممثلاً لأمر الشارع وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه.

ومن هذا أيضاً جعل بعض الناس الاختلاف رحمة للتوسع في الأقوال وعدم التحجير على رأي واحد ويحتج في ذلك بما روي عن القاسم بن محمد وعمر بن عبدالعزيز وغيرهما مما تقدم ذكره ويقول إن الاختلاف رحمة وربما صرح صاحب هذا القول بالتشنيع على من لازم القول المشهور أو الموافق للدليل أو الراجح عند أهل النظر والذي عليه أكثر المسلمين ويقول له لقد حجرت واسعاً وملت بالناس إلى الحرج وما في الدين من حرج وما أشبه ذلك وهذا القول خطأ كله وجهل بما وضعت له الشريعة والتوفيق بيد الله وقد مر من الدليل على خلاف ما قالوه ما فيه كفاية والحمد لله ا.هـ. المراد نقله.

فتأمل فيه تأملاً جيداً تجد أن مجرد الخلاف لا يبرر الحكم باتساع الأمر وأنه ليس كل خلاف معتبر

وفي الفتح لابن حجر العسقلاني رحمه الله وحكى أبو جعفر النحاس عن قوم أن الحرام ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه ليس بحرام

---

(١) أنه ﷺ سئل عن البتع فقال كل مسكر حرام.

Scanned by CamScanner

قال وهذا عظيم من القول يلزم منه القول بحل كل شيء اختلف في تحريمه ولو كان مستند الخلاف واهياً ا.هـ.

من علامات الساعة:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (يكون آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يضلونكم) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه

قال في فتح الملهم ج١ ص١٢٧ قوله (ما لم تسمعوا أنتم..... الخ) أي يقولون ويروون أشياء ليست هي فيما لم يزل يعرفه المسلمون خلفاً عن سلف مع أن الله تعالى أكمل دينه ووعد بحفظه ونشره ولم يترك سبيلاً إلى ضياع جزء من أجزاءه فأين كانت الغرائب في القرون الأول.

قوله إياكم وإياهم...الخ أي كونوا منهم على حذر.

Scanned by CamScanner

الحق والباطل

الحق: اسم عام يطلق على كل صورة فكرية أو قولية مطابقة لما عليه حال الشيء الذي تحكيه هذه الصورة وجوداً أو عدماً.

الباطل: نقيض الحق فهو اسم يطلق على كل صورة فكرية أو قولية مخالفة لما عليه حال الشيء الذي تحكيه هذه الصورة وجوداً أو عدماً.

وقد تكون الصورة الفكرية أو القولية مطابقة من بعض الوجوه ومخالفة من بعض الوجوه فيكون فيها من الحق على مقدار المطابقة ومن الباطل على مقدار المخالفة.

أمثلة للتوضيح: فالصورة الفكرية أو القولية التي تحكي أن مكة المكرمة تقع في أرض الحجاز من شبه الجزيرة العربية من قارة آسيا حق.

وصورة فكرية أو قولية أخرى تحكي أن مكة المكرمة موجودة في قارة أمريكا باطل.

والصورة الفكرية أو القولية التي تحكي أن الله موجود وهو خالق كل شيء حق.

وصورة فكرية أو قولية أخرى تحكي أن الله غير موجود أو أن لله شريكاً في خلقه وأمره باطل.

مثال قرآني: قال الله عز وجل في سورة الحج ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢] فالصورة الفكرية الاعتقادية التي تثبت أن الله هو الرب الخالق الذي لا إله غيره حق

والصورة الفكرية الاعتقادية التي تجعل مع الله إلهاً آخر باطل.

قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

Scanned by CamScanner

فكل صورة قولية يقولها الله تعالى هي حق لا شك فيه وكل صورة قولية يقولها النبي ﷺ هي حق لا شك فيه لأنه ﷺ معصوم قال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣-٤].

قال الله عز وجل ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف:٥٦] هذه الآية تعلن بوضوح أن الصور القولية التي يجادل بها الكافرون لا سند لها من الواقع باطل وغرضهم منها أن يدحضوا بها الحق الذي جاء به المرسلون من عند ربهم.

وهكذا كل صورة قولية يجادل بها أي إنسان لا سند لها صحيح فهي باطل وإذا كان الغرض من وراءها دحض الحق فالفعل حرام وصاحبه آثم.

من أجل هذا أكد الإسلام نشدان الحقيقة أنى كانت وطرح الخرافات والأباطيل من أية جهة صدرت وأكد الإسلام تبصير الناس بالطرق المنطقية السليمة التي تهدي إلى الرشد حقاً كان أم خيراً أم جمالاً.

Scanned by CamScanner

من مبادئ الإسلام الالتزام بالحق ومناصرته والنفور من الباطل ومكافحته

من أعظم مبادئ الإسلام الالتزام بمبدأ الحق ومناصرته والنفور من الباطل ومكافحته وقد أكد هذا القرآن والسنة فمادة الحق وردت في القرآن قرابة مئتي مرة.

١- فالإسلام دين الحق لأن أصوله الاعتقادية مطابقة للواقع ولأن أخباره ومواعيده مطابقة للواقع ولأن تعاليمه وشرائعه موافقة لأكمل صورة ممكنة تتحقق بها سعادة الناس في حياتهم الأولى وحياتهم الأخرى قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

٢- وآيات الله تتلى على نبيه بالحق وذلك لأن مضمون آيات الله لا يعدو صراط الحق قال الله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

٣- والقرآن أنزله الله بالحق وذلك لأن كل ما فيه حق لا ريب فيه قال الله تعالى في أول سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: ١-٤].

٤- ويأمر الله رسوله أن يدعو الناس إلى الحق الذي جاءهم من ربهم وفي ذلك تنبيه لهم أن يتبينوا الحق الذي جاءهم به بالنظر السديد والبحث العلمي والمناقشة قال الله تعالى في سورة يونس ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨].

Scanned by CamScanner

٥- ومن صفات المؤمنين بشكل مستمر أنهم يتواصون بالحق فيما بينهم قال الله تعالى ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣] وعلى هذا النسق تسير آيات كثيرات في القرآن الكريم وعلى هذه الصورة الرائعة يبرز مبدأ الحق محتلاً مركز الصدارة والتمجيد في الشريعة الإسلامية.

وكما قررت الشريعة الالتزام بالحق قررت النفور من الباطل الذي هو نقيض الحق.

فرسالة الإسلام رسالة إحقاق الحق وإبطال الباطل قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ * لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:٧-٨].

فالأصل في المؤمن أن يلزم الحق ولا ينحرف عنه بجعل الباطل حقاً والحق باطلاً أو بلبس الحق بالباطل أو بكتمان الحق مع العلم به والسكوت عن الباطل مع معرفة أنه باطل فالباطل لا قرار له أمام الحق.

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الاسراء: ٨١] وقال تعالى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الانبياء: ١٨].

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه والباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه آمين.

Scanned by CamScanner

الخطأ المعفو عنه

الخطأ: هو مجانبة سبيل الصواب مع قصده أو عدم إصابة الهدف المرجو أو إصابة غير الهدف المقصود في العمل أو في الفكر أو في اللسان

والخطأ ظاهرة طبيعية من الظواهر الإنسانية التي لا يملك الإنسان بحسب قدراته العامة دفعها وهذه الظاهرة تتجلى في أعمال الإنسان وفي أقواله وفي إدراكاته الحسية وفي أفكاره.

ومن الخطأ في الأفكار خطأ المجتهد في استنباطاته وخطأ القاضي في أحكامه وخطأ الباحث عن الحقيقة بصدق وإنصاف فيما توصل إليه بعد البحث.

ولما كانت هذه الظاهرة أمراً طبيعياً في الإنسان لا يستطيع في كل الأحوال دفعه على الرغم من حرصه الشديد على مجانبة الخطأ وبذله وسعه في ذلك واتخاذه كل الاحتياطات المطلوبة منه اقتضت الواقعية في أسس الإسلام مراعاة هذه الظاهرة التي لا يملك الإنسان دفعها وذلك برفع المؤاخذة عنه ضمن شروط ثلاثة:

الشرط الأول: أن يكون تصديه للأمر بعد تحقق غلبة الظن بأنه كفؤ له بحسب الأعراف العامة عند الناس.

الشرط الثاني: أن يتخذ الوسائل والاحتياطات المستطاعة التي تدفع عنه احتمالات الخطأ أو تخفف منها قدر المستطاع.

الشرط الثالث: ألا يكون منه تقصير أو تفريط.

فإذا تحققت هذه الشروط الثلاثة لديه ثم وقع منه الخطأ بعد ذلك فهو معذور عند الله – عز وجل- أما إذا أخل بها كلها أو بعضها فإن المسؤلية تلاحقه منذ شروعه في الأمر الذي هو فيه أصاب فيه أم أخطأ لأن ما بني على غير مأذون به فالخطأ فيه غير معفو عنه.

Scanned by CamScanner

فمن قام بعمل لا يحسنه أو مارس ما لا قدرة له على تصريفه أو تصدى للقيام بأمر لا يستطيع القيام به فوقع منه خطأ يؤاخذ به متعمده فهو أيضاً كالمتعمد يؤاخذ به لأنه قام بما لم يؤذن له فيه شرعاً ومن أمثلة ذلك أن يتصدى لتولي القضاء من ليس هو أهلاً له فإنه مسؤول في الإسلام عن كل الأخطاء التي يقع بها في أقضيته ومؤاخذ عليها لأنه قبل أن يتولى أمراً ليس كفؤا له.

ومن أمثلة ذلك أن يتصدى للفتيا واستنباط أحكام الشريعة الإسلامية أو تقرير المسائل الدينية من لا قدرة له على ذلك ولم تتوافر لديه الشروط الواجبة للاجتهاد والفتيا واستنباط الأحكام الدينية فإنه مسؤول عن كل الأخطاء التي يرتكبها في اجتهاداته وفتاويه واستنباطاته الشرعية ومؤاخذ عليها شرعاً لأنه تطاول على ما لا قدرة له عليه وتجرأ على الله في الدين.

وفي الحديث الصحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) متفق عليه والله أعلم.

Scanned by CamScanner

العجب مفتاح الشرور وأقبحه العجب بالرأي الخطأ

العجب مذموم في كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ قال تعالىٰ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥] جاء هذا في معرض الإنكار.

وقال عز وجل ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر:٢] فرد علىٰ الكفار بإعجابهم بحصونهم وشوكتهم.

وقال تعالىٰ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤] وهذا أيضاً يرجع إلىٰ العجب بالعمل.

وقد يعجب الإنسان بعمل مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه.

وقال ﷺ لأبي ثعلبة الخشني حيث ذكر آخر هذه الأمة وما تؤول إليه من الحوادث والوقائع (إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىٰ متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة.

وفي حديث أن رسول الله ﷺ كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه فبينا هم كذلك إذ طلع عليه الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه فقال ﷺ: (أرىٰ علىٰ وجهه سفعة من الشيطان) فجاء الرجل حتىٰ سلم وجلس مع القوم فقال النبي ﷺ: (نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت علىٰ القوم أنه ليس فيهم خير منك) فقال:(اللهم نعم) رواه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس رضي الله عنه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه الهلاك في اثنتين القنوط والعجب.

Scanned by CamScanner

قال مطرف بن عبدالله بن الشخير (لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً) أخرجه أبو نعيم في الحلية فظهر من هذا أن العجب مذموم جداً وهو مفتاح كل شر ومن أعظم فتن هذه الأمة العجب بالرأي الخاطئ فجميع أهل البدع والضلال أصروا عليها لعجبهم بآرائهم.

والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوىٰ والشهوة مع ظن كونه حقاً وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخاطئ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداوته جداً لأن العارف يقدر علىٰ أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجباً برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلىٰ العارف ويتهمه فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب ممن هو سبب سعادته في اعتقاده وإنما علاجه علىٰ الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر في طلب العلم وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم مع المعتبرين من علماء الشريعة.

فنسأل الله تعالىٰ الحفظ من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

Scanned by CamScanner

ومن علامات المعجبين بآرائهم حكر الحق لأنفسهم والاستخفاف بأقوال مخالفهم مهما كان دليلها وحجتها ويصل الغرور بهؤلاء أن يعتقدوا أن منهجهم الصواب المحض فلا يجوز لأحد مهما كان علمه أو حجته أن يوجه لهم أي نقد أو نصح أو يخطئهم في أي مسألة ولو أدى بهم الأمر إلى تضليل جميع المسلمين وتبديعهم عن أنس ﷺ قال ذكر لي أن رسول الله ﷺ ولم أسمعه منه قال (إن فيكم قوماً يعبدون ويدأبون حتى يعجب بهم الناس وتعجبهم أنفسهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية) قال الهيثمي في المجمع رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

Scanned by CamScanner

رد الأحاديث الصحيحة كقبول الأحاديث الموضوعة

من المقرر عند العلماء أن من الخطأ الخطل والخطر قبول الأحاديث الباطلة الموضوعة وعزوها إلى رسول الله ﷺ ومثل هذا في البطلان رد الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ بمجرد الهوى والعجب والتعالم على الله ورسوله وسوء الظن بالأمة وعلمائها وأئمتها في أفضل أجيالها وخير قرونها إن قبول الأحاديث المكذوبة يدخل في الدين ما ليس منه أما رد الأحاديث الصحيحة فيخرج من الدين ما هو منه ولا ريب أن كليهما مرفوض مذموم فقد أجمع العقلاء على رفض قبول الباطل ورد الحق وإن من أعظم الآفات التي بليت بها الأمة إن يعمد بعض المتعجلين من الناس لرد حديث ثابت عن النبي ﷺ لأنه توهم له معنى في نفسه هو يفسره به وهو معنى غير مقبول عنده فيتسرع المسكين برد الحديث لاشتماله على هذا المعنى المرفوض في زعمه.

ولو أنصف وتأمل وبحث لعلم أن معنى الحديث ليس كما فهم وأنه فرض للحديث معنى من عنده لم يجيء به قرآن ولا سنة ولا ألزمت به لغة العرب ولا قال به عالم معتبر قبله.

فهذا كله خطأ وخطر يجب التنبه له وقد بسط بيانه العلامة القرضاوي في المدخل لفهم السنة وكذلك من قبله الشاطبي وابن العربي وابن قتيبه والسباعي وغيرهم رحمهم الله تعالى.

Scanned by CamScanner

حكم من أنكر شيئاً من الأحاديث النبوية الثابتة عن سيدنا رسول الله ﷺ

قال العلامة علي القاري في شرح الفقه الأكبر وفي المحيط من أنكر الأخبار المتواترة في الشريعة كفر مثل حرمة لبس الحرير على الرجال ومن أنكر أصل الوتر والأضحية كفر ا.هـ ولا يخفى أنه قيده بقوله في الشريعة لأنه لو أنكر متواتراً في غير الشريعة كإنكار جود حاتم وشجاعة علي رضي الله عنه وغيرها لا يكفر ا.هـ. أي بل يكذب.

ثم اعلم أنه أراد بالتواتر هاهنا التواتر المعنوي لا اللفظي لعدم ثبوت لبس الحرير وأصل الوتر والأضحية بالتواتر المصطلح عليه فإن الأخبار المروية عنه ﷺ على ثلاثة مراتب كما بينته في شرح النخبة ونخبته هاهنا أنه إما متواتر وهو ما رواه جماعة عن جماعة لا يتصور تواطؤهم على الكذب فمن أنكره كفر أو مشهور وهو ما رواه واحد عن واحد ثم جمع عن جمع لا يتصور توافقهم على الكذب فمن أنكره كفر عند الكل إلا عيسى بن أبان فإنه عنده يضلل ولا يكفر وهو الصحيح أو خبر الواحد وهو أن يرويه واحد عن واحد فلا يكفر جاحده غير أنه يأثم بترك القبول إذا كان صحيحاً أو حسناً وفي الخلاصة من رد حديثاً قال بعض مشايخنا يكفر وقال المتأخرون إن كان متواتراً كفر أقول هذا هو الصحيح إذا كان رد حديث الآحاد من الأخبار على الاستخفاف والإنكار ا.هـ. ما ذكره العلامة القاري عليه رحمة الباري وقد ترجم الهيثمي في المجمع باب فيمن كذب بما صح من الحديث.

عن جابر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (من بلغه عني حديث فَكذَّبَ به فقد كَذَّبَ ثلاثة الله ورسوله والذي حدث به) رواه الطبراني في الأوسط وفيه محفوظ بن ميسور ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً.

Scanned by CamScanner

من يستحق أن يسمى فقيها أو عالما حقيقة لا مجازاً
ومن يجوز له الفتيا عند العلماء

هذا عنوان باب من أبواب جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبدالبر رحمه الله اقتبست منه هذه الجمل ليكون المؤمن على بصيرة بمن يستحق أن يسمى فقيهاً أو عالماً حقيقة لا مجازاً ومن يجوز له الفتيا عند العلماء حتى يكون المؤمن على بصيرة.

قال عبدالله بن مسعود ﷺ «كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلا».

عن قتادة قال «من لم يعرف الاختلاف لم يشم رائحة الفقه بأنفه».

وكان سعيد بن أبي عروبة يقول «من لم يسمع الاختلاف فلا تعدوه عالما».

وكان أيوب السختياني يقول «أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً باختلاف العلماء وأمسك الناس عن الفتيا أعلمهم باختلاف العلماء».

وقال ابن عيينة «العالم الذي يعطي كل حديث حقه».

وعن علي بن الحسن بن رشيق يقول: سمعت عبدالله بن المبارك سئل متى يسع الرجل أن يفتي قال إذا كان عالماً بالأثر بصيراً بالرأي.

وقال يحيى بن سلام: لا ينبغي لمن لا يعرف الاختلاف أن يفتي، لا يجوز لمن لا يعلم الأقاويل أن يقول هذا أحب إليَّ.

وقال عبدالرحمن بن مهدي: لا يكون إماماً في الحديث من تتبع شواذ الحديث أو حدث بكل ما يسمع أو حدث عن كل أحد وكان سعيد بن أبي عروبة يقول من لم يسمع الاختلاف فلا تعده عالماً.

Scanned by CamScanner

ذم القول في دين الله تعالى بالرأي والظن والقياس على غير أصل

اعلم يرحمني ويرحمك الله أن الدين دين الله محفوظ بحفظ الله عز وجل مقررة أحكامه مدونة مسائله لا يجوز لأحد مهما كان أن يقول في دين الله تعالى برأيه وهواه قال رسول الله ﷺ (إنَّ الله عز وجل لا ينزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعاً ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون) وهذا حديث صحيح معروف مشهور قال ابن عبدالبر رحمه الله هذا هو القياس على غير أصل والكلام في الدين بالتخرص والظن ومعلوم أن الحلال ما في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ تحليله والحرام ما في كتاب الله أو سنة رسول الله تحريمه فمن جهل ذلك وقال فيما سئل عنه بغير علم وقاس برأيه حرم ما أحل الله بجهله وأحل ما حرم الله من حيث لم يعلم فهذا هو الذي قاس الأمور برأيه فضل وأضل ومن رد الفروع في علمه إلى أصولها فلم يقل برأيه ا.هـ.

فانظر إلى عظيم خطورة اتخاذ الرؤوس الجهال وما يترتب على كلامهم في دين الله بغير علم من ضلال مبين ومن علامة هؤلاء الرؤوس الجهال جرأتهم على تفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ بما لم يسبقوا إليه ولا قاعدة شرعية يصلح أن تبنى تلك الفتاوى عليها.

ولو تأمل هؤلاء قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الاسراء: ٣٦] وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] وقوله تعالى ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله تعالى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] لكفاهم واعظاً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

Scanned by CamScanner

خطر تطبيق الآيات النازلة في المشركين على المسلمين

من أعظم الخطر الواقع على المسلمين ما صنعه البعض من تطبيق الآيات النازلة في المشركين والتي لا تصدق إلا عليهم فحملوها على المؤمنين المملوئين بتوحيد الله في الربوبية واستحقاق العبادة وما هو له أهل من صفات كماله سبحانه قال البخاري رحمه الله في باب قتل الخوارج وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله وقال إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين ووصل الطبري التعليق في كتابه تهذيب الآثار بسند صحيح ولفظه عن بكير بن الأشج قال قلت لنافع كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية قال كان يراهم شرار خلق الله انطلقوا إلى آيات الكفار فجعلوها في المؤمنين.

فدل هذا الأثر على أن هذا الفعل خاصة الخوارج متى وجدوا وحيث وجدوا في كل زمان ومكان ينحرفون عما ثبت من دين الله بالكتاب والسنة والإجماع أو أحدهما إلى آراء زينت لهم فحسبوها ديناً ودعوا إليها الناس فمن لم يوافقهم كفروه بمخالفتها وعمدوا إلى الآيات يحرفونها عن معانيها الحقة إلى تلك الآراء الباطلة ويرمون أهل السنة بالشرك والكفر والمروق من الدين والابتداع ويورثون جلساءهم بغض أهل الحق والخروج عليهم.

Scanned by CamScanner

ضابط من له الحكم على الأحاديث قبولاً ورداً

اتفقت الأمة على أن السبيل الأول إلى معرفة معاني كتاب الله عز وجل ومعالم دينه تكون بالآثار الصحيحة عن رسول الله وأصحابه الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل وإنما تعرف الآثار الصحيحة من السقيمة بنقد العلماء الجهابذة الذين خصهم الله عز وجل بهذه الفضيلة ورزقهم هذه المعرفة في كل دهر وزمان.

وأمر النقد لخطورته من حيث تعلقه بحديث رسول الله ﷺ اشترط العلماء لمن يقوم بذلك مجموعة شروط لا بد من تحققها مجتمعة فيه حتى يتمكن من ذلك.

وليست هذه الشروط مما يستسهل تحققه وإنما يدلك على ذلك أن نقلة الأخبار والآثار عدوا بالآلاف أما النقاد الجهابذة الحاذقون فلم يتعد عددهم في كل طبقة أصابع اليدين إلا قليلاً وذلك عائد لأمرين اثنين:

أولهما: خطورة النقد وجسامة مسؤوليته.

وثانيهما: صعوبة التحقق بالشروط التي اشترطت في الناقد إلاَّ للأفذاذ الفحول من الرجال.

قال العلامة المحدث عبدالرحمن المعلمي اليماني رحمه الله[1] (ليس نقد الرواة بالأمر الهين فإن الناقد لابد أن يكون: واسع الاطلاع على الأخبار المروية عارفاً بأحوال السابقين وطرق الرواية خبيراً بعوائد الرواة ومقاصدهم وأغراضهم وبالأسباب الداعية إلى التساهل والكذب والموقعة في الخطأ والغلط.

---

(١) في مقدمته لتقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ص:ب-ج.

Scanned by CamScanner

ثم يحتاج إلى أن يعرف أحوال الرواي: متى ولد؟ وبأي بلد؟ وكيف هو في الدين؟ والأمانة والعقل والمروءة والتحفظ؟ ومتى شرع في الطلب؟ ومتى سمع؟ وكيف سمع؟ ومع من سمع؟ وكيف كتابه؟

ثم يعرف مرويات الناس عنهم ويعرض عليها مرويات هذا الراوي ويعتبر بها إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

ويكون مع ذلك متيقظاً مرهف الفهم دقيق الفطنة مالكاً لنفسه لا يستميله الهوى ولا يستفزه الغضب ولا يستخفه بادر ظن حتى يستوفي النظر ويبلغ المقر ثم يحسن التطبيق في حكمه فلا يتجاوز ولا يقصر.

وهذه المرتبة بعيدة المرام عزيزة المنال لم يبلغها إلا الأفذاذ ا.هـ.

شروط الناقد:

ذكر العلماء شروط الناقد تحت شروط الجارح والمعدل لأن الجرح والتعديل قاعدة النقد وأساسه وهذه الشروط هي:

أولاً: العلم والتقوى والورع والصدق: لأنه إن لم يكن بهذه المثابة فكيف يكون ناقداً حاكماً على غيره بالجرح والتعديل وهو ما زال مفتقراً لإثبات عدالته؟

قال الحافظ ابن حجر «وينبغي ألا يقبل الجرح والتعديل إلا من عدل متيقظ» ا.هـ.

وقال الحافظ الذهبي: «حق على المحدث أن يتورع فيما يؤديه وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقلة الأخبار ويجرحهم جهبذاً إلا بإدمان الطلب والفحص عن هذا الشأن وكثرة المذاكرة والسهر والتيقظ والفهم مع التقوى والدين المتين والإنصاف والتردد إلى العلماء والتحري والإتقان وإلا تفعل».

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

Scanned by CamScanner

قال الله تعالى عز وجل ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فإن آنست يا هذا من نفسك فهماً وصدقاً وديناً وورعاً وإلا فلا تتعن وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب فبالله لا تتعب وإن عرفت أنك مخلط مخبط مهمل لحدود الله فأرحنا منك» ا.هـ.

وقد قال الحافظ الذهبي نفسه في ترجمة (أبان بن إسحاق المدني) بعدما نقل عن أبي الفتح الأزدي أنه متروك: قلت: لا يترك فقد وثقه أحمد والعجلي وأبو الفتح يسرف في الجرح وله مصنف كبير إلى الغاية في المجروحين جمع فأوعى جرح خلقاً بنفسه لم يسبقه أحد إلى التكلم فيهم وهو المتكلم فيه ا.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة أحمد بن شبيب الحبطي البصري بعدما نقل عن الأزدي فيه: أنه منكر الحديث غير مرضي «قلت: لم يلتفت أحد إلى هذا القول بل الأزدي غير مرضي» ا.هـ.

وقال في هدي الساري مقدمة فتح الباري في ترجمة عكرمة مولى ابن عباس «أما الوجه الأول فقول ابن عمر فيه لم يثبت عنه لأنه من رواية أبي خلف الجزار عن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر يقول ذلك ويحيى البكاء متروك الحديث قال ابن حبان ومن المحال أن يجرح العدل بكلام المجروح» ا.هـ.

ولما كان عليه الأئمة النقاد من علم وتقوى وورع وصدق سلم لهم قولهم واستند إلى حكمهم فقد علم عنهم أنهم لم يكونوا يحابون في دين الله وسنة نبيه ﷺ أحداً ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم.

فقد قال علي بن المديني ﷺ لمن سأله عن أبيه: سلوا عنه غيري فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه فقال هو الدين إنه ضعيف.

وكان وكيع بن الجراح ﷺ لكون والده كان على بيت المال يقرن معه آخر إذا روى عنه.

Scanned by CamScanner

وقال الإمام أبو داود صاحب السنن ابني عبدالله كذاب.

وقال الإمام الذهبي في ولده أبي هريرة إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتىٰ نسيه.

وقال زيد بن أبي أنيسة كما في مقدمة صحيح مسلم لا تأخذوا عن أخي يحيىٰ المذكور بالكذب.

لما قدم إمام النقاد يحيىٰ بن معين حران طمع أبو سعيد يحيىٰ بن عبدالله بن الضحاك البابلتي أنه يجيء إليه فوجه بصرة فيها ذهب وطعام طيب فقبل الطعام ورد الصرة فلما رحل سألوه عنه فقال: والله إن صلته لحسنة وإن طعامه لطيب إلا أنه لم يسمع من الأوزاعي شيئا.

وسأل عبدالخالق بن منصور الإمام يحيىٰ بن معين عن علي بن قرين فقال له كذاب فقلت له يا أبا زكريا إنه ليذكر أنه كثير التعاهد لكم قال يحيىٰ صدق إنه ليكثر التعاهد لنا ولكني أستحي من الله أن أقول إلا الحق هو كذاب.

وقال الإمام أيوب السختياني إن لي جاراً ثم ذكر من فضله ولو شهد عندي علىٰ تمرتين ما رأيت شهادته جائزة.

وكان عبدالله بن المبارك ﷺ يقول علىٰ رؤوس الناس دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف.

ثانياً: أن يكون مجانباً للهوىٰ والعصبية والغرض الفاسد:

قال الإمام تاج الدين السبكي: الجارح لا يقبل منه الجرح وإن فسر إذا كانت هناك قرينة يشهد العقل بأن مثلها حامل علىٰ الوقيعة في الذي جرحه من تعصب مذهبي أو منافسة دنيوية كما يكون من النظراء أو غير ذلك ا.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: وليحذر المتكلم في هذا الفن من التساهل في الجرح والتعديل فإنه إن عدل أحداً بغير تثبت كان كالمثبت حكماً ليس بثابت فيخشىٰ عليه أن يدخل في زمرة من روىٰ

Scanned by CamScanner

حديثاً وهو يظن أنه كذب.

وإن جرح بغير تحرز أقدم على الطعن في مسلم بريء من ذلك ووسمه بميسم سوء يبقى عليه عاره أبداً والآفة تدخل في هذه تارة من الهوى والغرض الفاسد وكلام المتقدمين سالم من هذا غالباً وتارة من المخالفة في العقائد وهو موجود كثيراً قديماً وحديثاً» ا.هـ.

قال عبدالله بن أحمد: سمعت أبي يقول وذكر عبدالله بن سلمة الأفطس فقال كان من أصحاب يحيى وكان سيء الخلق وتركنا حديثه وتركه الناس وخاصم الأفطس يحيى بن معين بمكة فقال دعوني فأنا له قرن.

ثالثاً: أن يكون عالما بأسباب الجرح والتعديل:

قال القاضي البدر بن جماعة من لا يكون عالماً بالأسباب لا يقبل منه جرح ولا تعديل لا بالإطلاق ولا بالتقييد.

وقال ابن حجر: تقبل التزكية من عارف بأسبابها لا من غير عارف لئلا يزكي بمجرد ما يظهر له ابتداء من غير ممارسة واختبار ا.هـ.

وقال: وإن صدر – أي الجرح- من غير عارف بالأسباب لم يعتبر به أيضاً ا.هـ.

وقد عقد الحافظ أبوبكر الخطيب في كتابه الكفاية في علم الرواية باباً تحت عنوان ذكر بعض أخبار من استفسر في الجرح فذكر ما لا يسقط العدالة ذكر فيه أخباراً كثيرة في ذلك.

قال الحافظ ابن حجر في ترجمة أحمد بن عبدالملك الحراني قال الميموني قلت لأحمد إن أهل حران يسيئون الثناء عليه فقال أهل حران قل أن يرضوا عن إنسان هو يغشى السلطان بسبب ضيعة له.

قلت القائل ابن حجر فأفصح أحمد بالسبب الذي طعن فيه أهل حران من أجله وهو غير قادح ا.هـ.

Scanned by CamScanner

رابعاً: أن يكون عالماً بتصاريف كلام العرب:

فقد قال الحافظ ابن حجر في ترجمة عكرمة مولى ابن عباس نقلاً عن ابن جرير الطبري:

ومن ثبتت عدالته لم يقبل فيه الجرح وما تسقط العدالة بالظن وبقول فلان لمولاه لا تكذب علي وما أشبهه من القول الذي له وجوه وتصاريف ومعان غير الذي وجهه إليه أهل الغباوة ومن لا علم له بتصاريف كلام العرب ا.هـ.

قال العلامة ظفر أحمد العثماني التهانوي رحمه الله في كتابه قواعد في علوم الحديث عقبه قلت فلا بد لفهم كلام الجارحين من الوقوف على تصاريف كلام العرب ا.هـ.

وقال الحافظ أيضاً في ترجمة زيد بن وهب الجهني وشذ يعقوب بن سفيان الفسوي فقال: في حديثه خلل كثير ثم ساق من روايته قول عمر – في حديثه – يا حذيفة بالله أنا من المنافقين؟ قال الفسوي: وهذا محال قلت – القائل ابن حجر – هذا تعنت زائد وما بمثل هذا تضعف الأثبات ولا ترد الأحاديث الصحيحة فهذا صدر من عمر عند غلبة الخوف وعدم أمن المكر فلا يلتفت إلى هذه الوساوس الفاسدة في تضعيف الثقات ا.هـ.

أقول: وقد سبق الحافظ الذهبي ابن حجر في الرد على الفسوي حيث قال في ميزان الاعتدال بعدما نقل كلامه ولم يصب الفسوي فهذا الذي استنكره الفسوي من حديثه ما سبق إليه ولو فتحنا هذه الوساوس علينا لرددنا كثيراً من السنن الثابتة بالوهم الفاسد ا.هـ.

ولخطورة أمر النقد وما ينبغي أن يكون عليه الناقد من دين وصلاح وفهم ودراية واطلاع واسع وتمكن نجد مثل الإمام المتقن ابن الصلاح ت ٦٤٣هـ يقول: إذا وجدنا فيما يروى من أجزاء الحديث وغيرها حديثاً صحيح الإسناد ولم نجده في أحد الصحيحين ولا

Scanned by CamScanner

منصوصاً على صحته في شيء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة فإنا لا نتجاسر على جزم الحكم بصحته فقد تعذر في هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح بمجرد اعتبار الأسانيد ا.هـ.

فالإمام أبو عمرو بن الصلاح وهو من هو ديناً وصلاحاً وحفظاً واطلاعاً وفهماً لا يتجاسر على تصحيح ما لم يصححه الأئمة من قبل خشية أن لا يقع حكم المتأخر في الموقع الصائب كالذي كان عليه الأئمة النقاد المتقدمون.

وابن الصلاح وإن لم يوافقه الأئمة على قوله من امتناع التصحيح من المتأخرين إلا أن هذا يدلنا على مبلغ خطورة النقد وصعوبة تحقق شروطه إلا في القلة القليلة من أفذاذ الحفاظ المتقنين فإن الأمر ليس من السهولة بحيث يكتفى فيه بتقليب بعض كتب الرجال كما يتوهم بعضهم.

والمطلع على كتب المتأخرين من أئمة الحفاظ المحققين يجد أن ما قالوا بالحكم عليه قبولاً أو رداً قليل بالنسبة لمن تقدمهم وأقل منه تفردهم بقول في الحديث مخالف لمن تقدمهم من النقاد الراسخين وليس قصدي من هذا الذي ذكرته أن لا يقوم من له أهلية ذلك بهذا الأمر ولكن أردت أن يكون من يقوم بذلك على جانب كبير من التيقظ والنباهة والدقة وسعة الاطلاع والتمكن وعلى جانب أكبر من الصلاح والتقوى والخشية من الله سبحانه والأدب الجم وأن لا يسارع بالتخطئة ومخالفة الأئمة الأثبات من النقاد فيما حققوه وقرروه ا.هـ. نقلت هذا البحث من أسباب اختلاف المحدثين للشيخ خلدون الأحدب ومنه تعرف أنه لا يمكن رد الأحاديث بجرة قلم.

Scanned by CamScanner

الباب الأول في تخريج الحديث

قال الإمام الترمذي ت٢٧٩هـ في جامعه حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتىٰ النبي ﷺ فقال ادع الله أن يعافيني قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك قال فادعه قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة إني توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي هذه لتقضىٰ لي اللهم فشفعه فيَّ.

قال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو الخطمي وعثمان بن حنيف هو أخو سهل بن حنيف.

ورجال سند الترمذي كلهم ثقات وإنما سماه غريباً لانفراد عثمان بن عمر عن شعبة وانفراد أبي جعفر عن عمارة وهما ثقتان باتفاق وكم من حديث صحيح ينفرد به أحد الرواة كحديث (إنما الأعمال بالنيات) وسماه حسنا لتعدد طرقه بعد أبي جعفر وعثمان بن عمر.

وتسميته صحيحاً باعتبار تكامل أوصاف الصحة في رواته.

وأخرجه الإمام أحمد ت ٢٤١هـ في مسنده حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتىٰ النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: (إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك قال فادعه قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي هذه لتقضىٰ لي اللهم فشفعه فيَّ) ومن هذا الوجه أيضاً أخرجه ابن خزيمة توفي ٣٣١ هـ في صحيحه والنسائي ت ٣٠٣هـ في عمل اليوم والليلة.

Scanned by CamScanner

وابن ماجه ت ٢٧٥ هـ في سننه باب ما جاء في صلاة الحاجة وفيه قال أبو إسحاق هذا حديث صحيح.

والبخاري ت ٢٥٦هـ في التاريخ الكبير والطبراني ت ٣٦٠هـ في المعجم الكبير والصغير وكتاب الدعاء له والحاكم توفي ٤٠٥هـ في المستدرك وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم وأقره الحافظ الذهبي والبيهقي توفي ٤٥٨هـ في دلائل النبوة والسنن الكبرىٰ والدعوات الكبير وترجمه البيهقي في الدلائل باب ما جاء في تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يصبر وما ظهر في ذلك من آثار النبوة وأبو نعيم في معرفة الصحابة وغيرهم وتابع حماد بن سلمة شعبة في روايته عن أبي جعفر أخرج هذه المتابعة النسائي في عمل اليوم والليلة وأحمد في المسند والبخاري في تاريخه وقد اتفق شعبة وحماد بن سلمة على أن شيخ أبي جعفر هو عمارة بن خزيمة بن ثابت بينما خالفهما هشام الدستوائي وروح بن القاسم.

قال النسائي في عمل اليوم والليلة خالفهما هشام الدستوائي وروح بن القاسم فقالا عن أبي جعفر عمير بن يزيد بن خماشة عن أبي أمامة بن سهل عن عثمان بن حنيف.

أقول أما حديث هشام الدستوائي فهو عند النسائي في عمل اليوم والليلة والبخاري في التاريخ الكبير والبيهقي في الدلائل وأما حديث روح بن القاسم فأخرجه البخاري في تاريخه الكبير وابن السني في عمل اليوم والليلة والطبراني في معجميه الكبير والصغير وصححه وفي الدعاء والحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل وقال ابن أبي خيثمة المتوفىٰ سنة ٢٧٩هـ وهو حجة ثقة عالم متقن حافظ ابن الحافظ وأبو حافظ قال في تاريخه حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا أبو جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف أن رجلاً أعمىٰ أتىٰ النبي ﷺ فقال: إني أصبت في بصري فادع الله لي قال اذهب فتوضأ

Scanned by CamScanner

وصل ركعتين ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة يا محمد إني أستشفع بك على ربي في رد بصري اللهم فشفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك فرد الله عليه بصره قال ابن أبي خيثمة أبو جعفر هذا الذي حدث عنه حماد بن سلمة اسمه عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذي يروي عنه شعبة ثم روى الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة عن أبي جعفر ا.هـ. وهذا إسناد صحيح لا غبار عليه.

هذا وقد نقل حديث عثمان بن حنيف هذا من لا يحصى من حفاظ الإسلام وأئمته الكبار منهم الحافظ المنذري ت٦٥٦هـ في الترغيب والترهيب له والإمام النووي ت٦٧٦ هـ في الأذكار وتقي الدين السبكي ت ٧٥٦هـ في شفاء السقام والحافظ نور الدين الهيتمي ت ٨٠٧هـ في المجمع والحافظ جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ في الجامعين الكبير والصغير والخصائص والعلامة المتقن الحافظ أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني ت ٩٢٣هـ في المواهب والعلامة المحقق محمد بن عبدالباقي الزرقاني توفي ١١٢٢هـ في شرح المواهب ونقله ابن تيمية توفي ٧٢٨هـ في التوسل والوسيلة ونقله الشوكاني ت ١٢٥٠هـ في تحفة الذاكرين وفي الدر النضيد والقاضي عياض في الشفاء وابن الجزري الإمام المقرئ في الحصن الحصين والخطيب التبريزي في المشكاة والسمهودي في خلاصة الوفاء وابن حجر الهيتمي في الجوهر المنظم وإحصاء الناقلين له غير ممكن.

وقد صحح هذا الحديث من الحفاظ:

١- الترمذي ٢- وابن حبان ٣- وابن خزيمة ٤- والحاكم ٥- والطبراني ٦- وأبو نعيم ٧- والبيهقي ٨- والمنذري ٩- وابن ماجه ١٠- والذهبي ١١- وابن تيمية في أكثر من كتاب ١٢- والهيتمي في مجمع الزوائد ١٣- والحافظ أبو عبدالله المقدسي صاحب المختارة ١٤-

Scanned by CamScanner

والحفاظ عبدالغني المقدسي في كتاب النصيحة ١٥- والحافظ السخاوي في القول البديع ١٦- والحافظ السيوطي في الخصائص ١٧- والإمام النووي في الأذكار ١٨- وأمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني في أمالي الأذكار وبالجملة فالحديث صحيح باجماع الحفاظ لا مطعن فيه ولا مغمز.

وقد جاءت زيادة موقوفة عن المرفوع أخرجها الإمام الطبراني في معجمه الصغير فقال حدثنا طاهر بن عيسىٰ ابن قيرس المقري المصري التميمي حدثنا أصبغ بن الفرج حدثنا عبدالله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلىٰ عثمان بن عفان ﷺ في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلىٰ ربك» وفي رواية: ربي جل وعز فيقضي لي حاجتي وتذكر حاجتك ورح إليَّ حتىٰ أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قاله عثمان ثم أتىٰ باب عثمان فجاء البواب حتىٰ أخذ بيده فأدخله علىٰ عثمان بن عفان فأجلسه معه علىٰ الطنفسة وقال ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له ما ذكرت حاجتك حتىٰ كانت هذه الساعة وقال ما كانت لك من حاجة فأتنا ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتىٰ كلمته فيَّ فقال عثمان بن حنيف والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذلك ذهاب بصره فقال النبي ﷺ أفتصبر؟ فقال يا رسول الله إنه لي قائد وقد شق عليَّ فقال له النبي ﷺ إيت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات قال عثمان بن حنيف فو الله ما تفرقنا وطال بنا

Scanned by CamScanner

الحديث حتىٰ دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر.

لم يروه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد أبو سعيد المكي وهو ثقة وهو الذي يحدث عنه أحمد بن أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي.

وقد روىٰ هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي واسمه عمير بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة والحديث صحيح ا.هـ.

وأخرجه من هذا الوجه الطبراني في الكبير وفي الدعاء والبيهقي في دلائل النبوة

وقد تبع الهيتمي في المجمع الطبراني في تصحيحه وقد نقل المنذري في ترغيبه تصحيح الطبراني وأقره.

وقال ابن تيمية ما نصه والطبراني ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم يبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر ا.هـ. بلفظه.

فتلخص من هذا صحة حديث عثمان بن حنيف بشقيه المرفوع والموقوف.

وإثارة الجدل حول صحة الحديث بعد الذي تقدم مكابرة ومع ذلك نجيب علىٰ الشبهة المثارة حول صحة هذا الحديث من حيث الصنعة الحديثية أولاً والشبهات الأخرىٰ في الباب التالي.

Scanned by CamScanner

باب في رد الشبهات الواردة على الحديث

وهي نوعان:
١- ما يتعلق بالصنعة الحديثية.
٢- الشبهات الأخرىٰ.

الفصل الأول: فيما يتعلق بالصنعة الحديثية:

الشبهة الأولى: أن الترمذي قال في جامعه كما في بعض النسخ المطبوعة في أبي جعفر وهو غير الخطمي وفي بعض النسخ وليس هو الخطمي فاتكئ بعضهم علىٰ هذه النسخ فنسب إلىٰ أبي جعفر الجهالة وبعضهم قال أنه الرازي وهو ضعيف

والجواب: أن هذا من تصرفات الناسخين وليس من عادة الترمذي أن يقول هو غير فلان ويتركه من غير بيان

علىٰ أن أبا جعفر الراوي عن عمارة بين شيوخ شعبة إنما هو عمير بن يزيد الخطمي المدني الأصل ثم البصري كما يظهر من كتب الرجال المعروفة من مطبوع ومخطوط وأبو جعفر الرازي المتوفىٰ ١٦٠هـ من شيوخ شعبة لم يدرك عمارة المتوفىٰ ١٠٥ هـ أصلاً لأن رحلته إلىٰ الحجاز بعد وفاة عمارة بنحو تسع سنين وشعبة شعبة ثقة حافظ متقن متثبت فيما يروي علىٰ أن طرقاً أخرىٰ للحديث عند الطبراني وابن أبي خيثمة والحاكم والبيهقي تنص في صلب السند علىٰ أنه الخطمي الثقة باتفاق وأي فائدة للجدل بعد هذا التصريح عند هؤلاء الأئمة أنه الخطمي وهذا هو المثبت في طبعة أحمد شاكر رحمه الله للترمذي مع أن ابن تيمية نفسه قال سائر العلماء قالوا هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب.

Scanned by CamScanner

الشبهة الثانية: تضعيف أبي جعفر الخطمي:

أقول أبو جعفر الخطمي اسمه عمير بن يزيد بن عمير بن حبيب بن خماشة ويقال حباشة الأنصاري أبو جعفر الخطمي المدني نزيل البصرة أمه بنت عقبة بن الفاكه بن سعد لجديه عمير بن حبيب والفاكه بن سعد صحبه أخرج له أصحاب السنن الأربعة قال ابن معين والنسائي ثقة وذكره ابن حبان في الثقات ووثقه ابن نمير والعجلي فيما نقله ابن خلفون وقال الطبراني في الأوسط ثقة انتهى من تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر فثبت أن الراوي ثقة لا ضعيف ولا صدوق.

فإن قلت ذكره الحافظ في التقريب وقال صدوق قلت تعقبه شيخنا محمد عوامه بقوله والرجل ثقة لا صدوق راجع التهذيب هكذا في طبعة شيخنا المذكور للتقريب.

الشبهة الثالثة: تفرد أبي جعفر عن عمارة ولا يوجد له شاهد أو متابع قلت سبحان الله وما يضير تفرد أبي جعفر عن عمارة بل وتفرد عثمان بن عمر عن شعبة لأنهما ثقتان باتفاق وكم من حديث صحيح ينفرد به أحد الرواة كحديث إنما الأعمال بالنيات.

الشبهة الرابعة: أن حديث عثمان بن حنيف مشتمل على معجزة هي رد بصر الأعمى وذلك مما تتوافر الدواعي على نقله فيبعد أن ينفرد بروايته عثمان بن حنيف دون سائر الصحابة ثم يروى بطريق الآحاد مع اشتماله على ذلك الحادث العظيم وهذا دليل على عدم صحة الحديث إذ لو كان صحيحاً لتبادر نقلة الأخبار ورواة الآثار إلى نقله وروايته أقول هذه الشبهة أوهى من بيت العنكبوت لأن معنى هذا الكلام أنه يشترط في كل معجزة أن تنقل بطريق التواتر أو الاستفاضة والشهرة وهذا ما لم يشترطه أحد من علماء الحديث والأصول بل المعجزات فيها المتواتر وفيها المشهور وفيها الآحاد كما لا يخفى على من تتبع كتب السنة المطهرة فهذا حديث تسبيح الطعام وإخبار الذراع بأن فيها سماً مرويين بطريق

Scanned by CamScanner

الآحاد مع أنهما أعظم من رد بصر الأعمى لأن نطق الجماد أمر لم يعهد في العادة أصلاً بخلاف رد بصر الأعمى مع كونه غريباً يقربه أن البصر من شأن الإنسان ووصف من صفاته وقد عهد رد بصر الأعمى بعد ذهابه لعارض من العوارض باستعمال بعض الأدوية كطريقة القدح المعروفة عند أطباء العرب من قديم وكم من حالة شفاء حصلت لمن عمي من عارض.

وهذا الضرير الذي لجأ إلى النبي ﷺ لم يولد أكمه ولكن طرأ عليه ذهاب البصر لعارض تأمل قوله في الحديث شق عليَّ ذهاب بصري فليس في رد بصره والحالة هذه من الغرابة ما يوازي تسبيح الطعام المطبوخ وإخبار الذراع المشوية وتسليم الحجر وغير ذلك مما لم يتواتر من أنواع المعجزات التي صححها العلماء وقبلوها واحتجوا بها كما صححوا حديث الضرير وقبلوه واحتجوا به والله أعلم.

وقد تقرر من هذا كله صحة حديث عثمان بن حنيف ﷺ وهذا ما أجمع عليه الحفاظ.

الشبهة الخامسة: الطعن في القصة الموقوفة التي رواها الإمام البيهقي بإسناد صحيح من طريق أحمد بن شبيب عن أبيه عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف وأخرجها البيهقي أيضاً عن إسماعيل بن شبيب عن أبيه بنفس الإسناد.

وقد صحح هذه الطريق جماعة من الحفاظ منهم الإمام الكبير عبدالرحمن بن أبي حاتم والحاكم والذهبي وجميع متأخري الحفاظ.

كما أخرج هذه القصة الطبراني في معجمه الصغير فقال حدثنا طاهر بن عيسى بن قيرس المقري المصري التميمي حدثنا أصبغ بن الفرج حدثنا عبدالله بن وهب عن شبيب ابن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن

Scanned by CamScanner

عمه عثمان بن حنيف وساق الحديث ثم قال لم يروه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد أبو سعيد المكي وهو ثقة وهو الذي يحدث عنه أحمد بن أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي واسمه عمير بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة والحديث صحيح إ.هـ.

فها أنت ترى تصحيح الطبراني لهذه الطريق فإن قلت الطبراني صحح الحديث المرفوع ولم يصحح القصة الموقوفة قلنا الطبراني قد وثق شبيب بن سعيد الحبطي وهو راوي الموقوف وتوثيق حديث الرجل هو تصحيح لحديثه ويؤيد هذا ويوضحه أن الحافظ نور الدين الهيثمي نقل تصحيح الطبراني في مجمع الزوائد مقتصراً عليه.

أقول ولا كلام بعد تصحيح الطبراني للحديث مرفوعاً وموقوفاً.

ومع هذا فقد تكلموا في القصة بطعون واهية وهاك الكلام عليها:

١- جهالة شيخ الطبراني طاهر بن عيسى وجوابه أن الطبراني رحمه الله صحح الحديث وتصحيحه يعني توثيق رجال إسناده ومنهم شيخه طاهر بن عيسى المصري وهو أعلم به من غيره.

ثانياً: أن القصة الموقوفة تفرد بها شبيب ثم رواها عن شبيب ثلاثة ورواه عن الثلاثة المذكورين ثلاثة آخرون وعنهم آخرون فلم يتفرد أحد برواية القصة إلا شبيب فلا مدخل لشيخ الطبراني هنا فتأمل.

٢- الطعن في حفظ شبيب بن سعيد الحبطي وهذا كلام في غاية الوهن والضعف بل هو ساقط الاعتبار فشبيب بن سعيد الحبطي قد وثقه علي بن المديني ومحمد بن يحيى الذهلي والدار قطني والطبراني وابن حبان والحاكم.

وقال أبو زرعة وأبو حاتم والنسائي لابأس به.

Scanned by CamScanner

فهؤلاء تسعة من أئمة الحديث وحفاظه وثقوا شبيب بن سعيد الحبطي وهذا غاية ما يطلب من التوثيق في الراوي ليصحح حديثه ويحتج به في الصحيحين.

فإن قلت ما تقول في كلام ابن عدي في الكامل ونصه:

كان شبيب إذا روىٰ عنه ابنه أحمد بن شبيب نسخة يونس عن الزهري إذ هي أحاديث مستقيمة ليس هو شبيب بن سعيد الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه ولعل شبيباً بمصر في تجارته إليها كتب عنه من حفظه فيغلط ويهم وأرجو أن لا يتعمد شبيب هذا الكذب ا.هـ.

قلت دل كلام ابن عدي علىٰ أمور هي:

١- ما رواه أحمد بن شبيب عن أبيه أعني نسخة يونس عن الزهري فهي أحاديث مستقيمة.

٢- ما رواه عبدالله بن وهب عن شبيب بمصر فيه غلط ووهم.

٣- حديثه في غير النوعين السابقين صحيح لأنه قيد وهم شبيب بكونه من رواية ابن وهب بمصر فغاية ما في الأمر أن شبيب ثقة طرأ عليه طارئ أثناء تجارته بمصر شأنه شأن كثير من الرواة الثقات وهذا لا يخرجه عن كونه ثقة ولا يوجب رد روايته كما هو معلوم عند صغار طلبة المصطلح فقول ابن عدي لعل شبيباً إلخ لا تدل أن الغلط والوهم كان ديدنه وصفة لازمة له وإنما تعني أن الغلط والوهم طرأ عليه لعارض بمصر وهو ما حدث عنه ابن وهب.

فالحاصل أن حديث شبيب بن سعيد صحيح من غير رواية ابن وهب إذا أخذنا كلام ابن عدي بالاعتبار ومع هذا فليس كل ما حدث به ابن وهب عن شبيب منكر بل فيه ما هو معروف وفيه ما هو منكر وابن وهب هنا غير متفرد بل قد توبع وهذا يدل علىٰ صحة الرواية.

Scanned by CamScanner

فإن قلت هذا الحديث يرويه شبيب عن روح بن القاسم وقد ذكر ابن عدي حديثين في كامله أنكرهما على شبيب من رواية شبيب عن روح بن القاسم وإن كان شبيب قد غلط في ذينك الحديثين أمكن أن يكون غلط في هذا الحديث قلت يا سبحان الله

هذان الحديثان المشار إليهما من رواية ابن وهب عن شبيب عن روح بن القاسم وقد سبق أن شبيبا حدث اثناء تجارته بمصر تلميذه ابن وهب ببعض ما أنكر عليه.

وقد أورد ابن عدي في كامله هذين الحديثين ليستدل بهما على صحة دعواه فلا مدخل هنا لما يرويه شبيب عن روح بن القاسم فالكلام على من حدثه شبيب وهو تلميذه ابن وهب لا من حدث عنه شبيب سواء كان شيخه روحاً أو غيره.

ولست بصدد بيان صحة دعوى ابن عدي في هذين الحديثين أو عدم صحتهما فهذا له مبحث آخر وهذان الحديثان هما:

قوله ﷺ «من قال حين يصبح وحين يمسي رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبينا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة».

قوله ﷺ: لفاطمة رضي الله عنها (إذا دخلت المسجد فصلي على النبي ﷺ وقولي «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرجت فصلي على النبي ﷺ وقولي اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»).

وليس من لازم الإنكار عليه في هذين الحديثين أن نقيس عليه بالظن ما لا يوافق أمزجتنا وقد علمت أن الكلام فيما رواه ابن وهب عن شبيب لا فيما رواه شبيب عن أشياخه ومما يزيد الحديث قوة أن شبيب بن سعيد بصري وشيخه روح بن القاسم بصري وأبو جعفر الخطمي المدني بصري كذلك وقد حدث شبيب بهذه الرواية إبنيه أحمد وإسماعيل وهما بصريان ألا يكون في رواية شبيب عن شيخه روح الذي هو بلديُّه مزية

Scanned by CamScanner

وقوة ألا يكون في تحديث شبيب لولديه إسماعيل وأحمد زيادة قوة والحاصل أن شبيب بن سعيد روى القصة عنه ثلاثة اثنان في بلده وقت الراحة والبعد عن السفر والمشقة وهما أحمد وإسماعيل ابنا شبيب كما في دلائل النبوة للبيهقي والثالث عبدالله بن وهب فقد روى عنه القصة وقت السفر وكان السفر خاصاً بالتجارة حيث شغل البال وتشتت الأفكار ولكنه حدث على الجادة ولم يخطئ فجاء حديثه في السفر الذي هو قطعة من العذاب موافقاً لحديثه في بلدته والراوي إذا حدث في بلدته كان أتقن مما يحدث به في حال سفره كما هو معروف ونص عليه الحفاظ وإذا كان شبيب قد جود هذه الرواية في حضره وسفره فهذا غاية ما يطلب في الراوي فماذا بقي لهؤلاء بعد هذا إلا المكابرة.

ومن العجائب ادعاء بعضهم أن الطعن قائم في شبيب إذا كانت روايته عن غير يونس ولو من رواية ابنه أحمد واستدل بكلام الحافظ ابن حجر في الفتح فقد ذكر الحافظ شبيباً فيمن طعن فيه من رجال البخاري ثم دفع الطعن عنه بعد أن ذكر من وثقه بقوله أخرج البخاري عنه من رواية ابنه عنه عن يونس أحاديث ولم يخرج عن ابنه عن غير يونس ولا من رواية ابن وهب شيئاً ا.هـ.

ولما كان الحافظ ابن حجر قد وثق شبيبا في التقريب بقوله لا بأس بحديثه من رواية ابنه أحمد عنه لا من رواية ابن وهب.

قال المدعي يجب أن يقيد كلام الحافظ في التقريب بأن يكون من روايته هو يعني شبيباً عن يونس ليتوافق مع كلام الحافظ في مقدمة الفتح.

والجواب أنه لا تعارض بين كلامي الحافظ أبداً حتى نحتاج إلى هذا التوفيق الغير موفق لأن الحافظ في مقدمة الفتح أشار إلى أن البخاري أخرج لشبيب أصح حديثه ذلك أن البخاري عندما أراد أن يخرج حديث الزهري في جامعه الصحيح أراده من طريق الطبقة الأولى من أصحاب

Scanned by CamScanner

الزهري كما فصله الحافظ الحازمي في شروط الأئمة.

ولما كان يونس من هذه الطبقة وكان شبيب عنده نسخة يونس بن يزيد عن الزهري وسمعها منه أحمد بن شبيب فأصبحت النسخة من هذه الطريق غاية في الصحة فأخرجها البخاري في صحيحه.

فأحمد عن أبيه شبيب عن يونس عن الزهري من شرط البخاري.

فعدم إخراج البخاري لحديث شبيب من غير هذا الطريق لا تعني ضعف التي لم تخرج في الصحيح بل تعني أنه ليس على شرط البخاري فقط لأن البخاري لم يستوعب الصحيح وما ادعاه بل صحح البخاري نفسه أحاديث خارج صحيحه.

ولا يلزم كون الحديث على غير شرطه أنه لا يصلح للاحتجاج به عند البخاري نفسه بل قد يكون صالحاً للاحتجاج به عنده وليس هو على شرط صحيحه الذي هو أعلى شروط الصحة كما صرح بذلك الحافظ ابن حجر نفسه في الفتح.

وكلام الحافظ في التقريب والتهذيب يدل على توثيق الرجل وصحة حديثه دون التعرض لشرط البخاري فأين التعارض حتى نحتاج إلى مثل هذا التوفيق الغير موفق.

ومن العجائب أيضاً قول بعضهم أن الرواة عن أحمد بن شبيب اختلفوا عليه فبعضهم رووا عنه الحديث والقصة والبعض الآخر اقتصر على الحديث دون القصة وهذا دليل الاضطراب.

قلت: يا للعجب من اضطرارنا إلى الإجابة على هذه السذاجات ومع ذلك أقول أحمد بن شبيب ثقة وكان ينشط تارة فيحدث الحديث بطوله وفيه القصة حدث بذلك الحافظ الحجة المتقن يعقوب بن سفيان الفسوي كما في دلائل النبوة للبيهقي وتارة لا ينشط فيقتصر على أصل الحديث فقط أخرج ذلك ابن السني والحاكم فكان ماذا؟ غير التعنت والتعصب مع الجهل.

Scanned by CamScanner

ورواية الحديث على أي من الوجهين لا تعل الأخرى فكلاهما صحيح وهذا مقرر ومعروف عند صغار الطلبة في المصطلح ذلك أن الاختلاف الذي يوجد الشك والريبة في الرواية هو الاضطراب الذي لا يمكن توجيهه أما هنا فلا اختلاف ولا اضطراب نسأل الله الهداية للحق.

فتلخص من هذا البحث كله أن القصة صحيحة كيف لا وسندها وسند الحديث واحد ولذا صححها الحفاظ الذين عليهم التعويل في هذا الفن.

قال العلامة الخفاجي في النسيم بعد أن شرح الحديث المذكور ما لفظه: وكان ابن حنيف وبنوه يعلمونه الناس وقد حكي فيه حكايات فيها إجابة دعاء من دعى به من غير تأخير وهو حديث مسند صحيح وقد أخرجه البرهان من طرق متعددة فلم يبق فيه شبهة فاحفظه ا.هـ.

تأمل قوله رحمه الله وكان ابن حنيف وبنوه يعلمونه الناس.

قال ابن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعوة: حدثنا أبو هشام محمد بن يزيد بن محمد بن كثير بن رفاعة قال جاء رجل إلى عبدالملك بن أبجر وكان طبيباً فجس بطنه فقال بك داء لا يبرأ قال ما هو؟ قال الدبيلة قال فتحول الرجل فقال الله الله ربي لا أشرك به شيئا اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي قال فجس بطنه فقال قد برئت ما بك علة ا.هـ.

أقول ابن أبجر وثقه أحمد وابن معين وغيرهما وهو من رجال مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وكان حافظاً وكان لا يأخذ أجراً على العلاج.

الشبهة السادسة: الطعن في زيادة حماد عند ابن أبي خيثمة وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك وإليك نص رواية ابن أبي خيثمة ثم وجه الطعن ثم رده.

Scanned by CamScanner

قال ابن أبي خيثمة في تاريخه حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا أبو جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف ﷺ أن رجلاً أعمىٰ أتىٰ النبي ﷺ فقال إني أصبت في بصري فادع الله لي قال (اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة يا محمد إني أستشفع بك علىٰ ربي في رد بصري اللهم فشفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك) ا.هـ.

وهذا الإسناد في غاية الصحة.

ومع ذلك أعل بوجود زيادة في المتن وهي «وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك» وجه الإعلال أن حماد بن سلمة تفرد بها عن شعبة فتكون شاذة هكذا قرروا.

والجواب: يا سبحان الله ما ضابط الشاذ عندكم حتىٰ ننظر فيه.

أما عندنا فلا شذوذ لأن حماد بن سلمة ثقة وزيادة الثقة مقبولة ما لم تقع منافية أو فيها نوع مخالفة لرواية الأوثق أو الثقات.

وزيادة وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك لا تنافي أصل الحديث أو تخالفه بل توافقه وتؤكده لأن الأصل العموم واستعمال الحديث في أي وقت وهذا ما فهمه العلماء الحفاظ المحدثون والفقهاء وكون حماد غلط مجرد ظن ومتىٰ كان مجرد الظن حجة فغاية ما في الأمر أنها زيادة ثقة ليس فيها نوع منافاة فتكون مقبولة قال ابن أبي حاتم وزيادة الألفاظ عندنا مقبولة عن الثقات إذ جائز أن يحضر جماعة شيخاً في سماع شيء ثم يخفىٰ علىٰ أحدهم بعض الشيء ويحفظه من هو مثله أو دونه في الإتقان وما قاله ابن أبي حاتم مقرر عند أهل الصنعة طافحة به كتبهم صريحة فيه عباراتهم وعليه فزيادة حماد بن سلمة ثابتة صحيحة لا شذوذ فيها والحمدلله رب العالمين.

Scanned by CamScanner

فتبين بما لا مجال للشك فيه صحة حديث عثمان بن حنيف وأنه محتج به معمول بما فيه قال الإمام الترمذي في كتاب العلل جميع ما في هذا الكتاب – يعني جامعه – هو معمول به وبه أخذ بعض أهل العلم ما خلا حديثين حديث ابن عباس أن النبي ﷺ جمع بين الظهر والعصر بالمدينة والمغرب والعشاء من غير خوف ولا سفر ولا مطر وحديث النبي ﷺ (إذا شرب الخمر فاجلدوه وإن عاد الرابعة فاقتلوه) فهذا نص صريح من الترمذي رحمه الله على أن حديث عثمان بن حنيف الذي أخرجه في جامعه وصححه معمول به وهاهم حفاظ الحديث ونقاده فهموا من حديث الضرير العموم فترجموا عليه في كتبهم بتراجم تفيد ذلك فذكره الترمذي والحاكم والبيهقي في كتاب الدعوات على أنه من الدعوات المأثورة المشروعة المسنون الإتيان بها والعمل بها وذكره ابن ماجة والمنذري والهيتمي في كتاب الصلاة لأن الصلاة المأمور بها فيه داخلة في باب التطوع والنفل وذكره الإمام النووي في باب أذكار صلاة الحاجة على أنه من جملة الأذكار التي تقال عند عروض حاجة وهذا اتفاق منهم على أن الحديث معمول به وأنه عام لجميع الناس في جميع الحالات وهذا ما فهمه راوي الحديث عثمان بن حنيف ﷺ حيث علم – أرشد – الرجل الذي أراد الدخول على سيدنا عثمان ﷺ وطال انتظاره إلى الدعاء المذكور وهذا ما عليه السلف والخلف إذا فهمت هذا فهاك الآن ترجمة عثمان بن حنيف راوي الحديث:

هو عثمان بن حنيف بالمهملة والنون مصغراً ابن واهب بن العكيم بن ثعلبة بن الحارث بن مجدعة بن عمرو بن حبيش بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس الأنصاري الأوسي يكنى أبا عمرو وقيل أبا عبدالله قال الإمام الترمذي وحده شهد بدراً وقال الجمهور أول مشاهده أحد نعم أخوه سهل بن حنيف شهد بدراً بلا خلاف.

Scanned by CamScanner

قال ابن عبدالبر ذكر العلماء بالأثر والخبر أن عمر بن الخطاب ﷺ استشار الصحابة ﷺ في رجل يوجهه إلى العراق فأجمعوا جميعاً على عثمان بن حنيف وقالوا إن تبعثه على أهم من ذلك فإن له بصراً وعقلاً ومعرفة وتجربة فأسرع عمر إليه فولاه مساحة أرض العراق فضرب عثمان ﷺ على كل جريب من الأرض يناله الماء غامراً وعامراً درهماً وقفيزاً فبلغت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مائة ألف ألف ونيفا ا.هـ المراد نقله.

توفي ﷺ بالكوفة في خلافة معاوية ﷺ ا.هـ. ملتقطاً من الاستيعاب والإصابة.

ولما سلم الحديث من المطاعن في سنده أثاروا حوله شبهات أخرى هاك بيانها مع الجواب عليها في الفصل التالي.

الفصل الثاني: في رد الشبهات الأخرى:

أولاً: ادعاء أن مضمون حديث الأعمى محصور في التوسل بدعاء النبي ﷺ وتوضيح هذه الدعوى أن هذا التوسل كان توسلاً بدعاء النبي ﷺ لا بذاته وقول الأعمى إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك أي بدعاء نبيك والسر في الإجابة هو دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له وليس توسل الأعمى ويدل على دعاء النبي ﷺ له قوله ﷺ للأعمى إن شئت دعوت وإن شئت صبرت ومعنى قول الأعمى اللهم شفعه فيَّ وشفعني فيه أي اقبل دعاءه فيَّ واقبل دعائي في قبول دعائه.

أقول: هكذا أولوا الحديث تأويلاً بعيداً عن ظاهره لئلا يكون ناقضاً لمذهبهم فلأنهم لا يجيزون التوسل بالذات جعلوا قول الأعمى إني أسالك وأتوجه إليك بنبيك على حذف مضاف أي بدعاء نبيك.

وهذه الدعوى التي ادعوها باطلة لا يخفى بطلانها على بسيط الفهم من العامة لأن الناظر في حديث توسل الأعمى يجد فيه ما يلي:

Scanned by CamScanner

جاء الأعمىٰ للنبي ﷺ فقال له ادع الله أن يعافيني فالأعمىٰ طلب الدعاء.

فأجابه النبي ﷺ قائلاً إن شئت أخرت ذلك وهو خير وإن شئت دعوت فخيره النبي ﷺ بين أن يصبر أو يدعو له وبيّن له أن الصبر أفضل.

لكن لشدة حاجة الأعمىٰ التمس الدعاء من النبي ﷺ.

عند ذلك أمره النبي ﷺ أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين.

وزاد علىٰ ذلك أن علمه النبي ﷺ مشرعاً للأمة هذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي فتقضىٰ لي تأمل في هذا الدعاء الذي علمه النبي ﷺ للأعمىٰ تجده صريحاً في التوسل به ﷺ لا يحتمل أي تأويل وكيف يحتمل غير التوسل به ﷺ وفيه أتوجه إليك بنبيك – إني توجهت بك.

دعا الأعمىٰ بهذا الدعاء الذي تعلمه من النبي ﷺ فرد الله عز وجل عليه بصره هذا ما يفهمه أي عربي سوي يقرأ حديث الأعمىٰ ومن رأىٰ غير ذلك فقد استعجم عليه الحديث فتبين أن في دعواهم الباطلة مصادرة للنص وتعمية ومغالطة.

وقول بعضهم الحادثة تدور حول الدعاء وليس فيها شيء مما يزعمه أرباب التوسل تمويه آخر وجوابه نعم الحادثة تدور حول الدعاء ولكن ما هو هذا الدعاء الذي علمه النبي ﷺ مشرعاً لأمته من خلال تعليمه للرجل الأعمىٰ

لا يستطيع أي عاقل يحترم نفسه أن يجيب علىٰ هذا السؤال إلا بأن هذا الدعاء هو الذي فيه نص التوسل به ﷺ.

Scanned by CamScanner

وأشكل على بعضهم قوله ﷺ في آخر الحديث اللهم شفعه فيَّ وشفعني في نفسي ولا إشكال فيه فمعناه ظاهر إذ المراد تقبل شفاعته أي دعاءه فيَّ وتقبل دعائي في نفسي وهنا سؤال أي دعاء هذا الذي طلب النبي ﷺ قبوله؟

والإجابة ترد بداهة أنه الدعاء المشتمل على التوسل بالنبي ﷺ إذ هو الدعاء الذي علم النبي ﷺ الأعرابي أن يقوله وهذا لا يحتاج إلى إعمال فكر وإطالة نظر وزيادة تدقيق لوضوحه وضوح الشمس في رابعة النهار.

ويمكن أن يقال إن سؤال قبول الشفاعة هو توسل بدعائه ﷺ مع التوسل بذاته وهذا منتهى ما يفهم من النص.

فسبب رد بصر الأعمى هو توسله بالنبي ﷺ وهذا ما فهمه الأئمة الحفاظ الذين أخرجوا الحديث في مصنفاتهم فذكروا الحديث على أنه من الأدعية التي تقال عند الحاجات فقال الإمام الحافظ البيهقي رحمه الله في دلائل النبوة باب ما جاء في تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يبصر وما ظهر في ذلك من آثار النبوة ا.هـ.

ولا يخفى أن تعليمه للضرير هو الدعاء الذي فيه التوسل بالذات وعبارة البيهقي واضحة جداً فالبيهقي حافظ فقيه.

وهكذا ذكره النسائي وابن السني في عمل اليوم والليلة والترمذي في الدعوات والطبراني في الدعاء والحاكم في المستدرك والمنذري في الترغيب والترهيب والهيتمي في مجمع الزوائد في صلاة الحاجة ودعائها والنووي في الأذكار وغيرهم على أنه من الأذكار التي تقال عند عروض الحاجات.

وذكره ابن الجزري في العدة في باب صلاة الضر والحاجة.

Scanned by CamScanner

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله في تحفة الذاكرين وفي هذا الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله عز وجل مع اعتقاد أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى وأنه المعطي المانع ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

واستقصاء الحفاظ وأئمة الدين الذين فهموا أن الحديث على عمومه واستعمال الدعاء الوارد فيه التوسل به ﷺ يطول.

وحسبنا أن يكون فهمنا للحديث موافقاً لفهم هؤلاء الأئمة العظام الذين إليهم مفزع أهل الإسلام ولا يضيرنا بعد ذلك ما يردده هؤلاء من الأباطيل.

ثانياً: ادعاء أنه لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه كما يدعيه دعاة التوسل لكان المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغير هذا الأعمى من العميان الذين يتوسلون بجاهه ﷺ بل ويضمون إليه أحياناً جاه جميع الأنبياء والمرسلين وكل الأولياء والشهداء والصالحين وجاه كل من له جاه عند الله عز وجل ومع ذلك نرى من توجه وتوسل بكل هذه التوسلات لم يرجع إليه بصره وبعضهم لم تقض حاجته.

والجواب عن هذه الشبهة الواهية ما يلي:

١- إجابة الدعاء ليست شرطاً من شروط صحة الدعاء وقد قال الله تعالى ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ونحن نرى الكثير من المسلمين بل ومن أئمة أصحاب هذا الرأي وحملة هذه الفكرة من يدعو بعيداً عن التوسل ومع ذلك لا يستجاب لهم.

فهذا الإيراد يأتي على الدعاء كله فكم من داع توجه إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبأعماله الصالحة وابتعد عن التوسل الممنوع ولم نر إجابة الدعاء فما هو جوابهم عن هذا الإشكال أليس هو تقرير عدم التلازم بين الدعاء والإجابة.

Scanned by CamScanner

فانظر إلى هذه الشبهة وإلى هذا الإيراد أين يذهب بصاحبه.

وإنه لمن المؤسف أن يضطر المرء إلى إجابة السذاجات.

ثالثاً: ادعاء أنه لو كان توسل الأعمى به ﷺ هو السبب في رد بصره لفعل ذلك عميان الصحابة أو بعضهم ولم ينقل ذلك عنهم فدل عدولهم على أن رد بصر الأعمى هو بدعاء النبي ﷺ والجواب عن هذه الشبهة الواهية هو أن عدم توسل عميان الصحابة وغيرهم احتمال وظن فقط لا يؤيده دليل علمي صحيح وهم إما توسلوا فاستجيب لهم أو تركوا التوسل والدعاء رغبة في الأجر أو توسلوا ودعوا وادخر ذلك أجراً لهم يوم القيامة فكل هذه الاحتمالات واردة فما الذي جعلهم يجزمون بالنفي أي ادعاء عدم توسل عميان الصحابة ﷺ وغيرهم وهذه شهادة على نفي لا ينخدع بها إلا مسلوب العقل.

رابعاً: ادعاء أن توسل عمر بالعباس بمحضر المهاجرين والأنصار يدل على نفي التوسل بذات النبي ﷺ ويؤكد هذا دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار حيث جاء فيه اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فهذا يدل على أن التوسل المشروع عند الصحابة هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته إذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصارعن السؤال بالرسول ﷺ إلى السؤال بالعباس ولو كان السؤال بالرسول معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر إن السؤال والتوسل برسول الله أولى من السؤال والتوسل بالعباس فلم نعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن نتوسل ببعض أقاربه وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الأفضل وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة

Scanned by CamScanner

والتابعين فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجرشي كما توسل عمر بالعباس ا.هـ.

أقول ملخص هذه الدعوىٰ عدم جواز التوسل بالذوات لأن الصحابة تركوا التوسل به ﷺ بعد وفاته لأن التوسل به ﷺ في حال حياته مقصور علىٰ الدعاء فقط ودعاؤه بعد انتقاله غير ممكن ولو كان توسلهم في حال حياته ﷺ بذاته ممكناً لما تركوه بعد وفاته مع قيام المقتضي.

والجواب تنزلاً أن مجرد الترك للتوسل بالنبي ﷺ مع قيام المقتضي وهو شدة الحاجة لا يدل بمفرده علىٰ التحريم أو الكراهية.

فإن الصحابة ﷺ قد تركوا التوسل المتفق علىٰ جلالته وفضله وهو التوسل بأسماء الله وصفاته مع قيام المقتضي فهم مضطرون غاية الاضطرار لحال الشدة والقحط.

إذا عرفت هذا فهاك الكلام علىٰ حديث توسل عمر بالعباس مفصلاً:

قال البخاري في صحيحه حدثني الحسن بن محمد قال حدثنا محمد الأنصاري قال حدثني أبي عبدالله بن المثنىٰ عن ثمامة بن عبدالله بن أنس عن أنس أن عمر بن الخطاب ﷺ (كان إذا قحطوا استسقوا بالعباس بن عبدالمطلب فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون) وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح أن عمر ﷺ خطب الناس فقال (إن رسول الله ﷺ كان يرىٰ للعباس ما يرىٰ الولد للوالد فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ واتخذوه وسيلة إلىٰ الله) وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: وقد بيّن الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقىٰ به عمر قال اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا

Scanned by CamScanner

الغيث فأرخت السماء مثل الجبال حتىٰ أخصبت الأرض وعاش الناس وفي رواية لابن عبدالبر في الاستيعاب والتمهيد ما نصه وروينا من وجوه عن عمر ﷺ أنه خرج يستسقي وخرج معه بالعباس فقال اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ونستشفع به فاحفظ فيه نبيك كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما وأتيناك مستغفرين مستشفعين ثم أقبل علىٰ الناس فقال ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] ثم قال العباس وعيناه تنضحان اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة ولاتدع الكسير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوىٰ وأنت تعلم السر والنجوىٰ اللهم فأغثهم بغياثك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روحك إلا القوم الكافرون.....الخ

فالحديث يدل علىٰ توسل سيدنا عمر ﷺ بمحضر الأنصار والمهاجرين بسيدنا العباس ﷺ وتوسل عمر بالعباس توسل بذات العباس لا بدعائه هذا ما فهمه الصحابة وهم عرب لم تدخلهم عجمة واسمع قول حسان بن ثابت ﷺ :

سأل الأنام وقد تتابع جدبنا فسقىٰ الغمام بغرة العباس

عم النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت مخضرة الأجناب بعد الياس

وهذا صحابي آخر هو العباس بن عتبة بن أبي لهب يقول:

بعمي سقىٰ الله الحجاز وأهله عشية يستسقي بشيبته عمر

توجه بالعباس في الجدب راغبا إليه فما رام حتىٰ أتىٰ المطر

ومنا رسول الله فينا تراثه فهل فوق هذا للمفاخر مفخر

Scanned by CamScanner

فالأبيات تصرح بأن توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما توسل بذاته لا بدعائه هذا فهم الصحابة فماذا بقي لمن يقول نفسر النصوص على فهم السلف فأي سلف أعظم من الصحابة وهذا فهمهم فقول عمر ﷺ إنا نتوسل إليك بعم نبينا باق على ظاهره لا يحتاج تأويلاً ولا تقديراً.

وليس فيه حذف مضاف كما قالوا أي بدعاء عم نبينا وما حاجتنا إلى هذا التقدير إلا الأوهام الفاسدة ومن أين علموا أن عمر أراد بقوله نتوسل إليك بعم نبينا أي بدعائه فالإرادة أمر قلبي فكيف اطلعوا على قلب عمر واستخرجوا هذا التقدير العجب الذي لم يفهمه الصحابة وقد حضروا القصة وشهدوا الواقعة.

وأين هم من قول عمر كما في أنساب الزبير بن بكار واتخذوه – يعني العباس –وسيلة إلى الله ولا يتصور أن يكون هذا بمعنى اطلبوا الدعاء منه لأن عمر طلب منه الدعاء وتقدم هو للدعاء وبعد طلب أمير المؤمنين منه وتقدمه للدعاء إجابة لطلب عمر لا يكون قول عمر هذا إلا بمعنى توسلوا به إلى الله.

قال بعض المحققين وقول عمر ﷺ في الاستسقاء إنا نتوسل إليك بعم نبينا نص في توسل الصحابة بالصحابة وفيه إنشاء التوسل بشخص العباس ﷺ.

وليس في هذه الجملة فائدة الخبر لأن الله تعالى يعلم أيضاً علم المتوسلين بتوسلهم فتمحضت الجملة لإنشاء التوسل بالشخص ا.هـ. يعني ليس الأمر خبراً عن التوسل بل فيه إنشاء التوسل وابتداؤه منهم بدليل قول عمر ﷺ إنا نتوسل إليك بعم نبينا ﷺ قال الحافظ في الفتح ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه ا.هـ.

Scanned by CamScanner

وفي قصة توسل عمر بالعباس توسل بالنبي ﷺ تأمل قول عمر فاحفظ فيه نبيك وفي الحقيقة توسل الصحابة بسيدنا العباس هو توسل بالنبي ﷺ وتوسلهم بالعباس كان لقربه من النبي ﷺ.

وفي هذه القصة دليل على جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل لأنه كان في ذلك الجمع من هو أفضل من العباس كعلي بن أبي طالب والسابقين من المهاجرين والأنصار.

ومما يدل على أن في قصة عمر مع العباس رضي الله عنهما توسل بالنبي ﷺ قوله كنا نتوسل فإن قول الصحابي كنا نفعل كذا ينصب على ما قبل القول فيكون المعنى أن الصحابة ﷺ كانوا يتوسلون به ﷺ في حياته وبعد لحوقه بالرفيق الأعلى إلى عام الرمادة وقصر ذلك على ما قبل وفاته عليه قصر عن هوى وتحريف لنص الحديث وتأويل بدون دليل.

ومن حاول إنكار جواز التوسل بالأنبياء بعد موتهم بعدول عمر إلى العباس في الاستسقاء قد حاول المحال ونسب إلى عمر ما لم يخطر له على بال فضلاً عن أن ينطق به فلا يكون هذا إلا محاولة إبطال السنة الصريحة بالرأي الغير قائم على دليل أو شبه دليل فلا ينظر إليه ولا يبالى به خاصة وقد جاء في السنة ما يبطل هذا الرأي فقد روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح كما قال الحافظ في الفتح عن أبي صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر قال أصاب الناس قحط في زمن عمر ﷺ فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتاه رسول الله في المنام وقال له ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم يسقون وقل له عليك الكيس الكيس فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر ﷺ وقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه فهذا صحابي جليل يأتي قبر الرسول بعد وفاته ويخاطبه ويقول يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا وهذا عمر يقرره ولم ينكر عليه وهذا نص في توسل الصحابة به ﷺ بعد وفاته من غير نكير ولا يمكن لأحد أن يزعم

Scanned by CamScanner

أن رجلاً من الصحابة يبتدع بدعة خاصة بدعة شركية كيف وعمر المعروفة شدته في الحق سمع بالموضوع فما أنكر بل قال قولته متواضعاً يبكي يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه.

وهذا النص قامع لمن لا يجيز التوسل به صلوات الله عليه بعد لحوقه بالرفيق الأعلى.

وفعل عمر في قصة العباس إنما يدل على أن التوسل بقرابة الرسول ﷺ الأحياء جائز كجوازه بالنبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام ليس غير بل في استيعاب ابن عبدالبر بيان سبب استسقاء عمر بالعباس حيث يقول فيه إن الأرض أجدبت إجداباً شديداً على عهد عمر زمن الرمادة وذلك سنة سبع عشرة فقال كعب يا أمير المؤمنين إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استقوا بعصبة الأنبياء فقال عمر هذا عم رسول الله وصنو أبيه وسيد بني هاشم فمشى إليه عمر وشكا إليه قال شيخنا السيد محمد علوي المالكي رحمه الله في كتابه القيم مفاهيم يجب أن تصحح ومن فهم من كلام أمير المؤمنين أنه إنما توسل بالعباس ولم يتوسل برسول الله ﷺ لأن العباس حي والنبي ميت فقد مات فهمه وغلب عليه وهمه ونادى على نفسه بجهالة ظاهرة أو عصبية لرأيه قاهرة فإن عمر رضي الله عنه لم يتوسل بالعباس إلا لقرابته من رسول الله ﷺ تلمح ذلك من قوله وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا وهو بذلك قد توسل برسول الله ﷺ على أبلغ الوجوه وقد بعد عن الصواب كل البعد من رمى المسلمين بالشرك بسبب ذلك مع قوله بجواز التوسل بالحي فإن التوسل لو كان شركاً ما جاز بالحي ولا الميت ألا ترى أن اعتقاد الربوبية واستحقاق العبادة لغير الله تعالى من نبي أو ملك أو ولي هو شرك وكفر لايجوز هنا في حياته ولا الآخرة فهل سمعت من يقول إن اعتقاد الربوبية لغير الله تعالى جائز إذا كان حياً أما بعد وفاته فشرك وقد عرفت أن اتخاذ المعظم وسيلة إلى الله تعالى لا يكون عبادة للوسيلة إلا إذا اعتقد أنه رب كما كان ذلك شأن

Scanned by CamScanner

عبدة الأوثان مع أوثانهم فإذا لم يعتقد ذلك فيه وكان مأموراً منه عز وجل باتخاذه وسيلة كان ذلك الاتخاذ عبادة للآمر سبحانه ا.هـ.

قال العلامة المدقق المحقق المحدث سلامة القضاعي العزامي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ وقول أمير المؤمنين عمر ﷺ (كنا نتوسل برسول الله ﷺ إلى آخره) يعني بهذا التوسل التوسل بخروجهم إلى المصلى للاستسقاء لهم فيصلي بهم ركعتين ويخطبهم كما في حديث عائشة السابق ويعني به ما روى أبو داود بسند صحيح وابن حبان عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر فأمر بمنبر فوضع له في المصلى ووعد الناس يوماً يخرجون فيه فخرج حين بدأ حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر وحمد الله ثم قال إنكم شكوتم جدب دياركم واستئخار المطر عن إبَّان زمانه وقد أمركم الله أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل ما يريد اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه ثم حول إلى الناس ظهره وقلب أو حول رداءه وهو رافع يديه ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين وفي رواية لأحمد وغيره تقديم الصلاة على الخطبتين فأنشأ الله سبحانه سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله فلم يأت مسجده حتى سالت السيول فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه فقال (أشهد أن الله على كل شيء قدير وأني عبد الله ورسوله) وقوله إبان زمانه أي أوله بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحدة فأنت ترى أنه ﷺ لم يلمهم على شكواهم إليه وطلبهم منه أن يستسقي لهم ولم يقل لهم إن الله أقرب إليكم مني فادعوه بل وعدهم يوماً ليخرج إلى المصلى ويستسقي لهم ووفى ﷺ بوعده فاستسقى بصلاة وخطبتين فأجاب الله دعاءه كما سمعت وهذا النوع من التوسل إنما

Scanned by CamScanner

يكون حين وجوده عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم ولذلك قال كنا.

ولما لم يكن هذا ممكناً لهم بعد وفاته ﷺ خرج عمر بالناس إلى المصلى وكان الحق له ﷺ أن يتقدم هو ويدعو فتأخر عن حقه ذلك وقدم العباس للاستسقاء تعظيماً لرسول الله ﷺ وتوقيراً لقرابته وتقديماً لعم رسول الله ﷺ على نفسه مبالغة في التوسل برسول الله ﷺ ما استطاع ﷺ ما أفقهه وأحرصه على توقير رسول الله ﷺ وحث الناس على ذلك وما أشد تواضعه وتفانيه في حب رسول الله ﷺ فإنه رأى رسول الله ﷺ حين شكا إليه الناس قحوط المطر ووعدهم يوماً يخرجون فيه وخرج لهم في الموعد فاستسقى لهم بصلاة ودعاء فلما أفضت الخلافة إليه ﷺ ونزل بالناس من الجدب ما نزل خرج بهم إلى المصلى وحثهم على الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في توقير عمه العباس رضي الله عنه باتخاذه وسيلة إلى الله وكذلك فعل هو ﷺ فاتخذه وسيلة بتقديمه ليدعو ليقيمه بذلك مقام رسول الله ﷺ حين كان بين أظهرهم فاستسقى لهم بالمصلى ليكون أبلغ في توقير رسول الله ﷺ والإشادة بفضل أهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام وبيّن عمر ذلك في دعائه حيث قال اللهم إنا كنا نتوسل بنبيك فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا يعني كنا نتوسل إليك بخروجه عليه الصلاة والسلام بالناس إلى المصلى ودعائه لهم وصلاته بهم وإذ قد تعذر ذلك علينا بوفاته عليه الصلاة والسلام فإني أقدم من هو من أهل بيته ليكون الدعاء أقرب للقبول وأرجى للإجابة ولما دعا العباس توسل برسول الله ﷺ حيث قال: «وقد تقرب القوم بي إليك لمكاني من نبيك أي لقرابتي له فاحفظ اللهم نبيك في عمه يعني إقبل دعائي لأجل نبيك».

Scanned by CamScanner

ومن فهم من كلام أمير المؤمنين أنه إنما توسل بالعباس ولم يتوسل برسول الله ﷺ لأن العباس حي والنبي ميت فقد مات فهمه وغلب عليه وهمه ونادى على نفسه بجهالة ظاهرة أو عصبية لرأيه قاهرة فإن عمر لم يتوسل بالعباس من حيث هو العباس بل من حيث هو قريب رسول الله ﷺ كما تلمح ذلك من قوله رضي الله عنه وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا وهو بذلك قد توسل برسول الله ﷺ على أبلغ الوجوه وأما التوسل الذي أشار أمير المؤمنين إلى انقضائه بوفاة رسول الله ﷺ بقوله كنا نتوسل فهو التوسل بإخراجه إلى المصلى ليباشر الاستسقاء بالصلاة والدعاء على مرأى منهم ومسمع حيث يأتمون به ويؤمنون على دعائه وذلك إنما يكون عادة ممن هو حي بهذه الحياة الدنيوية كما أوضحناه لك في تفسير كلام أمير المؤمنين.

وفي قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في خطبته بمحضر الصحابة والتابعين في حق العباس واتخذوه وسيلة إلى الله الدلالة الواضحة على أنهم لم يكونوا يفهمون من الوسيلة الأعمال فقط بل ابتغاء الوسيلة عندهم شامل للتوسل بالأنبياء والصالحين وما يتعلق بهم ومعاذ الله أن يقول أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام لا يتوسل به بعد وفاته أو يقول ذلك فقيه من الفقهاء بدينه أو عالم متبحر في سنة نبيه بصير بأسرار الشريعة ثم قال بعد كلام وكيف ينسب إلى عمر رضي الله عنه منع التوسل برسول الله ﷺ بعد وفاته وهو الذي روى عن النبي ﷺ توسل آدم به قبل وجوده في هذه الحياة الدنيا كما أخرجه عنه الحاكم في مستدركه ا. هـ.

وقال أيضاً والله يعلم وأهل العلم يعلمون أن عمر والعباس ومن حضر استسقاء عام الرمادة كانوا في دعائهم متوسلين برسول الله وأن التوسل به عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه أمير المؤمنين وكنا نفعله وأقام فيه العباس مقام رسول الله إنما هو توسل خاص لا يكون عادة إلا من الحي بالحياة الدنيا كما قررناه وكررناه وهو التوسل بوجوده بين

Scanned by CamScanner

أظهرهم وبإقامة الاستسقاء بالصلاة والخطبة والدعاء إماماً بهم وداعياً لهم على مرأى ومسمع منهم بصلاته يقتدون وعلى دعائه يؤمنون ولما كان هذا النوع من التوسل لا يتأتى لهم فعله بعد وفاته ﷺ اقتضى الفاروق كمال تعظيمه لرسول الله ﷺ وقوة تعلقه به لاسيما في هذا المقام أن يمثل رسول الله في عمه العباس فيقدمه مستسقياً لهم ويكون بذلك كأنه أحضر شخص رسول الله بين أظهرهم وقد عرفت أن العباس لما دعا كان روح دعائه والمفتاح الذي استفتح به رحمة ربه إنما هو التوسل برسول الله كما سبق إيضاحه لك قريباً والجمع حاشد بأكابر الصحابة والتابعين ولذلك لا ترى أحداً من أهل العلم قبل هذه الشرذمة المبتدعة فهم من هذا الأثر ما وهموه من منع التوسل به ﷺ بعد وفاته فانظر ما قال الحافظ في الفتح بعد شرح هذا الأثر ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه ا.هـ.

وهكذا فهم الشراح قبله وبعده ولم يقل أحد منهم ولا من غيرهم ممن يعتد بقوله من أهل العلم إنه يستفاد من هذا الأثر منع التوسل بالأنبياء والصالحين بعد وفاتهم وكيف يقال ذلك؟ وقد شهد بجواز ذلك التوسل ومشروعيته واستحبابه الكتاب وصحيح السنة وإجماع أهل الفقه بالدين وفعله السلف والخلف ا.هـ.

خامساً: ادعاء أن التوسل الوارد في حديث عثمان بن حنيف خاص بحال حياة النبي ﷺ وجواب هذه الشبهة الواهية أنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال للضرير (وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك) وهي عند ابن أبي خيثمة بإسناد صحيح وهذا ما فهمه عثمان بن حنيف راوي الحديث الذي علم الرجل في زمن عثمان رضي الله عنه أن يدعو بهذا الدعاء ليلتفت إليه عثمان رضي الله عنه ففعل الرجل ذلك فقضيت حاجته وقصته عند الطبراني وسندها صحيح وتقدم لفظ الرواية فلا تكن من الغافلين.

Scanned by CamScanner

سادساً: مخالفته لقوله ﷺ إذ استعنت فاستعن بالله أقول هذه الشبهة من أوهامهم التي موهوا بها على الناس فزعموا أنه لا يصح الاستعانة بما سوى الله استدلالاً بهذا الحديث وضموا في الاستدلال على ذلك الاستدلال بقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ولا دلالة في الآية الشريفة ولا في الحديث الشريف على شيء من تلك الأوهام وهاك البيان أما الآية الشريفة في سورة الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ففيها البيان الناصع والشفاء القالع لجذور داء هذه الأوهام فإن سورة الفاتحة بدأت ببيان أنه المنفرد بالربوبية على أكمل وجه حتى ينقلع الشرك فيها من النفوس لتنساق بكل يسر وتنطق منقادة عن طواعية واقتناع بقولها إياك نعبد وإياك نستعين فكأنه تعالى يقول إنكم تشركون غيرنا في الربوبية فلذلك عبدتم هذا الغير واستعنتموه استعانة المربوب بمن اعتقده رباً وإذ قد بان لكم أنَّ لنا الانفراد بالربوبية لكل شيء ولا شريك لنا في ربوبية ما فقولوا إياك نعبد وإياك نستعين فلا نعبد غيرك ولا نستعين غيرك استعانة مربوب برب فهذه هي الاستعانة التي نفتها سورة الفاتحة وهي من فروع الكفر بتوحيد الربوبية ولا يفعلها بحمد الله مسلم أما الاستعانة بالأسباب من حيث أنها أسباب عادية وضعها الله على ما اقتضته حكمته العلية فإن الفاتحة لا تنفيها ولا تنهى عنها بل لا يصح أن ينفيها كتاب ولا سنة بل أمر بها كتاب الله عز وجل في صريح قوله تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] وقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] وحث الرسول ﷺ على إعانة المستعينين بهم فقال (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) وقال ﷺ «من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة».

Scanned by CamScanner

بل قد تجب الاستغاثة بالمخلوق إذا تعينت طريقاً للإنقاذ من حرق أو غرق أو انتهاك عرض أو سفك دم حرام أو نهب مال محترم.

فتلخص من قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نفي الاستعانة بغيره عز وجل على أن ذلك الغير رب أما الاستعانة به على أنه سبب فهو غير مراد قطعاً بل لا يصح أن يكون مراداً لأمر الله بها في قوله تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] إلى غير ذلك من الأدلة المذكورة أعلاه أما الحديث الشريف وإذا استعنت فاستعن بالله فليس المقصود منه به النهي عن الاستعانة بما سوى الله وإنما معناه النهي عن الغفلة عن أنَّ ما كان من الخير على يد الأسباب فهو من الله والأمر بالانتباه إلى أنَّ ما كان من نعمة على يد المخلوقات فهو من الله وبالله فالمعنى وإذا أردت الاستعانة بأحد من المخلوقين ولا بد لك منها فاجعل كل اعتمادك على الله وحده ولا تحجبنك الأسباب عن رؤية المسبب جل جلاله ولا تكن ممن يعلمون ظاهراً من هذه الارتباطات والعلاقات بين الأشياء المترتب بعضها على بعض وهم عن الذي ربط بينها غافلون وقد أومأ هذا الحديث نفسه إلى هذا المعنى وذلك في قوله ﷺ عقب هذه الجملة الشريفة (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) فأثبت لهم كما ترى نفعاً وضراً بما كتبه الله للعبد أو عليه فهذا منه ﷺ يوضح لك مراده عليه الصلاة والسلام بهذا التعليم الشريف وكيف تنكر الاستعانة بغيره وقد جاء الأمر به في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة قال تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ وحكى عن العبد الصالح ذي القرنين قوله ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف:٩٥] وقد رغب النبي ﷺ المؤمنين في قضاء حوائج بعضهم بعضاً والتيسير على المعسر والتفريج عن المكروب وجاء الترهيب في إهمال ذلك وهو في السنة كثير روى الشيخان وغيرهما عنه

Scanned by CamScanner

ﷺ قال ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) الحديث وروىٰ مسلم وأبو داود وغيرهما عنه عليه الصلاة والسلام قال (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) وقال ﷺ (ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرّم فقد عرّض تلك النعمة للزوال) رواه الطبراني بإسناد جيد وروىٰ أيضاً عنه ﷺ (إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله) فانظر إلىٰ قوله عليه الصلاة والسلام (يفزع الناس إليهم في حوائجهم) ولم يجعلهم مشركين بل ولا عاصين وروىٰ أيضاً مرفوعاً (إن لله عند أقوام نعماً أقرها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين ما لم يملوهم فإذا ملوهم نقلها إلىٰ غيرهم) وروىٰ هو وابن أبي الدنيا عنه ﷺ قال: (إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلىٰ غيرهم) قال الحافظ المنذري ولو قيل بتحسين سنده لكان ممكنا وقال ﷺ (لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته وأشار بأصبعه أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

ومما استحبه فقهاء الملة ومحدثوها للمسافر إذا انفلتت دابته في الفلاة وهي – الصحراء الواسعة – أن ينادي بصوت عال فيقول: يا عباد الله احبسوا مرتين أو ثلاثاً لما جاء في ذلك عنه عليه الصلاة والسلام قال (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا عليَّ فإن لله تعالىٰ في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم) رواه أبو يعلىٰ في مسنده وابن السني والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ورواه في الكبير أيضاً عن عتبة بن غزوان مرفوعاً بلفظ (إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد أحدكم غوثاً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل يا عباد الله أغيثوني يا عباد الله أغيثوني فإن لله تعالىٰ عباداً لا يراهم) ولفظ المناوي في شرح الكبير فليقل يا عباد الله أعينوني ثلاثا) وذكر الحافظ ابن حجر أن في سنده انقطاعاً قال ولحديث

Scanned by CamScanner

عتبة شاهد من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: إن لله تعالىٰ ملائكة في الأرض سوىٰ الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصابت أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد يا عباد الله أعينوني) قال الحافظ هذا حديث حسن الإسناد أخرجه البزار وقال لا نعلمه يروىٰ عن النبي ﷺ بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ولفظ النووي في الأذكار باب ما يقول إذا انفلتت دابته روينا في كتاب ابن السني عن عبدالله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ قال (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا فإن لله عز وجل حاضراً سيحبسه) قلت حكىٰ لي بعض شيوخنا الكبار في العلم أنه انفلتت له دابة – أظنها بغلة – وكان يعرف هذا الحديث فقاله فحبسها الله عليهم في الحال وكنت أنا مرة مع جماعة فانفلتت منا بهيمة وعجزوا عنها فقلته فوقفت في الحال بغير سبب سوىٰ هذا الكلام انتهىٰ بلفظه.

قال ابن مفلح الحنبلي وهو من تلاميذ ابن تيمية في كتابه الآداب الشرعية بعد ما ذكر هذا الحديث قال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل سمعت أبي يقول حججت خمس حجج فضللت الطريق وكنت ماشياً فجعلت أقول يا عباد الله دلوني علىٰ الطريق فلم أزل أقول ذلك حتىٰ وقفت علىٰ الطريق ا.هـ. وعمله هذا ﷺ دليل واضح علىٰ أن هذا الحديث صحيح عنده فلا بد أن يكون رواه من طريق لا مطعن فيه لديه وكفىٰ بهذا الإمام في الحديث والفقه حجة قال العلامة المحقق الشيخ داود البغدادي في كتابه صلح الإخوان في الصفحة الثالثة والخمسين بعد ما ذكر هذا الحديث ما نصه «فكيف جاز للعلماء الأكابر خصوصاً مثل الإمام أحمد أن يطلب من غير الله وهو غائب الدلالة علىٰ الطريق من غير أن يراه إلىٰ أن قال بل كيف يعلم النبي ﷺ أمته أن يطلبوا العون والدلالة من غير الله تعالىٰ والله سبحانه أقرب من عباده؟ فكيف ينادون العباد ويتركون القادر الذي بيده كل شيء؟ ولكن النبي ﷺ أعرف بالله من

Scanned by CamScanner

جميع خلقه يعلم أن الله يجري الأشياء بحسب العوائد ولهذا ترىٰ العبد يطلب من الله سبحانه الشيء سنين فلا يعطيه إياه حتىٰ يسببه علىٰ يد مخلوقه وهذا كثير جداً أفيقال إن الله لا يقدر علىٰ إعطاء السائل؟ حاشا وكلا بل ربط الله الأسباب بالمسببات لحكمة هو سبحانه يعلمها ا.هـ.

بل جاء في صحيح البخاري أبواب الغسل أن نبي الله موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام بينما كان يغتسل وقد وضع ثوبه علىٰ حجر إذ جرىٰ الحجر بثوبه حين أراد أن يلبسه فجعل نبي الله يعدو خلفه ينادي الحجر فيقول ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر فلما وقف الحجر واستقر لبس ثوبه وجعل يضرب الحجر كالمؤدب له علىٰ ما صنع أفيقال بأن نبي الله قد أشرك إذ عدل عن نداء الله الذي هو أقرب إليه من كل شيء إلىٰ نداء جماد ليس من شأنه أن يسمع أو يعقل؟ فإن قالوا إنه إذ ذاك عاقل قلنا لكنه نداء لغير الله تعالىٰ فإذا صححوا نداء العقلاء ولم يروا فيه مانعاً فإن الموتىٰ من النبيين والصالحين في برازخهم أتم حياة وأكمل عقلاً وأوسع اطلاعاً وأسرع إغاثة وأعلىٰ نجدة من كل أولئك الأحياء في هذه الدنيا الذين يتملقونهم ولا يرون حرجاً في الاستغاثة بهم وفي المواهب اللدنية وكتب السيرة المعول عليها أن أبا بكر الصديق ﷺ كان أثبت الصحابة يوم وفاة رسول الله ﷺ وكان بعضهم شاكاً في موته فدخل عليه أبو بكر وهو ﷺ مسجىٰ بثوب – أي مغطىٰ – فكشف عن وجهه وقبّل ما بين عينيه وقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله طبت حياً وميتاً يا محمد اذكرنا عند ربك ولنكن منك علىٰ بال وثبت أن الصحابة ﷺ كان شعارهم وهم يقاتلون المرتدين من أهل اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب أن يقولوا يا محمداه يا محمداه وظاهر أن ذلك لم يكن للندبة حاشاهم من ذلك فإنما ذلك لاستنزال نصر الله عليهم وبركته سبحانه بنداء اسم حبيبه وذكره ﷺ ا.هـ. نقلاً عن البراهين الساطعة لشيخ الإسلام سلامة القضاعي.

Scanned by CamScanner

سابعاً: ادعاء أن التوسل مخالف للحديث الصحيح (إذا سألت فاسأل الله) وجواب هذه الشبهة ذكره العلامة سلامة القضاعي العزامي توفي سنة ١٣٧٦هـ في كتابه البراهين الساطعة بقوله: واعلم أن من اتخذ الأنبياء والصالحين وسيلة إلى الله لجلب خير منه عز وجل أو دفع ضر كذلك فهو ليس إلا سائلاً الله وحده أن ييسر له ما طلب أو يصرف عنه ما ساء متوسلاً إليه بمن توسل به وهو في ذلك آخذ بالسبب الذي وضعه الله للناس في استنزال رحمته واستدفاع نقمته ومن أخذ بالسنن التي وضعها الكريم وسلك السنن الذي أمر الجواد بسلوكه لنيل جوده فما سأل السنن ولكن سأل واضعها وما عبد السنن وإنما عبد من أمر بسلوكه تبارك وتعالى فقول القائل يا رسول الله أريد أن ترد عيني أو أن يزول عنا الجدب أو أن يذهب مرضي فمعنى ذلك طلب هذه الأمور من الله بواسطة شفاعة رسول الله ﷺ وهو كقوله ادع لي بكذا واشفع لي في كذا لا فرق بينهما إلا أن هذه أصرح في المراد من ذلك ومثلهما في ذلك أو أوضح قول المتوسل اللهم إني أسألك بنبيك تيسير كذا من الخير أو دفع كذا من الشر فالمتوسل في ذلك كله ما سأل حاجته إلا الله عز وجل.

وبهذا تعلم أن احتجاجهم على منع التوسل بقوله عليه الصلاة والسلام: (إذا سألت فاسأل الله) هو دائر بين التلبيس على المسلمين وبين الجهالة بما هو معلوم من مراد المتوسلين أو الغلط أو المغالطة في حمل الحديث على ما هو ظاهر الفساد من أنه لا يصح لأحد أن يسأل غير الله شيئاً فإن من فهم هذا من هذا الحديث الشريف فقد أخطأ الخطأ كله ويكفي في بيان هذا الخطأ أن هذا الحديث نفسه إنما هو جواب منه عليه الصلاة والسلام لسؤال ابن عباس راوي الحديث بعد تشويق رسول الله ﷺ له أن يسأله فإنه قال له يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فأي تحريض على السؤال أجمل من هذا؟ قال ابن عباس بلى فأجابه عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث الذي منه هذه الجملة.

Scanned by CamScanner

ولو أن غراً جرىٰ علىٰ هذا الوهم، ما صح علىٰ مقتضاه أن يسأل جاهل عالماً ولا واقع في مهلكة غوثاً ممن توقف نجاته علىٰ إغاثته ولا دائن مديناً قضاء ما عليه ولا مستقرض قرضاً ولما صح للناس يوم القيامة أن يسألوا النبيين الشفاعة ولا صح لنبي الله عيسىٰ أن يأمرهم بسؤالها سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام فإن الدليل علىٰ مقتضىٰ هذا الوهم الذي توهموه عام يشمل عدم صحة ما ذكرناه وما لم نذكره فإن قالوا إن الممنوع إنما هو سؤال الأنبياء والصالحين من أهل القبور في برازخهم لأنهم غير قادرين فقد سبق رد هذا الوهم مبسوطاً وإجماله أنهم أحياء سامعون قادرون علىٰ الشفاعة والدعاء والمنكر لذلك أخف أحواله أنه جاهل بما كان يلحق بالمتواتر من سنته عليه الصلاة والسلام الدال علىٰ أن موتىٰ المؤمنين لهم في حياتهم البرزخية العلم والسماع والرؤية والقدرة علىٰ الدعاء وما شاء الله من التصرفات فما الظن بأكابر أهل البرزخ من النبيين وسائر الصالحين؟ و في حديث الإسراء والمعراج الصحيح بل المشهور ما فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع خيرهم من الصلاة خلفه والخطب بين يديه والدعاء له في السماوات حتىٰ إن الأمة ما ظفرت بتخفيف خمسين صلاة إلىٰ خمس في كل يوم وليلة بشفاعته ﷺ المتكررة إلا بعد إشارة كليم الله موسىٰ بن عمران بها عليه ﷺ.

وبهذا يتبين أنه ليس المقصود من الحديث ما توهموه فإنه فاسد واضح الفساد كما رأيت وإنما المقصود منه الترهيب من سؤال الناس أموالهم بلا حاجة طمعاً فيها والترغيب في القناعة بما يسر الله من الخير وإن كان قليلاً والتعفف عما لا تدعو الحاجة إليه مما بأيدي الناس ما وجد عن ذلك مندوحة وأن يستغني بسؤال الله من فضله فإنه سبحانه يحب الملحين في الدعاء والناس علىٰ العكس من ذلك كما قال القائل:

Scanned by CamScanner

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وفي الأحاديث الصحيحة الكثيرة ما يوضح هذا المعنى كقوله ﷺ (إنما المسائل كدوح بضم الكاف يكدح بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك إلا أن يسأل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بداً) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما وكقوله ﷺ (من سأل الناس في غير فاقة نزلت به أو عيال لا يطيقهم جاء يوم القيامة بوجه ليس عليه لحم) وقوله عليه الصلاة والسلام (مسألة الغني شين في وجهه يوم القيامة) رواه أحمد وغيره وإسناد أحمد جيد وقوله ﷺ (الذي يسأل من غير حاجة كمثل الذي يلتقط الجمر) رواه البيهقي.

وروى ابن خزيمة في صحيحه عنه عليه الصلاة والسلام قال (من سأل من غير فقر فكأنما يأكل الجمر) فالمعنى إذاً أنك إذا رأيت في يد أحد من المال ما أعجبك وطمحت إليه نفسك فلا تسأله ما في يده واستغن بسؤال الله من فضله عن سؤال عبده فالحديث إرشاد إلى أدب ترقى به النفس إلى مقام أهل القناعة وتنزه به عن السقوط في مهاوي الطمع وأدناس أهله وأين هذا من سؤال الله بأنبيائه وأوليائه أو سؤال أنبيائه الشفاعة للسائلين فيما جعل الله شفاعتهم فيه من أقوى أسباب النجح ولكن الإنسان إذا ركب الهوى شط به في مجاهل الأوهام وخرج به عن جادة صحيح الأفهام ا.هـ.

ثامناً: قولهم أن التوسل ينافي القاعدة المقررة (من أن طلب الشفاعة من غير الله شرك) وقد رد هذه الشبهة في البراهين الساطعة بقوله بيان فساد قولهم إن طلب الشفاعة من غير الله شرك.

ومن تلبيسهم على المسلمين وهو مما ينبغي ألا يأبه له العالم المحقق قولهم إنه لا يجوز أن تطلب الشفاعة من غير الله من نبي أو صالح بل طلب ذلك منه شرك لقوله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] وكأنهم لم يسمعوا قوله عز وجل ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١] ووصفه نفسه

Scanned by CamScanner

أنه مالك الملك مع قوله سبحانه ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦] وكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠] مع قوله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] وكذلك في الشفاعة قال ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] مع قوله تعالى ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٧] وقوله عز وجل ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] فكما أنه سبحانه أعطى من الملك من شاء ما شاء وجعل من العزة التي هي له ما شاء لرسوله وللمؤمنين كذلك الشفاعة كلها له وقد أعطاها للأنبياء وعباده الصالحين بل وكثير من عامة المؤمنين كما نطقت به صحاح الأحاديث المتواترة تواتراً معنوياً وأي حرج في أن يطلب الإنسان من المالك بعض ما يملكه لاسيما إذا كان المسؤل كريماً والسائل في أشد الحاجة إلى ما سأله وهل الشفاعة إلا الدعاء؟ والدعاء مأذون فيه مقدور مقبول من المؤمنين لا سيما الأنبياء والصالحين في الحياة وبعد الوفاة في القبر ويوم القيامة فالشفاعة معطاة من الله تعالى لمن اتخذ عنده عهداً ومقبولة لديه عز وجل في كل من مات على التوحيد وهل هؤلاء المفتونون أعلم من رسول الله ﷺ حيث لم ينبه على ذلك بل أجاب إلى الشفاعة من سأله إياها ولم يقل إن طلبك الشفاعة مني شرك فاطلبها من الله ولا تشرك بربك أحدا.

هذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: يا نبي الله اشفع لي يوم القيامة فيقول له عليه الصلاة والسلام (أنا فاعل إن شاء الله) الحديث وهو في سنن الترمذي وحسنه وكذلك سألها غير أنس وهو في السنة كثير نعم لم يعط الله الشفاعة لما عبد من دونه ولا لمن عبد إذا كان راضياً بعبادة عابديه أما من عبد بغير رضاه كالمسيح والملائكة فإن له الشفاعة في غير من عبده والحاصل أن عبّاد الأوثان وغيرها يعتقدون في معبوداتهم أنهم أرباب لهم

Scanned by CamScanner

وأن لهم الشفاعة فيهم عند الله لا محالة بمقتضى شركتهم له تعالى في الربوبية في زعمهم وأنها مقبولة لديه سبحانه حتماً فبين الله لهم أن اعتقادهم باطل فإنه لا شفاعة إلا بإذنه ومشيئته ورضاه وهو لا يقبل شفاعة من معبود في عابده وبيّن سبحانه للمؤمنين أنه قد أعطى الشفاعة للأنبياء وصالحي المؤمنين فيمن لقي ربه لا يشرك به شيئاً فالقصر في قوله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ إضافي المقصود به نفي شفاعة الأوثان في عابديها ونفي شفاعة سائر المعبودين في عابديهم وأين هذا مما عليه المسلمون من طلب الشفاعة ممن ملكهم الله الشفاعة وأذن لهم فيها ولا يعتقدون في الشفعاء إلا أنهم عباد مكرمون لا أرباب بغير إذن الله يشفعون.

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة وغيره من عدة طرق قصة إسلام سواد بن قارب ﷺ وفيها أنه أنشد بين يدي النبي ﷺ قوله:

وأشهد أن الله لا رب غيره وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

إلى أن قال:

فكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد ابن قارب

وأقره رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه طلب الشفاعة منه ولو كان ذلك مكروهاً ما أقره؟ فكيف إذا كان شركاً وقد قدمنا مراراً أن الشفاعة هي من الدعاء ولذلك عرفها العلماء بأنها طلب الخير للغير عند الهول فإذا قال القائل للنبي أو للولي اشفع لي أو أسألك الشفاعة فمعناه ادع لي أو أسألك الدعاء ولم يقل أحد من أهل العلم بأن ذلك مكروه فضلاً عن أن يكون حراماً فضلاً عن أن يكون شركا بل هو بالإجماع من السنة

Scanned by CamScanner

الظاهرة المشهورة ولا فرق في هذا الطلب بين أن يكون ممن هو في الحياة الدنيا أو في الحياة الأخرىٰ وفهم ذلك أصحاب رسول الله ﷺ.

هذا أبو عبدالرحمن بلال بن الحارث المزني صاحب رسول الله ﷺ وحامل لواء مزينة في جيش رسول الله ﷺ يوم الفتح لما أصاب الناس قحط في عهد عمر جاء بلال هذا فوقف عند قبر رسول الله ﷺ فناداه يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فهذا طلب الشفاعة والدعاء منه عليه الصلاة والسلام بعد وفاته والعهد عهد الصحابة والمسجد ممتلئ بالأكابر منهم فلم ينكر عليه أحد ولا عده خلاف الأولىٰ ولم يقل منهم قائل إنّ هذا من القبوريين المشركين عباد القبور وأهل القبور وقد أخرج هذا الأثر ابن أبي شيبة بسند صحيح والبيهقي في دلائل النبوة بسند صحيح أيضاً بل وقع منهم ﷺ ما هو أبلغ من ذلك في التوسل برسول الله ﷺ فاستمع أخرج الدارمي في سننه باب ما أكرم الله نبيه به بعد موته عن أبي الجوزاء أوس بن عبدالله التابعي الجليل قال قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلىٰ عائشة فقالت انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوىٰ إلىٰ السماء حتىٰ لا يكون بينه وبين السماء سقف قال ففعلوا فمطرنا مطراً حتىٰ نبت العشب وسمنت الإبل حتىٰ تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق وقولها اجعلوا منه كوىٰ أي مما يحاذيه من سقف الحجرة الشريفة والكوىٰ جمع كوه كقوة والمراد بها النوافذ الصغيرة وقحط من باب خضع وطرب مبنياً للفاعل وقد يبنىٰ للمفعول وهو قليل فهل يقول أولئك المبتدعة في أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق التي هي من أعلم أصحابه ﷺ وفيمن شهد هذه الواقعة من أجلاء الصحابة وأكابر التابعين إنهم قبوريون مشركون؟ وهم في هذه الواقعة إنما توسلوا بما له تعلق برسول الله ﷺ وحقق الله رجاءهم وقبل استشفاعهم وأي ملام علىٰ المسلمين في أن يأخذوا بالأسباب التي جعلها الله مفاتيح لخيره وأبواباً لرحمته مع جزمهم بأن ذلك من سنن الله التي وضعها لعباده علىٰ ما تقتضيه حكمته وفي صحيح مسلم وغيره عنه عليه الصلاة والسلام

Scanned by CamScanner

(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) ثم قال احرص على ما ينفعك ولا تعجز فإن فاتك شيء أي بعد ما بذلت الوسع فيما تقدر عليه من السنن التي وضعها الله فقل قدر الله وما شاء فعل ولا تقل لو فإن لو تفتح عمل الشيطان، وإن من السنن الإلهية التي وضعها الله لقضاء حوائج عباده التوسل به ﷺ والشكوى إليه والاستغاثة به وكذلك بصالحي أتباعه في الحياة وبعد الوفاة شهدت بذلك صحاح الأحاديث والآثار وتجارب المقربين الأخيار بل وعامة المؤمنين السالمين من البدع والإنكار وكم من أزمة استحكمت حلقاتها وأمراض استعصى على أطباء الأبدان علاجها وقلوب مرضت بأمراض فتن الشبهات أو الشهوات طال زمانها حتى إذا فزع فيها المؤمنون إلى الله متوسلين مستغيثين بسيد المرسلين والأكابر من الصالحين أسرع الفرج ونزل الشفاء وزال العسر وجاء اليسر وفي كتب العلماء الصحيحة والحكايات المروية بالأسانيد الثابتة بل في الأحاديث الصحاح والآثار التي لا مطعن فيها ما يثبت للباحث المنصف صدق ما قلنا ومن تلوث باطنه بجراثيم البدع والهوى انقلبت في نظره الآيات والكرامات إلى أوهام وخيالات فيفيض في الإنكار حتى يريك النهار ليلاً ويخيل إليك أن الليل نهار ا.هـ. نسأل الله العافية لنا وللمسلمين.

وتأمل هذه الرواية التي أخرجها الحاكم وأحمد كما في تفسير ابن كثير رحمه الله عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبي ﷺ فقال الإيمان هاهنا وأشار بيده إلى لسانه والنفاق هاهنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً فقال رسول الله ﷺ (اللهم اجعل له لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من يحبني وصير أمره إلى خير) فقال يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم أفلا آتيك بهم قال (من أتانا استغفرنا له ومن أصر فالله أولى به ولا تخرقن على أحد سترا).

Scanned by CamScanner

فانظر أرشدك الله في هذا الرجل كيف قضىٰ شطراً من دهره في الشك والنفاق وبرع في نفاقه حتىٰ صار في أصحابه رأساً ولما أراد الله عز وجل به السعادة ألهمه أن يذهب إلىٰ رسول الله ﷺ فيشكو إليه حاله فما هو إلا أن تحركت الهمة المحمدية بالشفاعة فيه إلىٰ ربه فإذا الحال قد حال وانقشعت عن الرجل الظلمات وأشرقت في قلبه شمس اليقين وأنوار الإخلاص وتأمل جيداً قوله ﷺ (من أتانا استغفرنا له ومن أصر فالله أولىٰ به) يظهر لك جلياً أن المجيء إلىٰ الرسول والشكوىٰ إليه والاستغاثة به في الملمات من أقوىٰ الأسباب التي وضعها الله لإزالة البليات وكشف الكربات ونيل الحاجات والفوز بسعادة الدارين وأن من فرط في ذلك فلا يلومن إلا نفسه وفي قوله تعالىٰ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء:٦٤] حيث لم يقتصر علىٰ استغفارهم بل قيده باستغفاره عليه الصلاة والسلام لهم أبين البيان عند أولي الأفهام أن لرسول الله ﷺ عند ربه من القدر العلي ما جعل خير العباد موقوفاً علىٰ توجههم إليه واعتنائه عليه الصلاة والسلام بشأنهم.

تاسعاً: ادعاء أن في التوسل طلب ما لا يقدر عليه عادة من غير الله وهذا شرك يعني أن المتوسلين يطلبون من الأنبياء والصالحين الميتين ما لا يقدر عليه إلا الله وذلك الطلب شرك والجواب أن هذه من تلبيساتهم المكشوفة وفيه بيان لسوء فهمهم لما عليه المسلمون سلفاً وخلفاً فإن الناس إنما يطلبون من المُتوَسَل بهم أن يتسببوا عند ربهم في قضاء ما طلبوه من الله عز وجل بأن يخلقه سبحانه بسبب تشفعهم ودعائهم وتوجههم كما رأيت في حديث الضرير الذي نحن بصدد دفع الشبه عنه وكما صح عند الدارقطني وأبي نعيم وغيرهما أن قتادة بن النعمان حين أصاب السهم عينه في غزوة أحد فسالت عينه علىٰ خده التفت إلىٰ رسول الله ﷺ يشكو إليه ما أصابه ويطلب منه أن ترد عينه كما كانت فقال له إن

Scanned by CamScanner

شئت صبرت فقال يا نبي الله إن لي امرأة أحبها وأخشىٰ إن هي رأتني كذلك أن تقذرني أي تكرهني وقذر الشيء من باب علم فتبسم ﷺ وردها إلىٰ موضعها وتفل فيها وقال اللهم اجعلها أحسن عينيه فعادت بإذن الله أحسنهما.

وكان إذا أصابه الرمد لا يصيب عينه التي ردها رسول الله ﷺ ولم يقل له رسول الله ﷺ أشركت حين طلبت مني ما لا يقدر عليه إلا الله.

وأخرج البيهقي في الدلائل أن رجلاً جاء إليه عليه الصلاة والسلام فطلب منه أن يحيي له ابنته فأحياها له بإذن الله حتىٰ سمع كلامها.... الحديث ولم يقل ﷺ له أشركت وهكذا كل ما طلب منه من خوارق العادات كشفاء الداء العضال بلا دواء وإنزال القطر من السماء حين الحاجة إليه ولا سحاب وقلب الأعيان ونبع الماء من الأصابع وتكثير الطعام وغير ذلك فهو مما لا يدخل تحت قدرة البشر عادة وكان يجيب إليه ولا يقول عليه الصلاة والسلام لهم إنكم أشركتم فجددوا إسلامكم فإنكم طلبتم مني ما لا يقدر عليه إلا الله أفيكون هؤلاء الحمقىٰ أعلم بالتوحيد وبما يخرج عن التوحيد من رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ؟ هذا ما لا يتصوره جاهل فضلاً عن عالم وتأمل ثم تأمل ما حكاه القرآن المجيد من قول النبي الكريم سليمان عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام لأهل مجلسه من الجن والإنس ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] فهو يطلب منهم الإتيان بالعرش العظيم من اليمن إلىٰ موضعه من الشام علىٰ طريقة خارقة للعادة ليكون ذلك آية لبلقيس داعية إلىٰ إيمانها ولما قال العفريت من الجن ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٩] يعني في ساعات قليلة قال نبي الله أريد أسرع من ذلك فقال الذي عنده علم من الكتاب وهو أحد الصالحين من الإنس في مجلسه ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] يعني قبل أن يرجع إليك طرفك إذا أرسلته فقال عليه

Scanned by CamScanner

الصلاة والسلام ذلك أريد فدعا الرجل فإذا العرش بين يديه والإتيان بالعرش على هذه الطريقة هو مما لا يقدر عليه إلا الله وليس داخلاً تحت مقدور الإنس ولا الجن عادة وقد طلبه سليمان من أهل مجلسه وقال له ذلك الصالح أنا أفعل ذلك أفكفر نبي الله سليمان بهذا الطلب وأشرك ولي الله بهذا الجواب؟ حاشاهما من ذلك وإنما إسناد الفعل في الكلامين على طريقة المجاز العقلي وهو سائغ بل شائع.

وكشف الخفاء عن هذا اللبس إن كان ثم خفاء هو أن الناس إنما يطلبون منهم التشفع إلى الله في ذلك وهو مما أقدرهم الله عليه وملكهم إياه فالقائل يا نبي اشفني ويا ولي الله اقض ديني لو فرض أن أحداً قال هذا فإنما يريد اشفع لي في الشفاء وادع لي بقضاءَ الدين وتوجه إلى الله في شأني فهم ما طلبوا منهم إلا ما أقدرهم الله عليه وملكهم إياه من الدعاء والتشفع فالإسناد في كلام الناس من المجاز العقلي الذي لا خطر فيه على من نطق به كقوله سبحانه وتعالى ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [يس:٣٦] وقوله ﷺ (إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم) وهو في كلام الله ورسوله والخاصة والعامة كثير جداً وليس فيه محذور فإن صدوره من الموحدين قرينة على مرادهم وليس فيه شيء من سوء الأدب ومن العجيب أنك تقول أشبعني الطعام وأرواني الماء وشفاني الدواء الفلاني وقتل السم فلاناً إلى غير ذلك ولا يجد المبتدعة في أنفسهم حرجاً منك إذا قلت ذلك.

فإذا قلت: يا رسول الله خذ بيدي أو ياولي اشفع لي هاجوا عليك ورموك بالخروج عن الملة ولله در العلامة المحدث عبدالغني النابلسي رحمه الله حيث يقول إنه لا منشأ لذلك إلا بغض كامن في قلوبهم لأولياء الله فإنهم لا يجدون غضاضة في نسبة النفع للدواء والضرر للسم فإذا سمعوا نسبة ذلك إلى نبي الله أو وليه اشمأزت قلوبهم وعبست وجوههم وادعوا أنهم يحمون بذلك جناب التوحيد والتوحيد غني عن

Scanned by CamScanner

حمايته بهذا السلاح الذي لا يسلونه إلا على الموحدين ولا يصولون به إلا على خلص المقربين عياذاً بالله عز وجل.

قال العلامة سلامة القضاعي في البراهين الساطعة وألفت نظرك إلى قوله عليه الصلاة والسلام من يسر ومن فرج حيث نسب التيسير والتفريج إلى غير الله إسناداً للفعل إلى السبب وهو ما يسمى في علوم البلاغة بالمجاز العقلي ليرفع الحرج عن أمته في أمثال ذلك ولا يريد المسلمون إلا هذا المعنى الذي نطق به نبيهم بل وكتابهم فإذا قال القائل منهم نفعني النبي أو الولي أو أخذ بيدي أو أغاثني فلا يعنون إلا هذا الإسناد المجازي وإن لم يعرفوا لفظ المجاز فقد استقر في نفوسهم معناه بما وقر فيها من نور التوحيد الذي قلع عنهم كل شرك كما قال عليه الصلاة والسلام (إن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرتكم هذه.....) الحديث وطمأنه ربه على أمته فما كان يخشى عليهم أن يشركوا بعده وصرح بذلك ﷺ وإنما الشرك الذي جاء في صحاح الأحاديث في هذه الأمة فهو في آخر الزمان حين يرفع القرآن ولا يبقى في الأرض من يقول الله الله كما يرشد إليه استقراء الأحاديث الواردة في هذا المعنى.

ومن ذا الذي يقول وهو من أهل العقول إن الغريق ونحوه إذا استغاث بمخلوق لينتشله وهو يعلم أنه من الأسباب العادية يكون بالله كافراً وفي عبادته مشركاً فإن قالوا إنه لا بأس بالاستغاثة بالأحياء القادرين أما بالأموات فهو الكفر والشرك فإن كانوا لا يؤمنون بالكتاب والسنة ويرون أن من مات من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين قد صاروا جماداً لا حياة لهم ولا سمع ولا بصر ولا اقتدار على دعاء وشفاعة عند مولاهم عز وجل وأنهم سقطت أقدارهم عند ربهم بموتهم وانتقالهم من دار العمل والتكليف إلى دار الجزاء والتشريف وهذا ما لا يعقل فما كان يصح لهم أن يقولوا إلا أن هذه الاستغاثة عبث لا شرك فإن من استغاث بالجماد أو ناداه وهو يعلم أنه ليس برب كان عابثاً بهذا

Scanned by CamScanner

العمل لا مشركاً ولا كافراً ولكنها الأهواء إذا غلبت دفعت بصاحبها إلى أن يقول مالا يصح في معقول ولا يثبت في منقول.

ولو زال عن أسماعهم حجاب الهوى وحمية التعصب لسمعوا الله يقول في الشهداء الذين هم دون الأنبياء بدرجات ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤] بل نهى عن حسبانهم أمواتاً فقال ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] ولم يكتف بذلك حتى صرح في حقهم بالحياة ولوازمها.

والمعنى الذي لأجله نال الشهداء تلك الدرجة من الحياة هو بذل حياتهم الدنيوية في مرضاة الله تعالى حتى انتهت في سبيله وفنيت في طاعته فعوضهم منها هذه الحياة العليا الباقية الكاملة وما شهادة الشهداء إلا قبس من ضياء جهاد الصديقين في ربهم – عز وجل – وأين جهاد الشهداء والصديقين من جهاد النبيين؟ فما الظن بسيد المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

فلا جرم أن تكون حياتهم في القبور ولوازم تلك الحياة أتم وأكمل من حياة الشهداء.

وأهل البصائر يعلمون أن هذه الحياة الدنيوية التي صحح هؤلاء معها الاستغاثة هي موت بالإضافة إلى ما تفضل الله به على الشهداء في برازخهم من الحياة وهكذا نسبة ما نال الشهداء إلى ما نال الصديقون والنبيون منها ويتضاعف ذلك إذا وقعت النسبة بين هذه الأنواع وبين ما أوتيه في برزخه سيد الأنبياء ﷺ من الحياة وتوابعها من العلم والسمع والبصر والاقتدار على النفع والضر بإذن ربه عز وجل.

وقد صحت الأحاديث بحياة أهل القبور من المؤمنين ولوازمها من السمع والبصر والكلام ورد السلام والتزاور فيما بينهم والقدرة على دعائهم للأحياء من أهل الدنيا لاسيما لقرابتهم وزوارهم فالمعنى الذي

Scanned by CamScanner

أجاز له هؤلاء المبتدعة الاستغاثة بالأحياء بحجة أنهم سامعون قادرون حتىٰ لم يخرجوهم بها إلىٰ الشرك هو موجود علىٰ أتم وجوهه في عامة المؤمنين فضلاً عن الخاصة من الصالحين بل صح أنه عليه الصلاة والسلام لما نادىٰ أهل القليب بأسمائهم وأسماء آبائهم وهم صناديد الكفر وعظماء أهل الشرك بعد ثلاث من دفنهم فيه قال قائل يا رسول الله وما تخاطب من أجساد لا أرواح فيها؟ وفي رواية من أقوام قد جيفوا بفتح الجيم وتشديد الياء المثناة أي صاروا جيفاً فحلف لهم الصادق المصدوق علىٰ أن هؤلاء الذين ترونهم كما ذكرتم ليسوا كما ترون فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم يعني ﷺ بل هم أسمع منكم لما أقول ودعوىٰ الخصوصية بلا دليل بل مع قيام الدليل علىٰ انتفائها غير مسموعة.

وأهل التحقيق بتفسير كتاب الله يعلمون أن سماع الموتىٰ لا يرده قوله تعالىٰ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] فإنه ليس المراد به نفي السماع الحسي المتعارف وإنما معنىٰ الكلام الشريف ما أنت بمنقذ هؤلاء الكفار المعاندين فإنهم يشبهون أهل القبور في قيام المانع من النجاة بكل من المشبه والمشبه به وإن كان المانع مختلفاً فإن مانع هؤلاء الإصرار علىٰ الكفر والعناد للحق بحيث طبع علىٰ قلوبهم ومانع أهل القبور فوات زمان التوبة كما قال تعالىٰ ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨] ولا يصح جعل وجه الشبه عدم السماع الحسي فإن هؤلاء الأحياء لهم هذا السماع وليس منفياً عنهم ووجه الشبه لا بد أن يكون متحققاً في طرفي التشبيه كما لا يخفىٰ علىٰ من أوتي حظاً من علم البيان ا.هـ. وقد بسطت الكلام علىٰ حياة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين في الجواب المرسخ فراجعه لزاماً.

Scanned by CamScanner

عاشراً: ادعاؤهم أن في التوسل نداء للأنبياء والصالحين بعد وفاتهم وهذا كفر وحاصل هذه الشبهة أنهم لبسوا على العامة وأنصاف المتعلمين بقولهم إن من نادى نبياً أو صالحاً بعد وفاته مستغيثاً به متوسلاً به إلى ربه دل ذلك على أنه يعتقد فيه علماً محيطاً وقدرة شاملة واستقلالاً بالنفع والضر واعتقاد ذلك كفر بلا شك فكان نداؤهم شركاً بلا شك وقد أجاب عن هذه الشبهة العلامة سلامة القضاعي رحمه الله بقوله سبحان الله هذا بهتان عظيم فإن كانوا يرون ذلك من أنفسهم ويحسونه في وجدانهم فلا نزاع لنا معهم في حكمهم على أنفسهم وإنما الذي ننصح به لهم إن كان ينفعهم نصح أن يعلموا أنهم مرضى بداء الأوهام والوساوس فليضرعوا إلى الله أن يشفيهم من هذه الأدواء ويتفضل عليهم بالدواء وأن يرجعوا عن مقاطعتهم لسيد المرسلين وكمل أتباعه الصالحين إلى المواصلة وليصبروا على الضراعة والالتجاء إلى الله متوسلين إليه بباب الرحمة الكبرى فعسى أن يسعفهم الله بنظرة من سيد الأطباء أو واحد من كمل ورثته فهنالك بفضل الله يكون الشفاء.

أما المسلمون فإنهم لا يعتقدون شيئاً من هذا بحمد الله عز وجل وإنما منشأ استغاثتهم بنبيهم وصالحي أتباعه وتوسلهم بهم هو كمال الإيمان الراسخ في قلوبهم بمكانة نبيهم ﷺ عند ربهم عز وجل ومكانة كمل التابعين له وبأنه لا يستوي عند الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء وبأن أكرم الناس عنده تعالى أتقاهم وأن كل من كان أقوم بالتقوى كان أقرب عند الله زلفى فتكون عناية الله به أتم وأعلى فيكون التوسل به إلى الله ونداؤه والالتجاء إليه والصلاة عليه والترضي عنه من أعظم مفاتيح رحمة الله وأقوى الأسباب لتنزل فضل الله على من تعاطاه وقد صح لهم عن نبيهم ﷺ ما يؤيد هذا الإيمان ويقويه وينميه فإن أمره عليه الصلاة والسلام للضرير بالتوسل به وندائه في غيبته وإعادة ذلك كلما عرضت حاجة له ولو بعد وفاته ﷺ يقرر للأمة جمعاء أنه تعالى كما

Scanned by CamScanner

جعل الصلاة عليه مرة سبباً لصلاة الله على المصلي عشراً جعل عز وجل نداء الأمة له متوسلين به إلى ربه من أقوى الأسباب في قبول الدعاء وقضاء الحاجات ولله أن يضع ما يشاء من الأسباب لما شاء من المسببات لا حجر عليه عز وجل.

فمن الأسباب ما هو مادي علمه العباد بالتجارب ومن الأسباب ما هو معنوي كشفته السنة المحمدية ووردت به النصائح النبوية ليتعاطاه العباد فيأتيهم من الله المراد وجزى الله نبينا عن أمته خير الجزاء فما أحرصه على نفعها وتعليمه إياها ما هو أجلب للخير وأدفع للضر فإنه ﷺ لم يدع للضرير كعادته ﷺ إذا شكا إليه الشاكي ضره بل علمه هذه الدعوة التي فيها التوسل به والنداء له ﷺ وأوصى بفعلها عند الحاجات ليتركها ذخيرة لأمته بعده باقية على مدى الدهور فيدع معهم مفتاحاً للرحمة الخاصة لا يخيب من استفتح به فضلاً من الله وإحساناً وما كان يدور بخلد عالم خبير بالسنة بصير بأسرار الشريعة أن يأتي منتسب للعلم بعد قرون فيرمي بالشرك المسلمين في أخذهم بوصايا نبيهم وإرشاداته الميمونة ويقول أن من نادى غير الله من غائب أو ميت كان معتقداً فيه علماً محيطاً وقدرة شاملة مستقلة ويزعم أنه يرى ذلك من الناس فإن كان رأى ذلك في نومه فليعلم أنه من أضغاث الأحلام وإن كان رآه في يقظته فليعلم أن ذلك من خيالات المصابين بحمى التعصب لرأيه الممقوت ومعاذ الله أن يعلم رسول الله الأمة ما هو شرك أو ذريعة إلى الشرك وفي الحديث الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام إن لي عند ربي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب لا نبي بعدي وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي بل ما علمهم ﷺ من التوسل به والاستغاثة والاستشفاع والنداء له في الغيبة وبعد الوفاة إنما هو موجب لكمال الإيمان وناشئ عن قوة الإيمان بأصول كلها يجب الإيمان بها.

Scanned by CamScanner

قل لي بربك كيف كان إيمان ذلك الضرير حين ارتد بصيراً بتوسله برسول الله واستغاثته به وندائه له وهو غائب عنه غير سامع له أليس قد تضاعف هذا الإيمان وزاد وبلغ الغاية في اليقين بالله الذي رد عليه بصره بغير سبب من الأسباب العادية وبتفوق قدر نبيه عنده – عز وجل – على كل قدر؟ فإن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يبرئ الأكمه والأبرص إذا مسح على موضع العلة منهما بإذن الله ورسول الله عليه الصلاة والسلام قد أزال العمى عن مناديه والمتوسل به بمجرد الذكر والتوسل فكان ذكره والتوسل به والاستغاثة به سبباً كافياً في زوال العلة والشفاء من الداء بدون أن يمسح بيده الشريفة عليه ولا أن يدعو له وقل لي بربك هل كفر عثمان بن حنيف ﷺ حين علم الدعاء ذلك الرجل الذي مرت لك قصته وهل كفر هذا الرجل؟ وهل ذهب إيمانهما حين رأيا أثر الإجابة مسرعاً غير مبطئ؟ أم كان موجب التوسل وتعليمه والعمل به كمال الإيمان وكان منتهاه ونتيجته زيادة هذا الكمال؟ ولكن الهوى إذا استحكم لم يدع القلب يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هذا الهوى.

الحادي عشر: إن في التوسل بالنداء للنبي إثبات سماع الغائب النداء من بعيد.

أقول وما المانع من صحة سماع الغائب النداء من البعيد وقد دل على صحته القرآن فعن ابن عباس قال قام إبراهيم عليه السلام على الحجر فقال يا أيها الناس كتب عليكم الحج فأسمع من في أصلاب الآباء وأرحام النساء فأجابه من آمن ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك صححه ابن حجر في فتح الباري.

فما المانع من إسماع الله عز وجل نبيه ﷺ نداء من شاء وأن يحصل لهذا المرء المنادي لرسول الله نفع وخير بإذن الله عز وجل إكراماً لرسول الله ﷺ.

Scanned by CamScanner

الثاني عشر: مخالفة الحديث لكثير من الآيات القرآنية منها قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤] وقوله تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] وقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس:١٠٦] وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣] وقوله تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] وقوله تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] وقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٠] وقوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] إلى غير ذلك من الآيات والجواب أنه لا يوجد لهؤلاء المبتدعة المكفرين للأمة حجة صحيحة فيما ذهبوا إليه فكل ما عندهم مما سموه حججاً إنما هو أوهام في آيات الكتاب العزيز حرفوا بها الكلم عن مواضعه كدأب إخوانهم الأولين من الخوارج فتراهم يعمدون إلى آيات نزلت في المشركين لا تصدق إلا عليهم فيحملونها على المؤمنين المملوئين بتوحيد الله في الربوبية واستحقاق العبادة وما هو له أهل من صفات كماله سبحانه قال البخاري في باب قتل الخوارج وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله وقال إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين ووصل الطبري التعليق في كتابه تهذيب الآثار بسند صحيح ولفظه عن بكير بن الأشج قال قلت لنافع كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال كان يراهم شرار خلق الله انطلقوا إلى آيات الكفار فجعلوها في المؤمنين وهذه خاصة الخوارج متى وجدوا وحيث وجدوا في كل زمان ومكان تراهم يعمدون إلى الآيات النازلة في المشركين عبدة الأصنام ثم يحملونها على المؤمنين المتوسلين بالأنبياء والصالحين

Scanned by CamScanner

ويتعللون أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجهلوا أن شرط ذلك اتحاد المصدق أما إذا كانت الآيات لا تصدق إلا على الكافرين فلا يجوز حملها على الموحدين.

وحاصل ما موهوا به في هذه الآيات ونحوها أن الناس قد أطبقوا على دعاء صالحي أهل القبور وندائهم مستغيثين بهم وكل دعاء فهو عبادة وفاتهم أن هذا قياس إن صدقت صغراه فقد كذبت كبراه فلا تكون نتيجته إلا كذباً فلو كان كل دعاء عبادة لما صح الفرق بين حاضر وغائب ولا بين حي وميت ولكان كل مستنجد وداع لأحد مستغيثاً به كافراً مشركاً فيلزم أن يكونوا مشركين في نداء بعضهم بعضا.

وبيان كشف المغالطة في هذا الكلام أن الدعاء بمعنى النداء إن كان لمن لا يعتقده رباً فليس من العبادة في شيء لا فرق في المدعو بين أن يكون حياً بهذه الحياة الدنيا أو الحياة الأخروية وبين أن يكون جماداً لا يسمع ولا يبصر وإن كان لمن يعتقد ربوبيته أو استقلاله بالنفع والضر أو شفاعته عند الله بغير إذن الله فهو عبادة لذلك المدعو ويكون به كافراً إن كان المدعو غير الله عز وجل وهذا هو ما عليه من نزلت فيهم الآيات من المشركين.

وقد يطلق الدعاء على العبادة والعبادة هي الخضوع التام لمن تعتقد فيه ربوبية أو خاصة من خواصها وهذا ما كان عليه المشركون.

وقوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] معناه أنهم يعترفون بالحق إذا نوقشوا ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى خلاف ما نطقت به ألسنتهم فيتناقضون كما هو دأب من غلبه الهوى ولج في العناد وربما موهوا عليك بقوله ﷺ الدعاء هو العبادة وفي رواية (مخ العبادة) وهو حديث ثابت وهو حق وليس الشأن في تلاوة لفظه ولكن في فهم معناه وبيانه أن أل فيه للعهد الخارجي عند المخاطبين وهم المؤمنون والمعهود عندهم إنما هو دعاؤهم ربهم عز وجل وليست

Scanned by CamScanner

للاستغراق كما وهم أولئك المخدوعون وعلى هذا النحو من المغالطة استدلالهم بقوله تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] فإن الولي في الآية هو المعبود واستدلالهم بقوله تعالى حاكياً عن المشركين قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقالوا إن المتوسلين بمولانا رسول الله ﷺ وسائر الصالحين هم ممن تنطبق عليهم هذه الآية الكريمة وهذا افتراء واضح على كتاب الله وعلى المؤمنين فإن الآية في الذين اتخذوا من دونه أولياء والأولياء فيها هم المعبودون الذين اعتقدوا فيهم ربوبية واستقلالاً بالنفع والضر فعبدوهم لذلك وزعموا فيهم أنهم سيكونون لهم شفعاء عند شريكهم الأكبر تعالى الله عما يشركون وأن شفاعتهم نافذة عليهم لا محالة بمقتضى شركتهم معه فالآية في الربوبية واستحقاق العبادة لا تتناول بمنطوقها المؤمنين المتوسلين ولا يصح قياس المؤمنين عليهم فبأي جامع يصح قياس موحد في الربوبية واستحقاق العبادة للواحد المعبود بحق على مشرك به فيهما؟ وأي دليل بل أية شبهة فيها رائحة من دليل تجعل التوسل والاستغاثة بالعباد من جملة العبادات التي يكفر من فعلها والمتوسل أو المستغيث بهم يعلم أنهم عباد مكرمون يقبل الله شفاعتهم والاستشفاع بهم بفضله مع ما علمت من أن العبادة شرعاً لا تكون إلا لمن اعتقد الربوبية فيمن عظمه وخضع له والمسلمون المتوسلون بحمدالله بريئون من اعتقاد الربوبية لغير مولاهم عز وجل وهاك هذا الجدول لتعرف الفرق بين توسل الموحدين ودعاء المشركين:

Scanned by CamScanner

م	التوسل	دعاء وعبادة المشركين
١	الوسيلة: النبي أو الولي غير معبود ولا يعتقد فيه استقلال بالنفع أو الضر ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ [الأعراف: ١٨٨] الآية والمتوسل مؤمن بذلك	الأصنام معبودة يعتقد فيها عابدوها الاستقلال بالنفع والضر أراد الله أم لم يرد تعالى الله عن ذلك ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]
٢	التوجه فيه والدعاء والطلب من الله وحده والنبي أو الولي الوسيلة متوجه إلى الله وطالب منه مثل المتوسل تماماً (إني أتوجه بك إلى ربي..) (اللهم شفعه في....)	التوجه والطلب مقرونا بالعبادة هو من الأصنام وحدها ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦] الآية
٣	الأنبياء والأولياء والصالحون لهم حق وجاه وقدر عند الله سبحانه بفضله ولا إلزام عليه ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩] الآية ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] الآية بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي.	ليس لها قدر ولا جاه ولا حق عند الله ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]
٤	أرواح الأنبياء والأولياء في الدنيا وفي البرزخ حية عالمة تقوم بعبادة الله ودعاؤه	الأصنام والأحجار جمادات لا تحس ولا تدعو ولا تطلب ولا تملك شيئا ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا

Scanned by CamScanner

م	التوسل	دعاء وعبادة المشركين
	(مررت بموسى قائما يصلي في قبره)	﴿يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٣-١٤] الآيتان
٥	أرواح الأنبياء والأولياء تعلم وتحس بالمتوسل بها إما بنفسها أو عن طريق الملائكة (تعرض عليَّ أعمالكم). (إن أعمالكم تعرض على أقاربكم)	الأصنام والأحجار لا تعرف عبادها ولا تحس بهم أو بغيرهم الآيتان السابقتان
٦	أرواح الأنبياء والأولياء مأذون لها بالشفاعة والطلب من الله في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] (واشفع تشفع الحديث	الأصنام غير مأذون لها ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤]
٧	التوسل صحيح ومقبول إن شاء الله حتى بدون أن يحس الوسيلة النبي أو الولي بالمتوسل وبدون أن يدعو له كالتوسل بحقه ﷺ أو جاهه أو منزلته وقدره عرف النبي أو الولي بذلك أم لم يعرف	العكس تماماً ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]

Scanned by CamScanner

م	التوسل	دعاء وعبادة المشركين
٨	التوسل بالأنبياء والصالحين عند الشدائد وفي كل وقت مندوب إليه أرشدنا المشرع إليه وعلمنا كيفيته ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] الآية (وإن كان لك حاجة مثل ذلك فافعل) الحديث	

ومن خلال الجواب عن هذه الشبهة يتضح لك جلياً أن منشأ هذه الشبهة الجهل بمعنى الإيمان والعبادة شرعاً وها أنا أشير في هذه الكلمات إلى ما يجتث أصول هذه الأوهام ويعين قارئه بفضل الله على فتح أبواب صحاح الأفهام.

اعلم أن الإيمان هو التصديق بما علم مجيء النبي ﷺ به واشتهر بين الخاصة والعامة اشتهاراً يلحقه بالضروريات.

وأن الكفر والعياذ بالله هو إنكار شيء من ذلك بعد أن يعلم المنكر أن النبي ﷺ جاء به.

والعبادة شرعاً هي الإتيان بأقصى الخضوع قلباً باعتقاد ربوبية المخضوع له أو قالباً مع ذلك الاعتقاد فأو في التعريف للتقسيم.

فالعبادة نوعان: قلبية وقالبية.

فالقلبية: هي اعتقاد الربوبية أو خصيصة من خصائصها كالاستقلال بالنفع أو الضر ونفوذ المشيئة لا محالة لمن اعتقد فيه ذلك.

Scanned by CamScanner

والقالبية: هي الإتيان بأنواع الخضوع الظاهرية من قيام وركوع وسجود وغيرها مع ذلك الاعتقاد القلبي فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ذلك الخضوع عبادة شرعاً في كثير ولا قليل مهما كان المأتي به ولو سجوداً وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إياهم وغيرهما من أنواع الخضوع لتحقق قيد اعتقاد الربوبية أو خصيصة من خصائصها في من سجدوا له أو دعوه أو خضعوا له.

ولا يصح أن يكون السجود لغير الله فضلاً عما دونه من أنواع الخضوع بدون هذا الاعتقاد عبادة شرعاً فإنه لو كان عبادة لكان كفراً وما هو كفر لا يختلف حكمه بحكم الشرائع قال العلامة سلامة العزامي رحمه الله وإنما قال العلماء بكفر من سجد للصنم لأنه أمارة على ذلك الاعتقاد لا لأنه كفر من حيث ذاته إذ لو كان لذاته كفراً لما حل في شريعة قط فإنه حينئذ يكون من الفحشاء والله لا يأمر بالفحشاء وقد كان السجود لغير الله عز وجل على وجه التحية والتكريم مشروعاً في الشرائع السابقة وإنما حرم في هذه الشريعة فمن فعله لأحد تحية وإعظاماً من غير أن يعتقد فيه ربوبية كان آثماً بذلك السجود ولا يكون به كافراً إلا إذا قارنه اعتقاد الربوبية للمسجود له ويرشدك إلى ذلك قوله عز وجل في يعقوب نبي الله وامرأته وبنيه حين دخلوا على يوسف ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠] قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصاً بجناب الرب تعالى هذا مضمون قول قتادة وغيره ا.هـ.

وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشيطان ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦] وقال ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وما

Scanned by CamScanner

كان سجود الملائكة لآدم عبادة له بل عبادة للآمرعز وجل وتحية وتكريم لآدم فلو كان مجرد السجود كفراً لما صح جوازه في الشرائع السابقة لأن الله عز وجل لا يرضى الكفر ولا يشرعه قال تعالىٰ ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧].

وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال (ما هذا يا معاذ؟ فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك قال: لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) أخرجه الترمذي بنحوه في سننه كتاب الرضاع باب ما جاء في حق الزوج علىٰ المرأة من حديث أبي هريرة وهو صحيح له شواهد بمعناه منها أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وكان سلمان حديث عهد بالإسلام فسجد للنبي ﷺ فقال لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت.

وقد علمت أن ما هو كفر لا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله به في حين من الأحيان فلم يكن سجود الملائكة لآدم ولا السجود ليوسف عليهم الصلاة والسلام مع خلو الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبية بمن سجدوا له كفراً بل هو من الملائكة عبادة لله الذي أمرهم سبحانه وممن سجد ليوسف تحية جائزة ونسخ الجواز في شريعتنا بحديث معاذ وسلمان رضي الله عنهما.

وإنما حكم العلماء بالكفر علىٰ من سجد لشمس أو قمر أو وثن من أجل أنه أمارة علىٰ الكفر الذي هو إنكار ما علم من الدين بالضرورة كما حكموا بالإيمان – وهو معنىٰ قلبي كما علمت – لمن نطق بالشهادتين من أجل أنه دليل عليه لا لأن الأول بمجرده كفر والثاني بمجرده إيمان.

Scanned by CamScanner

وانظر إلى نفسك فإنه قد يقضي عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها ولا يكون ذلك منك عبادة له لماذا؟

لأنه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شيء من خصائص الربوبية فيه.

وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صليت له وسر ذلك هو أن هذا الخضوع الممثل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عز وجل.

وتدعو رئيسك في عمل من الأعمال أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك أو يغيثك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنه لا يستقل بجلب نفع أو دفع ضر ولكن الله جعله سبباً في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك ما يشاء فضلاً منه سبحانه فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو وأنت على ما وصفنا فإن دعوته وأنت تعتقد فيه أنه مستقل بالنفع أو الضر أو نافذ المشيئة مع الله لا محالة كنت له بذلك الدعاء عابداً وبهذه العبادة أشركته مع الله عز وجل لأنك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية فإن الاستقلال بالجلب أو الدفع ونفوذ المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية والمشركون إنما كفروا بسجودهم لأصنامهم ونحوه لاعتقادهم فيها الاستقلال بالنفع أو الضر ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى ولو على سبيل الشفاعة عنده فإنهم يعتبرونه الرب الأكبر ولمعبوداتهم ربوبية دون ربوبيته وبمقتضى ما لهم من الربوبية وجب لهم نفوذ المشيئة معه لا محالة.

ويدل لما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠] وقوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم

Scanned by CamScanner

مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٣] والاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه.

وحكى الله عن قوم هود قولهم له عليه السلام ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود:٥٤] وقوله لهم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ [هود:٥٥-٥٦] الآية وكقوله تعالى موبخاً لهم يوم القيامة على ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنفع ووجوب نفوذ مشيئتها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء:٩٢- ٩٣] وقولهم وهم في النار ﴿يَخْتَصِمُونَ ﴾ يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ [الشعراء:٩٦].

فانظر إلى هذه التسوية التي اعترفوا بها حيث يصدق الكذوب ويندم المجرم حين لا ينفعه ندم فإن التسوية المذكورة إن كانت في إثبات شيء من صفات الربوبية فهو المطلوب.

ومن هذه الحيثية شركهم وكفرهم لأن صفاته تعالى تجب لها الوحدانية بمعنى عدم وجود نظير لها في سواه – عز وجل – وإن كانت التسوية في استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الاشتراك فيما به الاستحقاق وهو صفات الألوهية أو بعضها وإن كانت في العبادة نفسها فهي لا تكون من العاقل إلا لمن يعتقد استحقاقه لها كرب العالمين تعالى الله عما يشركون.

وكيف ينفي عنهم اعتقاد الربوبية بآلهتهم وقد اتخذوها أنداداً وأحبوها كحب الله كما قاله تعالى فيهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

والأنداد جمع ند وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة: المثل المناوئ.

فهذا ينادي عليهم أنهم اعتقدوا فيها ضرباً من المقاومة للحق تعالى عما يقولون.

Scanned by CamScanner

فأما نفوذ مشيئتهم بالشفاعة الشركية فقد اعتقدوا أن لآلهتهم حق الشفاعة المحتمة القبول بحكم شراكتهم لله في الربوبية وإن لم يرض بها الله وقد دل على اعتقادهم هذا آيات كثيرة نفت شراكة أربابهم له تعالى ونفت أن يكون لهم حق الشفاعة لأنه لا يملك الشفاعة إلا من جعله الله من الشفعاء ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ [الأنعام:٩٤] و ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص:٦٤].

ففي الآيتين دلالة على اعتقادهم أن لآلهتهم شراكة في الملك وأن لهم الشفاعة بمقتضى هذه الشراكة وأنهم قد دعوهم بالفعل يوم القيامة ليشفعوا لهم فخاب ظنهم.

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨] وقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] إلا من شهد بالحق وكلمة الحق هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله فاستثنى الله من الشفعاء المردودة شفاعتهم وأثبتها لمن شهد بالحق.

وقوله تعالى ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣].

فهذه الآيات نفت أن يكون لآلهتهم حق الشفاعة وأوضحت أنه تعالى وحده الذي يملك الشفاعة وأنه لا يشفع إلا من رضي الله شفاعته بجعله من الشفعاء وأنه إذا شفع فقبولها وعدم قبولها موكول إلى رضاه تعالى لا كما اعتقد المشركون أن شفاعة آلهتهم محتمة القبول بحكم شراكتهم في الألوهية.

Scanned by CamScanner

وأما نفوذ مشيئة أربابهم في التصرف في شئون أهل الأرض فقد اعتقدوا أن الله قد خول أربابهم حق التصرف في شؤون أهل الأرض فتصرفوا فيهم استقلالاً بقدرة كن «نفعاً وضراً ونصراً وحماية وتوسعة في الرزق وقضاء للحوائج وإنقاذاً من عذاب الآخرة وشراكة في الملك».

وقد دل على أن هذا هو اعتقادهم آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر:٣٦].

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

هذه الآيات تدل على اعتقادهم أن لآلهتهم التصرف استقلالاً بالنفع والضر.

ومنها قوله تعالى ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك:٢٠] ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء:٤٣].

وواضح من هذه الآيات أنهم كانوا يعتقدون أن لآلهتهم قدرة على نصرهم وحمايتهم وأنه سيتبين لهم يوم القيامة غرورهم في هذا الاعتقاد.

ومنها قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤] ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦].

فالآية الأولى تشير إلى اعتقاد المشركين أن لأربابهم قدرة على التوسعة عليهم في الرزق والآية الثانية تشير إلى اعتقادهم أن لأربابهم قدرة على قضاء حوائجهم بما لهم من نفوذ المشيئة في التصرف استقلالاً

Scanned by CamScanner

أو بالشفاعة الشركية وقد أكد أن ذلك هو اعتقادهم بقوله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والآية الثالثة تشير إلى اعتقادهم أن لأربابهم قوة وأنهم ما زالوا على ذلك الاعتقاد حتى انكشف الأمر لهم يوم القيامة وظهر لهم أن الحول والطول لله وحده.

ومنها قوله تعالى ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٢- ٩٣] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨].

فالآيتان توبيخ لهم يوم القيامة على ما اعتقدوه في آلهتهم من نفوذ المشيئة في التصرف استقلالاً لإنقاذهم ونصرهم فخاب ظنهم وبينت الآيات أن ذلك الاعتقاد كان راسخاً فيهم إلى أن انكشف لهم يوم القيامة عجز آلهتهم عن إنقاذهم وخيبة ظنهم فيما كانوا يعتقدونه فيهم من مشيئة نافذة وقدرة

ومنها قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

تشير الآيات إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أنهم يعبدون أرباباً لهم شراكة في الملك ولهم نفوذ مشيئة كما يخبر بأن ذلك الاعتقاد هو مجرد ظن وأن ظنهم هذا ما هو إلا رجم بالغيب ومنها قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الاحقاف: ٤].

Scanned by CamScanner

فالآية تشير إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أن لأربابهم شراكة مع الله في ربوبيته فلذا طالبهم الله بالدليل على صدق ما يزعمون[1].

وكيف يتخيل أحد أن الكفار كانوا مؤمنين بالله، موحدون به توحيد ربوبية وهم قد وصفهم سبحانه بأنهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرعد: ٢٥].

فما هو هذا الميثاق وهذا العهد؟

أليس هو العهد الأول في عالم الذر ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]؟

فهل أخذ الله عليهم العهد الأول بعبارة ألست بإلهكم؟

ألم يقل الله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠].

فلماذا يكون مصير الكفار بعد ذلك إلى النار وهم قد وحدوا ربهم؟ ألم يقل فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فأين توحيد الربوبية عنده وعند تابعيه؟

ألم يخبرنا رسول الله ﷺ أن الملكين يسألان العبد في قبره فيقولان له: من ربك؟ ولم يقولا له: من إلهك؟

والحق أن كلمتي [رب، إله] في القرآن والسنة قد وردتا بنفس الاستعمال وقد وردتا في نفس المواضع.

---

(١) لاحظ كلمة من دون حيث تأتي دائماً مقترنة بمن اعتقدوه رباً من دون الله وليس شفيعاً فقط.

Scanned by CamScanner

إن الدليل على أن الإله والرب واحد ورود ذلك في القرآن والسنة قال الله تعالى في سورة يوسف ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

فقال بعدها ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف:٤٠].

فالعبادة إنما كانت للأرباب المتفرقين.

وقال الله تعالى في حق عيسى ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠].

ثم قال الله في الآية الأخرى ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

وقال سبحانه في حق الملائكة على اعتقاد مشركي العرب في الآية السابق ذكرها ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [ال عمران:٨٠].

وقال في حق الملائكة في الآية الأخرى ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

والحاصل أن القرآن ملآن من تسمية الرب إلهاً والإله رباً فهما بمعنى واحد فالمشرك لابد أن يشرك بالربوبية ولا يعبد الله ويعبد تلك الأرباب الباطلة والدليل على هذا أن كلمة لا إله إلا الله هو توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ولو كان توحيد الألوهية كما يقولون لاقتضى أن لتوحيد الربوبية كلمة أخرى غير هذه ولا قائل بذلك.

وقد ذكر السنوسي أن هذه الكلمة للتوحيدين وأن الإله رب وهو المعبود كما قدمناه لتلازمهما وقال تعالى ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٨] وقال تعالى عن الكافر يقول يوم القيامة أو في الدنيا ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢].

Scanned by CamScanner

وأما من السنة فمنها حديث الصحيحين في رؤية الله تعالىٰ أن كل عابد يتبع معبوده فيبقىٰ المؤمنون فيتجلىٰ لهم في صورة غير معروفة فيقولون نعوذ بالله منك ثم يتجلىٰ لهم في الصورة التي يعرفون فيقولون أنت ربنا حقا[1] فدل هذا الحديث علىٰ أن الشرك كان في الرب فيتجلىٰ لهم في غير صورته امتحاناً ليرىٰ صدق معرفتهم لربهم.

وفي مجمع الزوائد[2] حديث الدجال وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ ويقول للناس أنا ربكم وقال ﷺ «ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور»[3].

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال (لا ينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[4].

وأخرج الحاكم في المستدرك عن المغيرة بن شعبة:

(لما كانوا بالقادسية قال له المجوسي إنكم معاشر العرب قد عرفت الذي حملكم علىٰ المجيء إلينا أنتم قوم لا تجدون في بلادكم من الطعام ما تشبعون منه فخذوا نعطيكم من الطعام حاجتكم فقال له المغيرة بن شعبة: والله ما ذاك جاء بنا ولكنا كنا قوماً نعبد الحجارة والأوثان فإذا رأينا حجراً أحسن من حجر ألقيناه وأخذنا غيره ولا نعرف رباً حتىٰ

---

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ح ٧٤٣٧ صحيح مسلم كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم ح ٢٩٩ ح ٣٠٢.

(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٣٣٦ قال الحافظ الهيتمي عقب الحديث رواه الطبراني وأحمد ورجاله رجال الصحيح إ.هـ.

(٣) صحيح البخاري كتاب الفتن باب ذكر الدجال ح ٧١٣١.

(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان.

Scanned by CamScanner

بعث الله إلينا رسولاً من أنفسنا فدعانا إلى الإسلام فاتبعناه..) الحديث[1] قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وأدل دليل على أن شرك الكفار في الربوبية أن الميت في قبره يسئل عن الربوبية فيقول الملكان له من ربك والكافر يقول لا أدري والمؤمن يثبته الله بالقول الثابت وهو الإقرار بتوحيد الربوبية كما في الأحاديث الصحيحة.

وأما دعوى أن الرسل لم تخاصم المشركين في توحيد الربوبية فالآيات تدل على أن الرسل كما خاصموا المشركين في صرفهم العبادة لغير الله فكذلك خاصمتهم في إثباتهم بعض خصائص الربوبية لغير الله من نفوذ شفاعتهم عليه تعالى بحكم شراكتهم له في الربوبية ومن نفوذ مشيئة من اتخذوهم أرباباً بجعلهم متصرفين فيهم استقلالاً بقدرة كن «نفعاً وضراً ونصراً وإعطاء ومنعاً وتوسعة في الرزق وشراكة في الملك والربوبية.

وفي دعوة الرسل للمشركين إلى عدم الإشراك في خصائص الربوبية وردت آيات كثيرة فقال إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء:٥٦] يعني لا أربابكم التي تعبدونها ولما قال النمرود ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أليس هذا جدالاً في خصائص الربوبية.

---

(١) المستدرك كتاب معرفة الصحابة ذكر مناقب المغيرة بن شعبة ح ٥٩٠١/ ١٤٩٩ ط العلمية ٣/ ٥١٠-٥١١.

Scanned by CamScanner

وقال إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام:٨٠] أليس هذه دعوة من إبراهيم عليه السلام إلى عدم إشراك آلهتهم في اعتقاد نفعها وضرها.

وقال يوسف عليه السلام وهو يدعو صاحبي السجن إلى التوحيد ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقال فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وقوله لموسى عليه السلام ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣].

وجواب موسى عليه السلام عليه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ [الشعراء:٢٤].

﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦].

وقول هارون عليه السلام لمن عبدوا العجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه:٩٠].

يعني لا هذا العجل.

وقوله سبحانه وتعالى ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ألا تدل هذه الآيات على دعوة الرسل لأقوامهم إلى عدم الإشراك في الربوبية وإلى عدم إثبات شيء من خصائص الربوبية إلى غير الله مما يدل على إشراك المشركين معبوداتهم في خصائصه تعالى وعلى خصومة الرسل لهم في هذا الإشراك.

وتبين بما قدمناه من آيات بطلان دعوى من ادعى أن جميع الأمم مقرون بتوحيد الربوبية وأن الرسل لذلك لم تدع إليه وأنها إنما دعت فقط إلى توحيد الله بعبادته.

Scanned by CamScanner

والذين ادعوا أن جميع مشركي الأمم مقرون بتوحيد الربوبية وأنهم إنما كفروا فقط لإخلالهم بالألوهية أي بعبادة غير الله هي دعوى مناهضة لما سردناه من آيات تدل على إشراك المشركين لمعبوداتهم في بعض خصائصه تعالى.

وفي قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] كذبهم سبحانه في نفس الآية.

وقال سبحانه ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨].

فأين إقرارهم بربوبيته تعالى فالنكير في الآية على عبادة غيره سبحانه وتعالى وليس التقرب إلى الله زلفى مما يدل على إشراكهم في العبادة مع الله غيره وليس اعتقادهم بأنهم شفعاء إلى الله فقط.

إن الآيات التي سردوها تدل على أن المشركين كانوا معترفين ببعض خصائص الربوبية وهو إقرارهم بوجود الصانع وحصر خلق العرش والسموات والأرض وسائر الجواهر فيه تعالى وحصر تدبير الأمور العظام فيه تعالى من تسخير الشمس والقمر وإنزال الغيث وإنبات النبات ونحو ذلك وأنه تعالى إذا أبرم أمراً ولم يترك لغيره خيرة فيه فليس لأحد قدرة على الممانعة.

ولكن الآيات التي سردناها من قبل وأمثالها تدل على إشراك المشركين في بعض آخر من خصائص الربوبية فكانوا يثبتون لمن اتخذوهم أرباباً شفاعة نافذة محتمة القبول ولو لم يرض بها بمقتضى شراكتهم في الربوبية كما كانوا يثبتون لأربابهم نفوذ مشيئتهم في أهل الأرض تخويلاً من الله لهم إلا فيما أبرمه من أمر فيتصرفون فيهم استقلالاً بقدرة كن نفعاً وضراً ونصراً وإعطاءً ومنعاً وتوسعة في الزرق وشراكة في الملك والربوبية فكان اعتقادهم هذا الشرك في الربوبية وقوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

Scanned by CamScanner

وكذلك لما كانت النفوس تخضع بالعبادة لمن تقر له وحده بالخلق والتدبير فعبادة المشركين لغير الله تدل على أن توحيد الخلق والتدبير لم يكن مستقراً في نفوسهم لله وحده وأنه لا توحيد مع عدم اطمئنان النفس إليه واستقرارها عليه وثباتها فيه.

وعلى كل الأحوال فإن من يقر ببعض صفات الربوبية ويشرك في بعض خصائصها لا يقال عنه أنه مقر بتوحيد الربوبية.

كيف! والقرآن يحكي أن المشركين لم يقاتلوا المسلمين ويخرجوهم من ديارهم إلا لذلك قال تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٣٩-٤٠].

ولذا فإن الرسل كما كانت تدعوهم إلى عدم عبادة غير الله وصرفها إلى الله وحده كذلك دعتهم إلى عدم إثبات شيء من خصائص الربوبية لغير الله.

وحيث قد تبين أن اعتقاد المشركين نفوذ المشيئة ونفوذ الشفاعة لمن اتخذوهم أرباباً قد حملهم على عبادتها وضح أنهم كانوا يأتون الأعمال والأقوال التي يتعبدون بها بنية العبادة لهم لاعتقادهم فيهم خصائص من خصائص الربوبية ووضح بذلك أيضاً أن العبادة ليست مجرد إتيان العمل أو القول الذي يصلح للتعبد به.

بل هي إتيان تلك الأعمال والأقوال بنية العبادة لمن يعتقد فيه شيئاً من صفات الربوبية أو خصائصها من تحليل وتحريم أو علم ذاتي غير مكتسب أو نفوذ شفاعة بمقتضى الشراكة في الربوبية أو نفوذ مشيئة بما جعلهم متصرفين فيه في أهل الأرض استقلالاً بقدرة كن «نفعاً وضراً ونصراً وإعطاء ومنعاً وشراكة في الملك والربوبية» فذلك عبادة لله إن صرف له تعالى وشرك إن صرف لغير الله لا فرق في ذلك بين وقوعه لحي أو ميت أو في الحياة الدنيا أو الآخرة.

Scanned by CamScanner

أما إن خلا العمل أو القول من نية العبادة لمن اتخذوه رباً أو لمن اعتقدوا فيه شيئاً من خصائص الربوبية فليس من العبادة في شيء ولا يقال فيه إنه عبادة لله أو لغيره.

ومما يوضح ذلك السجود لآدم لما خلا من نية العبادة لآدم لم يكن شركاً بل كان طاعة لله لاقترانه بنية الامتثال له تعالى.

والسجود ليوسف عليه السلام لما خلا من نية العبادة بل كان تحية له لم يكن شركاً ولم يكن عبادة لا لله ولا ليوسف وإن كان سجود التحية قد حرم في شريعتنا وتعظيم البيت بالطواف حوله وتقبيل الحجر لما خلا من نية العبادة للبيت أو للحجر لم يكن شركاً بل كان طاعة لله لاقترانه بنية الامتثال له تعالى.

فالمعول عليه في العبادة والشرك هو نية العبادة بالأعمال والأقوال إن كانت لله فعبادة وإن كانت لغيره فشرك ولذا لم يكن الطلب من الأنبياء والأولياء شركاً لخلوه من نية العبادة لهم ولعدم اتخاذهم أرباباً أو اعتقاد أن لهم شيئاً من خصائص الربوبية.

ومن هذا تعلم أن تعظيم الكعبة بالطواف حولها وتعظيم الحجر الأسود باستلامه وتقبيله ووضع الجبهة عليه ليس عبادة شرعاً للكعبة ولا للحجر وإنما هو عبادة للآمر بذلك عز وجل الذي اعتقد الطائف ربوبيته سبحانه فليس كل تعظيم لشيء عبادة له شرعاً حتى يكون شركاً بل منه ما يكون واجباً أو مندوباً إذا كان مأموراً به أو مرغباً فيه ومنه ما يكون مباحاً ولا يكون التعظيم لشيء شركاً حتى يقارنه اعتقاد ربوبية ذلك الشيء أو خصيصة من خصائصها له فكل من عظم شيئاً فلا يعتبر في الشرع عابداً له إلا إذا اعتقد فيه ذلك الاعتقاد وقد استقر في عقول بني آدم ما داموا على سلامة الفطرة أن من ثبتت له الربوبية فهو للعبادة مستحق ومن انتفت عنه الربوبية فهو غير مستحق للعبادة فثبوت الربوبية واستحقاق العبادة متلازمان فيما شرع الله عز وجل في شرائعه

Scanned by CamScanner

وفيما وضع في عقول الناس.

وعلى أساس اعتقاد الشركة في الربوبية بنى المشركون استحقاق العبادة لمن اعتقدوهم أرباباً من دون الله سبحانه ومتى انهدم هذا الأساس من نفوسهم تبعه ما بني عليه من استحقاق غيره للعبادة ولا يسلم المشرك بانفراد الله تعالى باستحقاق العبادة حتى يسلم بانفراده عز وجل بالربوبية وما دام في نفسه اعتقاد الربوبية لغيره عز وجل استتبع ذلك اعتقاده في هذا الغير الاستحقاق للعبادة ولذلك كان من الواضح عند أولي الألباب أن توحيد الربوبية وتوحيد الألهية متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في الوجود وفي الاعتقاد.

فمن اعترف بأنه لا رب إلا الله كان معترفاً بأنه لا يستحق العبادة غيره كان مذعناً بأنه لا رب سواه وهذا الثاني هو معنى لا إله إلا الله في قلوب جميع المسلمين ولذلك نرى القرآن في كثير من المواضع يكتفي بأحدهما عن الآخر ويرتب اللوازم المستحيلة على انتفاء أي واحد منهما ليستدل بانتفائها على ثبوته فانظر إلى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١] حيث عبر بالإله ولم يعبر بالرب وكذلك في الميثاق الأول قال سبحانه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل بإلهكم واستفاض عن رسول الله ﷺ أن الملكين يقولان للميت في قبره من ربك؟ ويكتفيان بالسؤال عن توحيد الربوبية ويكون جوابه بقوله الله ربي كافياً ولا يقولان له إنما اعترفت بتوحيد الربوبية وليس توحيد الربوبية كافياً في الإيمان.

Scanned by CamScanner

وبالجملة فقد أومأ القرآن العظيم والسنة المستفيضة إلى أنَّ تلازم توحيد الربوبية والإلهية مما قرره رب العالمين واكتفى سبحانه وتعالى من عبده بأحدهما عن صاحبه لوجود هذا التلازم فما هذا الذي يفتريه هؤلاء المبتدعة من رميهم المسلمين بأنهم قائلون بتوحيد الربوبية دون توحيد العبادة وأنه لا يكفيهم ذلك في إخراجهم من الكفر وإدخالهم في الإسلام حتى تحقن دماؤهم بل يستبيحون دم المسلم المسالم لهم وهو يقول لا إله إلا الله ويقولون إنه ما اعترف بتوحيد الإلهية وإنما اعترف بتوحيد الربوبية وهو غير كاف فلا يقبلون ما دل عليه صريح كلامه ويرفضون الاكتفاء بما اكتفى به الله من عبده يوم الميثاق الأول وارتضته ملائكته حين يسأل العبد في قبره من الاعتراف بتوحيد الربوبية حيث كان مستلزماً لتوحيد الإلهية وكان التصريح بما يفيد أحدهما تصريحاً بما يدل على الآخر فالناطق بلا إله إلا الله معترف بالتوحيد لله في إلهيته وربوبيته جميعاً والقائل ربي الله معترف بهما جميعاً واسمع قول الحق عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠] الآية وهي في موضعين من كتاب الله عز وجل ولم يقل إلهنا وهذا هو رسول الله ﷺ يوصي من سأله عن وصية جامعة كافية (قل ربي الله ثم استقم) ولم يقل قل إلهي الله ألا يدل هذا على كفاية توحيد الربوبية في النجاة والفوز لاستلزامه توحيد الإلهية بشهادة الله عز وجل وشهادة رسوله ﷺ واسمع قوله تعالى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:١٦٣] وإلى قوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله) وإلى قوله ﷺ لأسامة بن زيد حين قتل من قال: لا إله إلا الله إذ أهوى إليه بالسيف ظنه قالها تعوذاً والقرائن قوية على هذا الظن كما يعلم من تفسير القصة يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ أشققت عن قلبه حتى تعلم أقالها تعوذاً أم لا؟ ولم يعتذر أسامة بأنه إنما عنى توحيد الربوبية وهو غير كاف في الدخول في الإسلام وحقن الدم به ولم يعن توحيد العبادة أليس في هذا أوضح بيان على أن القول بتوحيد

Scanned by CamScanner

الإلهية قول بتوحيد الربوبية والقول بتوحيد الربوبية قول بتوحيد الإلهية.

وإنما جرَّ هؤلاء إلى هذه الأباطيل عدم تحقيقهم معنى العبادة شرعاً كما يدل عليه استقراء موارد هذه اللفظة في كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ فظنوا أن التوسل برسول الله ﷺ وسائر الصالحين والاستغاثة بهم مع استقرار القلب على أنهم أسباب لا استقلال لهم بنفع ولا ضر وليس لهم من الربوبية شيء ولكن الله جعلهم مفاتيح لخيره ومنابع لبره وسحباً يمطر منها على عباده أنواع خيره ظنوا أن ذلك وما إليه من الشرك المخرج عن الملة والحقيقة المتيقنة أن مسمى العبادة شرعاً لا يدخل فيه شيء مما عده هؤلاء من توسل واستغاثة وغيرهما بل لا يشتبه بالعبادة أصلاً فإن كل ما يدل على التعظيم لا يكون من العبادة إلا إذا اقترن به اعتقاد الربوبية لذلك المعظم أو صفة من صفاتها الخاصة بها وهذا ما كان عليه الكفار ألم يحك الله عن قوم هود قولهم له ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤] فهذا صريح في اعتقادهم استقلالها بالضر والنفع.

وأخرج أبو نعيم وأبو حاتم وغيرهما عن بعض ولد راشد بن عبدربه السلمي بضم السين وفتح اللام عن أبيه راشد في سبب إسلامه أنه كان سادناً – أي خادماً – لصنم لبني سليم فبينا هو عنده إذ أقبل ثعلبان تشتدان حتى تسنماه فبال عليه أحدهما فقال:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

ثم قال: يا معشر سليم لا والله لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع فكسره ولحق بالنبي ﷺ فقال: ما اسمك؟ فقال: غاوي بن عبد العزى فقل بل أنت راشد بن عبدربه والثعلبان بضم الثاء واللام ذكر الثعالب.

Scanned by CamScanner

فانظر إلى قوله أرب ولم يقل أإله ألم يصح عن رسول الله ﷺ مستفيضاً بل متواتراً معنوياً أن المسيح الدجال أخزاه الله إذا أتى يقول للناس ألست بربكم وفي الصحيح (أن العبد إذا أذنب الذنب فقال رب اغفرلي قال الله علم عبدي أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب غفرت لعبدي)

الحديث وصح أن عدي بن حاتم ﷺ لما سمع قول الله تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] قال رسول الله إنهم ما كانوا يعبدونهم يعني الأحبار والرهبان فهل من منشأ هذا السؤال إلا ما علم الخاص والعام أن اعتقاد الربوبية والعبادة لذلك المعتقد متلازمان نفياً وإثباتاً ويقرر هذا المعنى قول رسول الله ﷺ جواباً له بقوله أليسوا كانوا يحلون لهم ما حرم الله ويحرمون عليهم ما أحل الله فيطيعونهم قال بلى.

قال الشوكاني رحمه الله: وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] ونحو قوله ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن:١٨] ونحو قوله تعالى ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ ﴾ [الرعد: ١٤] ليس بوارد بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه فإن قولهم ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ مصرح بأنهم عبدوهم لذلك والمتوسل بالعالم مثلاً لم يعبده بل علم أنه له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك وكذلك قوله تعالى ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ فإنه نهي عن أن يدعى مع الله غيره كأن يقول يا الله يا فلان والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم

Scanned by CamScanner

الصخرة بصالح أعمالهم وكذا قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه.

فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع إلى أن قال والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبياً أو غير نبي فهو في ضلال مبين.

وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨] فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله ﷺ من أمر الله شيء وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف يملك لغيره؟ وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء والأولياء أو العلماء.

وقد جعل الله لرسوله ﷺ المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى وأرشد إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه وقال له (سل تعط واشفع تشفع).

إلى أن قال: وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله ﷺ لما نزل قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] يا فلان بن فلان لا أملك لك من الله شيئاً يا فلانة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئاً فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه ﷺ لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضره ولا ضر من أراد الله نفعه وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلاً عن غيرهم شيئاً من الله تعالى وهذا معلوم لكل مسلم وليس فيه ألا يتوسل به إلى الله فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر وإنما أراد الطالب أن يقدم بين يدي طلبه ما يكون سبباً للإجابة ممن هو المتفرد بالعطاء

Scanned by CamScanner

والمنع ا.هـ. وبهذا يتضح لك الأمر اتضاحاً كافيا.

الثالث عشر: مخالفة الحديث لقوله ﷺ (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله) وقبل الجواب على هذه الشبهة أورد النص ومن أخرجه وما رتبته:

روى الطبراني عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر الصديق ﷺ قوموا بنا لنستغيث برسول الله من هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله).

قال الحافظ الهيتمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه أحمد بغير هذا السياق وهو في الأدب في باب القيام ا.هـ. مجمع الزوائد.

وقد ضعف بعضهم الحديث لضعف ابن لهيعة وبعضهم مشاه وحسنه.

ولكن ما معناه لم يفهم علماء المسلمين من هذا الحديث أن التوسل والاستغاثة بالنبي شرك أو حرام لورود الاستغاثة بالنبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة منها:

ما أخرجه البخاري في كتاب الزكاة قال رسول الله ﷺ (إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليقضي بين الخلق) ففي هذا النص تصريح بالاستغاثة بغير الله عز وجل في أمر لا يملك تفريجه يومئذ إلا الله تعالى وحده وكلنا يعلم أن كل نبي يقول لست لها وأن سيدنا محمداً ﷺ يقول (أنا لها) ولا يقول لهم لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله.

قال الحافظ في الفتح وفيه: أن الناس يوم القيامة يستصحبون حالهم في الدنيا من التوسل إلى الله في حوائجهم بأنبيائهم ا.هـ.

Scanned by CamScanner

فإذا كان العلماء لم يفهموا من الحديث أن الاستغاثة بالرسول كفر وشرك فما الذي فهموه منه، فهموا منه معاني منها:

١- أن النبي ﷺ كان قد أجرى على المنافقين أحكام المسلمين بأمر الله تعالى ثم قال: ولا شك أن أدب السؤال أن يكون المسئول ممكناً فكما أننا لا نسأل الله تعالى إلا ما هو ممكن في القدرة الإلهية كذلك لا نسأل النبي ﷺ مالا يمكن أن يجيب إليه.

٢- أن يكون ذلك من باب قوله ﷺ (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم) فيكون معناه أنا وإن استغيث بي فالمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى وكثيراً ما تجيء السنة بنحو هذا من بيان حقيقة الأمر ويجيء القرآن بإضافة العمل إلى مكتسبه كقوله ﷺ (لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله) مع قوله تعالى ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

فما جاء فيه إثبات الاستغاثة بغير الله محمول على التسبب والكسب وما جاء فيه النهي محمول على الخلق والإيجاد تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦] وقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢] فالأول محمول على الخلق والإيجاد والثاني على التسبب والكسب.

فتجلى لك أن حديث أنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله غاية ما فيه الإرشاد إلى عدم الغفلة عن الفاعل المختار وليس مراداً أن لا يطلب العبد الاستغاثة إلا من الله لأن طلب الاستغاثة من العباد هو من اتخاذ الأسباب المشروعة وترتيب الأسباب على مسبباتها.

فالمثبت في الاستغاثة والاستعانة بالله تعالى هو الخلق والإيجاد.

والمثبت للعبد هو التسبب في ذلك بالدعاء والشفاعة أو غيرهما لدى من بيده الأمر كله والصحابة ﷺ حين كانوا يستغيثون برسول الله ﷺ أو يطلبون منه الشفاعة أو يشكون حالهم إليه من فقر ومرض وعاهة وبلاء وجدب كانوا يعلمون أنه ﷺ لا يفعل ذلك بقوته وإنما هو عبد لله

Scanned by CamScanner

له مقامه ووجاهته وكرامته وأنه مجرد سبب من أسباب الإجابة لقضاء حوائجهم فلا يعنون من الطلب إلا أن يشفع لهم عند ربه عز وجل.

ومع ذلك كان موقف رسول الله ﷺ مع السائلين تارة الاستجابة لطلبهم وتارة يخيرهم بين الصبر وكشف البلاء كما في حديث الأعمى الذي نحن بصدده والمرأة التي كانت تصرع وقتادة الذي أصيبت عينه وتارة يقول لهم (إنما يستغاث بالله) ويقول (وإذا سألت فاسأل الله و إذا استعنت فاستعن بالله) وتارة يقول (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وتارة يقول: (السيد هو الله). وواضح أن النبي ﷺ باختلاف أجوبته للسائلين علمنا حال المعلم مع المتعلم وأنه لابد من مراعاة حال السائل فتارة ينبه إلى عدم الغفلة عن الفاعل المختار فيسد باب الاتكال على سواه تعالى وتارة يلبي ما طلب السائل ليعلمنا الجواز.

وتأمل قوله ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت فأجابه ﷺ (أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله) فواضح أن في هذا الجواب بيان لمراعاة حال السائل فالنبي ﷺ يعلم الفرق بين المشيئتين ولا يشتبه الأمر عليه وهو الذي نزل عليه كثير من الآيات فيها العطف بالواو الذي استنكره على السائل كقوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤] إذ لا يشتبه معنى أغنى حين ينسب إلى الله وحين ينسب إلى الرسول ﷺ وقوله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤] إذ لا يشتبه ولاية الله بولاية جبريل بولاية المؤمنين وكذا قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة:٥٥] إذ لا تشتبه ولاية الله بولاية رسوله بولاية المؤمنين وقوله تعالى ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة:٥٩] إذ لا يشتبه الفضل حين ينسب إلى الله وحين ينسب إلى رسول الله ﷺ.

Scanned by CamScanner

وكذا لما خطب رسول الله ﷺ أم سلمة كان من جملة ما قاله (وأما العيال فإلى الله ورسوله) وفي رواية (إلى الله وإلى رسوله) وفي رواية (هم على الله وعلى رسوله) أخرجه أحمد والبيهقي في الدلائل.

إذ لا تشتبه عناية الله ورعايته لأطفالها بعناية رسوله ﷺ ورعايته.

وتأمل سؤال رسول الله لأبي بكر يوم تبوك (ما أبقيت لأهلك؟ قال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح أقره النبي ﷺ على قوله.

وتأمل قول الصحابة في كل ما لا يعلمونه الله ورسوله أعلم إذ لا يشتبه علم الله بعلم رسوله والغاية من هذا البيان المختصر الذي لو بسطته لطال جداً توضيح أنه لا يصح الاستدلال بنهي الرسول ﷺ عن استعمال بعض الألفاظ على حرمة استعمالها إذ قد يكون النهي غاية ما فيه مراعاة حال السائل بإرشاده إلى عدم الغفلة عن الفاعل المختار وإلى عدم اتكاله على الأسباب والغفلة عن المسبب كما هو الحال في حديث (لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله) فالكل يعلم استغاثة واستشفاع وتوسل الصحابة برسول الله ﷺ في حياته وفي برزخه ويوم القيامة فكن يقظاً ولا تكن من الغافلين.

الرابع عشر: ادعاء أن التوسل الجائز مخصوص بالنبي ﷺ وأقول أما وقد وصلنا إلى الاتفاق على جواز التوسل برسول الله فقد وصلنا إلى المطلوب والخصوصية لا تثبت إلا بمخصص وأما قولهم أن هذا رأي العز بن عبدالسلام رحمه الله فجوابه أن هذا لا يصح عن العز بن عبدالسلام رحمه الله إذ كلام العز رحمه الله في الإقسام على الله بخلقه لا في التوسل وهاك نص كلام العز بن عبدالسلام من فتاواه الموصلية:

Scanned by CamScanner

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله ...

نسخة أسئلة أجاب عنها الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام بن أبي القاسم ابن مهذب السلمي ﷺ وأعاد علينا وعلى الكافة من بركاته.

مسألة ما يقول وفقه الله تعالى في الداعي يقسم على الله تعالى بعظيم من خلقه في دعائه كالنبي ﷺ والولي والملك هل يكره ذلك أم لا ثم ذكر عدة أسئلة ثم قال أجاب الشيخ ﷺ أما الدعاء فقد جاء في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ علم بعض الناس الدعاء فقال في أوله قل: (اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة) وهذا الحديث إن صح فينبغي أن يكون مقصوراً على رسول الله ﷺ لأنه سيد ولد آدم وأن لا يقسم على الله تعالى بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا في درجته وأن يكون هذا مما خص به نبينا على علو درجته ومرتبته.

هذا كلامه بحروفه وهو غير ما نحن فيه من التوسل بل هو في الإقسام على الله تعالى بنبيه ﷺ وهكذا نقله أصحاب الخصائص كالحافظ السيوطي والقسطلاني وغيرهما مستدلين به على أن الإقسام على الله تعالى بالنبي ﷺ من خصوصياته ﷺ.

وقد نقل الشوكاني رحمه الله في الدر النضيد كلام العز على أنه في التوسل ولم يوافقه على الخصوصية بل ناقشه فيها ورجح عدم الخصوصية.

فإن قلت القسم والتوسل هنا واحد لأنه لا يراد بالقسم اليمين لما علم من النهي عن القسم بغير الله تعالى فلم يبق إلا استعماله في معنى التوسل والاستشفاع والتأكيد به قلت جعل القسم بمعنى التوسل مجاز والمجاز خلاف الأصل ولعلهم ارتكبوه لقرينة قامت عندهم هي النهي عن الحلف بغير الله تعالى مع أن النهي عند الجمهور للكراهة لا للتحريم بدليل قوله ﷺ (أفلح وأبيه إن صدق) ونحوه من الأحاديث على أن

Scanned by CamScanner

النبي ﷺ مستثنى من هذا النهي فقد أجاز الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه ورجحه أكثر أصحابه الحلف به وأوجب الكفارة في حنثه لأن الله تعالى أقسم به في قوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢] فإن هذا قسم من الله بحياة رسوله.

قال السيوطي في الإكليل في استنباط التنزيل في الكلام على هذه الآية ما نصه: «واستدل بها أحمد بن حنبل على أن من أقسم بالنبي ﷺ لزمته الكفارة».

أقول: وعلى تفسير هذه الآية بأنها إقسام بالنبي ﷺ أكثر المفسرين من السلف والخلف بل قال ابن القيم لا يعرف السلف فيه نزاعاً قال: فهو أهل أن يقسم به والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات ا.هـ.

ولأنه ﷺ أحد جزأي الشهادة التي لا يتم إسلام الشخص إلا بها وهذا مدرك العز في جعله الإقسام به من خصائصه ﷺ.

وعلى كل حال فالتوسل بالنبي ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين جائز شرعاً وهذا ما قام عليه البرهان العلمي وعليه عمل أهل الإسلام سلفاً وخلفاً.

والخلاصة: أن حديث الضرير حديث صحيح رواية ودراية وهو صريح في أمره ﷺ لذوي الحاجات بالتوسل بذاته وندائه والعلماء مجمعون على أن أمره ﷺ للواحد من أمته متوجه لكل الأمة في جميع الأزمنة في حضوره ومغيبه في حياته وبعد مماته ما لم يقم دليل على التخصيص كما هنا بل قد قام هنا الدليل على عدم التخصيص تأمل قوله ﷺ: (وإذا كان لك حاجة فافعل مثل ذلك) وهذا ما فهمه الصحابي عثمان بن حنيف راوي الحديث فأرشد غيره وعلمه التوسل برسول الله ﷺ بعد وفاته وهذا ما أطبق عليه فهم السلف وتلقاه الخلف وقررته المذاهب الفقهية المعتبرة ونص عليه العلماء من المحدثين والفقهاء والزهاد والنحاة والمفسرين والأصوليين وعلماء أصول الدين وغيرهم.

Scanned by CamScanner

وبإمعان النظر في الحديث تجد أن الرسول ﷺ لم يقتصر على أن يقول: (قل اللهم) بل أمره أن يقول بعدها (وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة) ولم يكتف بالتوجه به ﷺ إلى الله حتى علمه أن يتوجه إليه ﷺ في الدعاء وينادي مخاطباً حضرته الشريفة قائلاً (يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في قضاء حاجتي) مبالغة في كمال الاستشفاع به ﷺ والاستمداد منه.

وفي ذلك أوضح البيان للأمة من الإقبال على رسول الله ﷺ وتذكره والاستنجاد به حين التوجه إلى الله بالدعاء.

ومن حسنت في ذلك عقيدته وقويت في الله رغبته سارعت إليه الرحمة ورأى آثار الإجابة وناب حضور قلبه مع رسول الله ﷺ عن بدنه بين يديه.

وانظر كيف شرع الله لعباده عقب تحياتهم لله في كل صلاة أن يتوجهوا إلى نبيهم ﷺ فيسلموا عليه سلام الناظر المشاهد له بصيغة خطاب الحاضر بين يديه فيقولوا: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وأن يجمعوا ذكر الله وذكر رسوله في الشهادتين ثم يختموا صلاتهم بالصلاة والبركة عليه ﷺ وعلى آله ليكون ذلك ختام صلاتهم وفاتحة أبواب قبول دعائهم».

وبالجملة فإنه ﷺ علم الضرير هذه الدعوة وفيها التوسل والنداء وأوصى بفعلها عند الحاجات ليتركها ذخيرة لأمته بعده باقية على الدوام فيدع معهم مفتاحاً للرحمة الخاصة لا يخيب من استفتح به فضلاً من الله وإحسانا.

ولم ينقل عن واحد من السلف إنكار التوسل فضلاً عن كونه شركاً أو مكروهاً أو محرماً بل ذكروا أن التوسل به ﷺ من سنن الدعاء كالصلاة عليه ﷺ في أول الدعاء وفي أثنائه وفي آخره ومعاذ الله عز وجل أن يعلم رسول الله ﷺ الأمة ما هو شرك أو ذريعة للشرك بل ما علمهم

Scanned by CamScanner

ﷺ من التوسل به والاستغاثة به والاستشفاع والنداء له في الحضور والغيبة وبعد الوفاة إنما هو موجب لكمال الإيمان.

اللهم ارزقنا الفهم الصحيح والتسليم الكامل لشريعتك والرضى بسنة نبيك ﷺ.

وهذه خاتمة أذكر فيها بعض دلائل التوسل من الكتاب والسنة والاجماع والقياس والمعقول وفعل الصحابة والتابعين ونصوص المذاهب الأربعة وبعض فتاوىٰ العلماء المعتبرين سلفاً وخلفاً علىٰ مشروعية التوسل لتكون شاهداً لصحة ما قررناه ونسأل الله حسن الختام بجاه سيد الأنام ﷺ.

Scanned by CamScanner

تعريف التوسل

التوسل في اللغة:

قال الجوهري في الصحاح: مادة وسل.

الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير والجمع الوسيلة والوسائل والتوسيل والتوسل واحد يقال: وسل فلان إلى ربه وسيلة وتوسل إليه بوسيلة أي تقرب إليه بعمل

وقال الإمام القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥].

الوسيلة: هي القربة عن أبي وائل والحسن ومجاهد وقتادة وعطاء والسدي وابن زيد وعبدالله بن كثير وهي فعيلة من توسلت إليه أي تقربت قال عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

والجمع الوسائل قال:

إذا غفل الواشون عُدنا لوصلِنا وعاد التصافي بيننا والوسائل

ويقال منه سلت أسأل أي طلبت وهما يتساولان أي يطلب كل واحد من صاحبه فالأصل الطلب والوسيلة القربة التي ينبغي أن يطلب بها ا.هـ.

وكون الوسيلة هي القربة لا خلاف بين المفسرين في ذلك كما صرح به ابن كثير في تفسيره وقال: الوسيلة هي ما يتوصل بها إلى تحصيل مطلوب.

فتعريف بعضهم للتوسل بأنه اتخاذ واسطة بين العبد وربه خطأ وجهل فالتوسل ليس من هذا الباب قطعاً.

Scanned by CamScanner

فالمتوسل لم يدع إلاَّ الله وحده فالله عز وجل وحده هو المعطي والمانع والضار والنافع ولكن المتوسل اتخذ قربة رجاء قبول دعاءه والقربة في الدعاء مشروعة بالاتفاق وعلى هذا فالتعريف الصحيح للتوسل هو أن يقال:

التوسل اتخاذ الداعي وسيلة أي قربة يتوسل بها إلى الله عز وجل رجاء قبول دعائه ولا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستغاثة أو التوجه لأن التوجه من الجاه وهو علو المنزلة وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى منه جاهاً والاستغاثة طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصّل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه فالتوجه والاستغاثة به ﷺ وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا يقصد بهما أحد منهم سواه وممن نص على أنها بمعنى التوسل الحافظ السبكي في شفاء السقام والعلامة ابن حجر الهيتمي في الجوهر المنظم وغيرهما في غيرهما.

والدليل على أنها بمعنى واحد ما جاء في البخاري أن النبي ﷺ قال: (إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ) الحديث هذا لفظ ابن عمر وفي لفظ أنس في الصحيح أيضاً بلفظ الاستشفاع فدل هذا على أنهما بمعنى واحد.

قال الحافظ اللغوي الإمام السبكي: التوسل والتوجه والاستغاثة والاستعانة بمعنى واحد ا.هـ. شفاء السقام.

وقد سئل بعض العلماء عن معنى الاستغاثة والاستعانة وحكم طلبها من غير الله فأجاب إجابة شافية وواضحة أنقلها لكم للفائدة.

Scanned by CamScanner

السؤال: ما معنى الاستغاثة والاستعانة؟

الجواب:

١- الاستغاثة: طلب العبد الإغاثة ممن يقدر عليها حقيقة وهو الله تعالى أو ممن أقدرهم الله عليها بحوله وقوته وهم أنبياؤه وأولياؤه وعباده

٢- الاستعانة: طلب العبد العون ممن هو قادر عليه بذاته وهو الله تعالى أو ممن خلق الله فيه القدرة على الإعانة وهم عباده.

السؤال الثاني: هل يجوز الطلب من غير الله؟ وما هي الأدلة على الجواز إذا قيل به؟

الجواب مجملاً: يجوز طلب الإغاثة والإعانة طلباً لسانياً من جميع الأسباب العادية التي جرت سنة الله تعالى بخلق الإمداد بها وإجرائه عليها مع اعتقاد عدم تأثيرها في شيء من المقادير وعدم قيامها بنفسها وعدم استقلالها بالوجود وهذا الجواز بإجماع من يعتد بهم من علماء السلف والخلف ولم يخالف في ذلك إلا المبتدعة ولا يعتد بخلافهم.

الجواب مفصلاً: السبب العادي عند علماء العقيدة الإسلامية هو ربط أمر بأمر وجوداً وعدماً مع صحة التخلف من غير أن يؤثر أحدهما في الآخر البتة

وعالم الخلق وعالم الأمر بجميع أفرادهما داخلان في الأسباب العادية التي ليس لها تأثير ذاتي في إيجاد أو إمداد وليس في شيء منها قوى مودعة وليس لشيء منها حول أو قوة أو قول أو فعل إلا بالله تعالى وليس لشيء منها قيام بنفسه بمعنى أنه لا يصح استغناء شيء منها عن الله تعالى وإمداده طرفة عين.

فالعالم كله من عرشه إلى فرشه قائم بقيومية الله تعالى وإمداده وحوله وقوته وهذه الأسباب العادية تنقسم إلى قسمين:

١- قسم جرت سنة الله تعالى أن يخلق على يديه قدراً ما لمن هو في

Scanned by CamScanner

عالم الشهادة وذلك كالملائكة والبشر وهذا لكمال عالم خلقه لوجود إمداد من الله تعالى له بصفات المعاني السبعة من حيث تعلقاتها

٢- قسم لم تجر سنة الله تعالى أن يخلق على يديه أو عليه قدراً ما لمن هو في عالم الشهادة وذلك لنقص عالمها عن إمداد الله تعالى بصفات المعاني جميعها وإن وجد إمداد ببعضها وذلك كالجماد والحيوان.

وبناء على وجود هذا الفارق المشاهد والموافق للواقع بين هذين القسمين لا يصح لنا أن نقيس الجماد والحيوان على الملائكة والبشر ولا يصح لنا أن نسوي بينهما فلا نعتبر من توجه بسؤاله إلى حيوان أو حجر ولا يصح كذلك أن نعتبر الأسباب العادية التي يجري الله عليها المقادير والإمداد في عالم الشهادة الظاهر كالملائكة والبشر مثل الأسباب العادية التي لا يجري الله عليها شيئاً من ذلك كالأصنام التي كان يعبدها الجاهليون.

فيجوز شرعاً وعقلاً أن يطلب الإنسان بلسانه غوثاً أو عوناً من سبب عادي جرت سنة الله تعالى بخلق غوث أو عون على يديه ويكون قلبه أثناء طلبه اللساني مشاهداً ومعتقداً أن ذلك السبب العادي قيامه بقيومية الله وحوله وقوته بالله وأن ما يجري على يديه إنما هو خلق الله وإمداده وليس للسبب تأثير ذاتي في شيء من ذلك القدر البتة.

فاللسان يسأل الإنسان والقلب يشاهد الرب، اللسان يسأل السبب، والقلب يشهد فعل الرب عطاءً أو منعاً.

وقد ذكر علماء التوحيد والعقيدة: أن السبب واجب ونفي التأثير عنه واجب وأن من نفى الأسباب فقد عطل الحكمة ومن أثبت لها التأثير فقد أشرك بالله.

Scanned by CamScanner

أدلة التوسل في القرآن الكريم:

١- قال الله عز وجل ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

قال الحافظ السيوطي رحمه الله في الدر المنثور ج ١ ص١٤٢:

أخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم في المستدرك وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطاب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ (لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال أسألك بحق محمد إلا غفرت لي؟ فأوحى الله عز وجل إليه ومن محمد؟ فقال تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدرا ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى الله عز وجل إليه يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك ولولا هو ما خلقتك) ا.هـ.

أقول: قال الحاكم في مستدركه بعد إخراج هذا الحديث عن أبي سعيد عمرو بن محمد بن منصور العدل حدثنا أبو الحسن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي حدثنا أبو الحارث عبدالله بن مسلم الفهري حدثنا إسماعيل بن مسلمة أنبأنا عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي فقال الله عز وجل يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال الله عز وجل صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليَّ ادعني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك) هذا حديث صحيح الإسناد وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب وحكم الذهبي عليه بالوضع في تلخيص المستدرك.

Scanned by CamScanner

وحكم عليه البيهقي بعد إخراجه من هذا الوجه في دلائل النبوة بالضعف حيث قال: تفرد به عبدالرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه عنه وهو ضعيف.

أقول: عبد الرحمن بن زيد ضعيف ضعفه الكل كما قال البيهقي رحمه الله: إلا ابن عدي فإنه رغم روايته لمنكرات له في الكامل قال له أحاديث حسان..... وهو ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم وهو ممن يكتب حديثه ا.هـ وشدد بعضهم فيه.

وقال الهيتمي على رواية الطبراني فيه من لم أعرفهم.

وقال الطبراني بعد روايته عن محمد بن داود بن أسلم الصدفي المصري: حدثنا أحمد بن سعيد المدني الفهري حدثنا عبدالله بن إسماعيل المدني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ..... إلخ لا يروي عن عمر إلا بهذا الإسناد تفرد به أحمد بن سعيد أقول ليس كذلك فأحمد بن سعيد توبع برواية عبدالله بن مسلم عند الحاكم.

ولهذا الحديث شاهد موقوف ضعيف أخرجه الآجري في الشريعة أخبرنا أبو أحمد هارون بن يوسف بن زياد التاجر قال حدثنا أبو مروان العثماني قال حدثني ابن عثمان بن خالد عن عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: من الكلمات التي تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام أنه قال: (اللهم إني أسألك بحق محمد عليك قال الله عز وجل يا آدم وما يدريك بمحمد قال يا رب رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على عرشك لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه أكرم خلق الله عليك).

أقول: هو معضل موقوف ضعيف أبو عثمان بن خالد متروك وفي أبي مروان العثماني كلام وله شاهد آخر مرسل موقوف في ألفاظه نكارة يتأكد كونها من الرواة عن الباقر بجلالة الباقر عنها إذ هو إمام ثقة من أعيان التابعين وأئمتهم عند ابن المنذر في تفسيره كما في الدر المنثور عن

Scanned by CamScanner

محمد الباقر بن علي بن الحسين عليهم السلام وفيه (اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي) ومع هذا كله فللحديث شاهد قوي جداً.

فقد أخرج الحافظ أبو الحسن بن بشران قال حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح حدثنا محمد بن صالح حدثنا محمد بن سنان العوفي حدثنا إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبدالله بن شقيق عن ميسرة قال: قلت يا رسول الله متى كنت نبياً قال: (لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله أنه سيد ولدك فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه) أخرجه ابن الجوزي في الوفا بفضائل المصطفى من طريق ابن بشران نقله عنه ابن تيمية في الفتاوى مستشهداً به.

أقول: هذا إسناد حسن فأبو جعفر محمد بن عمرو هو ابن البختري الرزاز مترجم في تاريخ بغداد وهو ثقة ثبت وأحمد بن إسحاق بن صالح مترجم أيضاً في تاريخ بغداد هو أبو بكر الوزان صدوق ومحمد بن صالح هو أبو بكر الأنماطي المعروف بكيلجة ثقة حافظ من رجال التهذيب ويحتمل أن يكون هو محمد بن صالح الواسطي كعب الزراع مترجم في تاريخ بغداد وهو ثقة ولا يضر الاختلاف في تعيين الثقة كما هو مقرر في محله ومحمد بن سنان العوفي فمن فوقه ثقات من رجال التهذيب.

فالحديث حسن والحسن حجة ويصححه من يدخل الحسن في الصحيح كابن حبان والحاكم.

Scanned by CamScanner

فإن قلت: هذا مخالف للمشهور في كتب التفسير من كون الكلمات هي ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] كما رواه الطبري عن قتادة وأبي العالية ومجاهد.

أقول: نعم روىٰ الطبري هذا وروىٰ أيضاً عن ابن عباس أن الكلمات هي «أي رب ألم تخلقني بيدك قال بلىٰ قال: أي رب ألم تنفخ فيَّ من روحك قال: بلىٰ قال: أي رب ألم تسكني جنتك قال: بلىٰ قال: أي رب ألم تسبق رحمتك غضبك قال: بلىٰ قال أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلىٰ الجنة قال بلىٰ قال فهو قوله ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾.

وروىٰ عن عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية أنه قال قوله ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قال آدم (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم).

وروىٰ عن مجاهد أيضاً أن الكلمات هي (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ربي إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ربي إني ظلمت نفسي فتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم) ثم قال ابن جرير: وهذه الأقوال التي حكيناها عمن حكيناها عنه وإن كانت مختلفة الألفاظ فإن معانيها متفقة في أن الله جل ثناؤه لقىٰ آدم كلمات تلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن وتاب بقيله إياهن وعمله بهن إلىٰ الله من خطيئته معترفاً بذنبه متنصلاً إلىٰ ربه من خطيئته نادماً علىٰ ما سلف منه من خلاف أمره فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه وندمه علىٰ سالف الذنب منه والذي يدل عليه كتاب الله أن الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه هن الكلمات التي أخبر الله عز وجل أنه قالها متنصلاً بقيلها إلىٰ ربه معترفاً بذنبه وهو قوله ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣] وليس ما قاله من خالف

Scanned by CamScanner

قولنا هذا من الأقوال التي حكيناها بمدفوع قوله ولكنه قول لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها فيجوز لنا إضافته إلى آدم وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه ا.هـ. كلام بن جرير رحمه الله.

وحاصله أن ابن جرير إمام المفسرين يرجح أن الأصح في الكلمات هو ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ومع ذلك لا يرد قول غيره ممن خالفه ولكن يبقى قول من خالفه لا شاهد عليه من حجة مرفوعة توجب التسليم وقد علمت أن ما قلناه قد قامت عليه الحجة فوجب التسليم ولا تعارض إذ يمكن الجمع أن يكون الكل مما تلقاه آدم عليه السلام إذ أنها لا تخرج عن كونها أذكاراً تشتمل على مدح الله والثناء عليه عز وجل والتوسل إليه بأكرم خلقه عليه واعترافه بالخطيئة والله أعلم.

٢- قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله يعني بقوله جل ثناؤه ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وكان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب التي أنزلها الله قبل الفرقان كفروا به يستفتحون بمحمد ﷺ ومعنى الاستفتاح الاستنصار ويستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه وذلك قوله من قبل أي من قبل أن يبعث.

قال السيوطي في الدر المنثور ج١ ص٢١٦: أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس قال: كانت يهود بني قريضة والنضير من قبل أن يبعث محمد ﷺ يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا ويقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم فينصرون ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ يريد محمداً ولم يشكوا فيه

Scanned by CamScanner

﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

وقد ذكر نحو هذا جماعة من المفسرين منهم النيسابوري في الوسيط والزمخشري في الكشاف والخازن في تفسيره والبغوي في تفسيره والنسفي في تفسيره والألوسي في روح المعاني وغيرهم في غيرها ووجه الدلالة من الآية ظاهر فإن الله سبحانه أقر استفتاح اليهود بالرسول ولم ينكره عليهم وإنما ذمهم على الكفر والجحود بعدما شاهدوا من بركة الاستفتاح بالنبي ﷺ ما لا ينكره إلا من كان أعمى القلب والبصيرة نسأل الله تعالى السلامة والعافية آمين بجاه النبي الأمين ﷺ.

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد: إن اليهود كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره فيفتح لهم وينصرون عليهم فلما ظهر النبي ﷺ كفروا وجحدوا نبوته فاستفتاحهم به مع جحود نبوته مما لا يجتمعان فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالاً وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقاً كان استفتاحهم به باطلاً وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البته ا.هـ.

وفي بعض حواشي البيضاوي نقلا عن السعد التفتازاني رحمه الله قال والأظهر أنهم كانوا يطلبون الفتح من الله عليهم متوسلين بذكره ﷺ ويجعلون اسمه شفيعاً ا.هـ.

وانظر تفسير الرازي وتفسير مجاهد وتفسير ابن كثير ولو تتبعت كتب التفسير ونقلت نصوصها لجاء ذلك في رسالة مستقلة وقد رأيت للعلامة الورع الزاهد تقي الدين الحصني الشافعي الشامي المتوفى سنة ٨٢٩هـ كلاماً لطيفاً في مولده نصه وإذا سمع المسلم ما اشتملت عليه أخلاقه الكريمة من حلمه وعفوه واحتماله عرف قدره عند الله فيتوسل به في أموره ومهماته فإنه الشفيع المشفع والحبيب الذي إذا طلب منه شيء استشفاعاً به أجيب ولا يمنع وقد أرشدك الله في كتابه العزيز وألهم أصفيائه إلى ذلك بل توسل به أشد الناس عداوة له وللمؤمنين كما هو

Scanned by CamScanner

مذكور في كتابه المبين فأجابهم إظهاراً لتعظيم حبيبه سيد الأولين والأخرين قال ابن عباس: كانت أهل خيبر تقاتل غطفان كلما التقوا هزمت غطفان اليهود فعاذت اليهود بهذا الدعاء اللهم إنا نسألك بحق هذا النبي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم فكانوا إذا التقوا دعا اليهود بهذا الدعاء فتهزم اليهود غطفان فلما بعث الله محمداً ﷺ كفروا به فأنزل الله قوله ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فانظر أرشدك الله تعالى إلى هذا الشرف والمكانة له عند ربه كيف كان يستجيب لمن هو كافر به ويعلم تعالى أنه يكون من أشد الناس عداوة له وإيذاء وكان ذلك قبل بروزه إلى الوجود فكيف وقد بعث رحمة للعالمين «فمن منع التوسل به فقد أعلم الناس أنه أسوأ حالاً من اليهود ونادى على نفسه بذلك» ا.هـ كلام الحضي.

٣- قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤] قال الزمخشري رحمه الله في الكشاف: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت جاؤوك تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد قضائك حتى انتصبت شفيعاً لهم إلى الله ومستغفراً لوجدوا الله تواباً لعلموه تواباً أي لتاب عليهم ولم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان ا.هـ.

فهذه الآية وإن كانت نزلت بسبب المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت فهي عامة تشمل كل عاص ومقصر لأن ظلم النفس المذكور فيها يشمل كل معصية ثم إنها أعني الآية تدل على الاستشفاع بالنبي ﷺ في حالتي حياته ووفاته لأن كل من فعل المجيء والاستغفار وقع في سياق الشرط والفعل في سياق الشرط يدل على العموم.

Scanned by CamScanner

والأصل في العام أن يبقى على عمومه حتى يقوم الدليل على التخصيص والتخصيص بما قبل الموت تخصيص بدون حجة عن هوى نعوذ بالله من الأهواء وترك المطلق على إطلاقه مما اتفق عليه أهل الحق والتقييد لا يكون إلا بحجة ولا حجة هنا تقيد الآية بل فقهاء المذاهب حتى الحنابلة على شمول الآية لما بعد الموت والأنبياء أحياء في قبورهم بالكتاب والسنة والاجماع وقد بسطنا القول في ذلك في الجواب المرسخ وقد ذكر أبو الوفاء بن عقيل من قدماء الحنابلة في كتابه التذكرة صيغة التوسل عند الحنابلة في زيارة قبره الشريف ﷺ وفيها تلاوة هذه الآية وقد نقل المفسرون عند هذه الآية ومنهم الحافظ ابن كثير خبر العتبي قال ابن كثير رحمه الله وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء اعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله تعالى يقول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئت مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبيُ الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له ا.هـ.

وخبر العتبي هذا تداوله أئمة التفسير في تفاسيرهم ونقلوه وأقروه وأصبح مشهوراً بينهم ولم ينص أحد منهم على أنه من الشركيات أو ما أشبه ذلك بل ذكروه إثباتاً لجواز التوسل والاستشفاع به ﷺ وتأكيداً لعموم الآية وما كان كذلك لا يمكن أن يرد بجرة قلم.

Scanned by CamScanner

وخبر العتبي هذا رواه ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في مثير الغرام وابن النجار بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال أتيت قبر النبي ﷺ فزرته فجلست بحذائه فجاء عتبي وذكر القصة بل روى أبو سعيد السمعاني عن علي ﷺ قال قدم علينا عتبي بعد وفاة رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى نفسه على قبره أو حثا من ترابه على رأسه وقال يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله سبحانه وتعالى وما وعينا عنك وكان فيما أنزل عليك ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر أنه قد غفر لك ا.هـ.

وروى ذلك أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عبدالله الكرخي عن علي بن محمد بن علي قال حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائي قال حدثني أبي عن أبيه عن سلمة بن كهيل عن ابن صادق عن علي بن أبي طالب ﷺ فذكره.

قال العلامة الحافظ المحدث محمد عابد السندي المتوفى ١٢٥٧هـ في جواب له بعد نقل قصة العتبي وذكر رواية السمعاني عن علي ﷺ ما نصه:

فهذه القصة كانت بمشهد الصحابة كلهم ولم ينكر على العتبي أحد منهم في مقاله ولا في فعل من أفعاله فهذا كالإجماع منهم على جواز ذلك ا.هـ.

فالحاصل أن الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ دليل على جواز التوسل والاستشفاع بالنبي ﷺ في سائر الأحوال لأنه في قبره الشريف حي يرزق كما هو معلوم من الدين بالضرورة وتعرض عليه ﷺ أعمال أمته فيدعو لهم ويستغفر ويلحق في جواز التوسل كل من ثبت له هذه المزية كالشهداء والعلماء الربانيين والأولياء المتقين ونحوهم.

Scanned by CamScanner

والعلماء فهموا من الآية المذكورة العموم لحالتي الموت والحياة واستحبوا لمن أتى القبر الشريف أن يتلوها ويستغفر الله تعالى وحكاية الأعرابي في ذلك نقلها أئمة التفسير وأقروها وحكاها المصنفون في المناسك من جميع المذاهب واستحسنوها ورأوها من آداب الزائر وممن نص عليها من الحنابلة ابن قدامة في المغني.

٤- قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:٣٥]

التوسل لغة: التقرب والوسيلة هي: القربة نقل ذلك القرطبي عن أبي وائل والحسن ومجاهد وقتادة وعطاء والسدي وابن زيد وعبدالله بن كثير ا.هـ.

فالمراد من الوسيلة القربة كما عليه عامة المفسرين والقربة إما أن يكون بمعنى اسم الفاعل أي مقرب والمقرب الحقيقي هو الله تعالى وهو ليس بمراد هاهنا فيكون الإسناد إلى السبب أي سبب القرب إلى الله أو يكون القربة بمعنى اسم المفعول أي مقرب إلى الله فالقربة بكلا المعنيين شاملة للذات والعمل لأن المقرب إلى الله عز وجل كما يكون أعمالاً كذلك يكون ذواتاً فقد قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣] في أول الآية بيان أن حلول ذات النبي ﷺ مانعة من نزول العذاب على الكفار تأمل قوله ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وفي آخر الآية بيان لنفع الأعمال تأمل قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ مع أن بعض السلف قال: معناه ما كان الله ليعذبهم وفي أصلابهم من يستغفر يعني من قدر الله أن يخرج من صلب الكافر من يستغفر وهو الذي مكتوب أنه يؤمن بالله بعد خروجه من صلب الكافر فجعل الله تعالى بقدرته وإرادته وجود النطف المؤمنة في أصلاب الكفار أسباباً لدفع العذاب عنهم فعلم أن سبب القرب أو المقرب إلى الله على أي المعنيين تحمل الوسيلة فهي شاملة للذوات والأعمال ولهذا المعنى قال

Scanned by CamScanner

رسول الله ﷺ (أنزل الله تعالى عليَّ أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾) رواه الترمذي في أبواب التفسير من جامعه وروى الحاكم في المستدرك عن حذيفة ﷺ في قوله تعالى ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال لقد علم المحفوظون من أصحاب النبي ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة) والمراد بابن أم عبد عبدالله بن مسعود ﷺ وقال عمر ﷺ بعد التوسل بالعباس ﷺ في الاستسقاء هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل نقله ابن عبدالبر في الاستيعاب.

ففهمنا عموم الوسيلة للتوسل بالذوات والأعمال ليس رأياً مجرداً عن حجة وبرهان ولا هو بمأخوذ من العموم اللغوي فحسب بل هو فهم الصحابة ﷺ والسلف رحمهم الله تعالى فلا يبقى مجال لتقول كل مفتر أفاك فمن منع التوسل بالذات فقد افترى لأن التوسل بالذات صرحت به الآيات وجاءت به الأحاديث الصحيحة ومن الأدلة على ذلك غير ما ذكرناه ما يلي:

١- قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

قال المفسرون من السلف: لولا أن يدفع الله بالمؤمن عن الكافر وبالطائع عن العاصي لفسدت الأرض فوجود ذوات هؤلاء ما نعة من وجود الفساد.

٢- قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ولا يخفى على مسلم أن السعادة للذوات لا للأعمال ولهذا ورد في الحديث السعيد في بطن أمه والشقي في بطن أمه فليس للأعمال دخل في السعادة إلا بحسب الدلالة ظاهراً لا حقيقة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة

Scanned by CamScanner

فيدخلها) وليس الدخول للعمل بل للدلالة كما صرح به ﷺ في الحديث الصحيح بقوله (لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا حتىٰ أنت يا رسول الله قال حتىٰ أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) فدخول الجنة قطعاً ليس بالأعمال بل بالسعادة السابقة الأزلية وهي بحسب الذوات فاصطفاء ذات نبينا ﷺ وتفضيلها علىٰ جميع الرسل إنما هو باعتبار ذاته الشريفة كما لا يخفىٰ علىٰ مؤمن وكذلك الرسل والأنبياء والأولياء فالجاه وغيره إنما هو تبع للذات وليس الذات تابعة للجاه وقد كان الصحابة الكرام يعظمون ذات نبينا ﷺ أشد التعظيم كما في حديث عروة بن مسعود الثقفي عند البخاري وغيره (لما جاء إلىٰ نبي الله ﷺ في صلح الحديبية فرجع إلىٰ قومه فقال أي قومي والله لقد وفدت علىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي فما رأيت أحداً يعظم أحداً ما يعظم أصحاب محمد محمدا إنه لا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم ولا توضأ وضوءاً إلاَّ اقتتلوا علىٰ وضوئه يتبركون به ولا يحدون النظر إليه...) الحديث.

فانظر كيف تعظيم الصحابة رضوان الله عليهم لذاته ﷺ بل للصادر من ذاته مما هو مستقذر بالنسبة لغير ذاته الشريفة أفيقال أن النخامة وماء الوضوء الذي يجري علىٰ أعضائه الشريفة كانت تدعو أو تشفع أو لها جاه بل هي ذات تابعة لأشرف الذوات وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في بعض حديثها (فأخرجت لي جبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفرجاها مكفوفتان بالديباج فقالت فهذه كانت عند عائشة رضي الله عنها فلما قبضت قبضتها فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها.....) الحديث فانظر كيف يستشفون بها لكونها كانت ملبوسة لتلك الذات الحاوية لجميع الكمالات وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي عن عبدالله بن موهب قال (أرسلني أهلي إلىٰ أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدح من ماء فجاءت بجلجل من فضة فيه شعر من شعر النبي ﷺ فكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث بإناء إليها فخضخضت فشرب منه فاطلعت في الجلجل فرأيت شعرات حمراء) وفي

Scanned by CamScanner

الجمع بين الصحيحين للحميدي عن سهل بن سعد في البردة التي استوهبها من النبي ﷺ فلامه الصحابة على طلبها منه فقال (إنما سألته إياها لتكون كفني) وفي رواية أبي غسان أنه قال (رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفن بها وكان مراد هذا الصحابي الجليل أن يتسبب بهذه البردة إلى الله في قبره ليندفع عنه العذاب ببركتها) وهي ذات لا يتصور فيها شيء سوى كونها من آثار تلك الذات وفي الصحيحين عن أم سليم أن النبي ﷺ كان ينام عندها فكانت تأخذ من عرقه الشريف فاستيقظ فقال (ما تصنعين يا أم سليم فقالت يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا فقال أصبت) قال ابن ملك في شرح المصابيح وفيه دليل على جواز التقرب إلى الله تعالى بآثار المشايخ والعلماء والصلحاء ا.هـ.

وفي صحيح مسلم (كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يأتونه بإناء إلا غمس يده الشريفة فيه) قال ابن الجوزي رحمه الله إنما كانوا يطلبون بركته ﷺ لهذا وينبغي للعالم إذا طلب العوام منه التبرك في مثل هذا أن لا يخيب ظنونهم ا.هـ كلام الحافظ ابن الجوزي في كتابه بيان مشكل الحديث.

وفي كلام النووي على مسلم والقاضي عياض على مسلم وابن ملك على المصابيح إن هذه الأمور ليست خاصة بالنبي ﷺ.

وفي البخاري عن ابن سيرين قال (قلت لعبيدة عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس فقال: لأن تكون شعرة عندي منه أحب إليَّ من الدنيا وما فيها) وفي البخاري (أن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أوصى أن تدفن شعرات النبي ﷺ معه) وما ذاك إلا ليتوجه إلى الله تعالى بها في قبره وفي الشفا للقاضي عياض في فصل كراماته وبركاته ﷺ قال وكانت شعرة في قلنسوة خالد بن الوليد رضي الله عنه فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر ا.هـ.

Scanned by CamScanner

فيا قوم أيرزق خالد النصر بذات شعرة ونمنع من التوسل إلى الله عز وجل بأصل ذاته الشريفة ﷺ ولله در البوصيري حيث قال:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم

وقد ثبت في السنة النبوية شرب مالك بن سنان دمه وقال له ﷺ (لن تصيبك النار) وشرب عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما دم حجامته ﷺ فقال له ﷺ (ويل لك من الناس وويل لهم منك) ولم ينكر ﷺ فعله وقد ورد نحو هذا عنه في شأن بركة الحبشية رضي الله عنها التي شربت بوله ﷺ فقال لها (لن تشتكي وجع البطن أبدا) وحديثها صحيح ألزم الدار قطني البخاري ومسلم إخراجه في الصحيح فيا أمة الدين أيكون الدم والبول الخارج من ذاته سبباً لدفع النار عن شاربها وسبباً في دفع الوجع ويمتنع عن ذاته الشريفة أن يتسبب ويتوسل بها إلى الله تعالى وهي أشرف ذات خلقها الله عز وجل.

وقد جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال (بتربة أرضنا وريقة بعضنا يشفي بإذن ربنا مريضنا) فيسن لكل أحد إذا رقى لمريض أن يأخذ من تراب أرضه ويمزجها بريقه ويسقيه للمريض فإنه يشفى بإذن الله تعالى ولا شك أن التراب والريق من الذوات ولا يعقل لها جاه أو دعاء أو شفاعة وثبت في السنة النبوية قوله ﷺ (ماء زمزم لما شرب له) فمن شرب من ماء زمزم لأي نية أرادها من خير دنيا أو آخرة حصل له مقصوده كما هو مجرب ولا شك أن ماء زمزم ذات لا يعقل له جاه ولا دعاء ولا شفاعة وأطبق الفقهاء على أن الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود من ألصق صدره به وتوسل به إلى الله لا يخيبه الله كما هو مجرب ولا يخفى أن الملتزم ذات جعل الله لها هذه الخاصية وكذا تحت الميزاب وعند مقام إبراهيم وتقبيل الحجر الأسود والتمسح به والتوسل به وهو ذات محض وهو أرجى الوسائل إلى الله لقبول المثقلين بالذنوب فكيف

Scanned by CamScanner

يكون لهذه الذوات خاصية يحصل بها المقصود للراجي ونحن إذا دعونا الله بجاه ذات نبينا ﷺ لا يحصل لنا ولا يرضاه الله لنا أفيقال أن ذات تراب الأرض وريقة البعض وماء زمزم وأحجار الملتزم ومقام إبراهيم والحجر الأسود جعل فيها الأسباب لجلب المنافع دون ذات نبينا ﷺ وهي ما خلقت إلا لأجله ومن نوره ﷺ فما هذه الخرافات من قائلها إلا جهالات ليت صاحبها استحىٰ من الله ومن رسوله ومن الناس من قولها والتفوه بها.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مر علىٰ قبرين فقال (إنهما يعذبان فدعا بعسيب فشقه وجعل علىٰ كل قبر نصفاً وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا) ا.هـ.

فقد شرع ﷺ لأمته أن يجعلوا جريدة رطبة في الذي يخاف عليه العذاب لأن للجريد خاصية أن الله يخفف عن صاحب القبر الذي هو فيه العذاب ولا شك أن الجريد ذات وليس هذا خاصاً بالنبي ﷺ حتىٰ يقال إن ارتفاع العذاب بسببه بل اتفق العلماء علىٰ العمل به في كل عصر أيجوز يا أهل الإيمان التسبب بجريد النخل وهو ذات ولا يجوز التوسل والتسبب بذات سيد الوجود فأي عقل لمن يمنع ذلك ويدخل نفسه الغبية في مضايق هذه المسالك.

وهذا الإمام الحافظ المحدث الإمام الترمذي يجوز التوسل بذوات الصالحين حيث ترجم لباب من أبواب الجهاد في جامعه الذي هو أحد الأمهات الست بقوله باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين وأخرج تحت الباب حديث أبي الدرداء ﷺ قال رسول الله ﷺ (ابغوني في الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم).

وهذا الإمام الحافظ الحجة البخاري رحمه الله يترجم في صحيحه باب من استعان بالضعفاء والصالحين وروىٰ عن النبي ﷺ قوله (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم).

Scanned by CamScanner

وعند الطبراني كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين قال الهيتمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجال الرواية الأولىٰ رجال الصحيح.

وعند أبي يعلىٰ بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال (يبعث بعث فيقال لهم هل فيكم أحد صحب محمدا؟ فيقال: نعم فيلتمس فيوجد الرجل فيستفتح فيفتح عليهم ثم يبعث بعث فيقال: هل فيكم من رأىٰ أصحاب محمد؟ فيلتمس فلا يوجد حتىٰ لو كان من وراء البحر لأتيتموه ثم يبقىٰ قوم يقرؤون القرآن لا يدرون ما هو) قال الهيتمي في مجمع الزوائد رواه أبو يعلىٰ من طريقين ورجالهما رجال الصحيح.

وعند أبي يعلىٰ أيضاً بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال (ليأتين علىٰ الناس زمان يخرج الجيش من جيوشهم فيقال هل فيكم أحد صحب محمدا فتستنصرون به فتنصروا ثم يقال هل فيكم من صحب محمدا فيقال لا فمن صحب أصحابه فيقال لا فيقال من رأىٰ من صحب أصحابه؟ فلو سمعوا به من وراء البحر لأتوه).

وفي هذا الحديث دلالة واضحة علىٰ استحباب التوسل بذوات الصالحين.

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال يأتي علىٰ الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون هل فيكم من صاحب رسول الله ﷺ فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يأتي علىٰ الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يكون البعث الرابع فيقال انظروا هل ترون فيكم أحد رأىٰ من رأىٰ أحدا رأىٰ أصحاب رسول الله ﷺ فيوجد فيفتح لهم.

فانظر بربك إلىٰ عظم منزلة هؤلاء الصحابة عند الله عز وجل حتىٰ أن الله عز وجل يكرم بالفتح والنصر علىٰ الأعداء جيشاً لا أقول منهم ﷺ ولا من طبقة رأتهم ولا من طبقة رأت من رأتهم بل يكفي لنصر الجيش

Scanned by CamScanner

أن يكون فيه من رأى من رأى من رأى صحابياً.

فتبين من كل هذا أن الوسيلة في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥] أن الوسيلة هي كل ما يتقرب به إلى الله وأنها عامة وأن تخصيصها بالأعمال تحكم لا دليل عليه بل ظاهر الآية تخصيصها بالذوات فإنه تعالى قال في هذه الآية ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ والتقوى عبارة عن فعل المأمور به وترك المنهي عنه فإذا فسرنا الوسيلة بالأعمال كان الأمر بابتغاء الوسيلة إليه تأكيداً للأمر بالتقوى بخلاف ما إذا أريد بها الذوات فإن الأمر حينئذ يكون تأسيساً وهو خير من التأكيد.

وإذا ثبت عموم الوسيلة للذوات والأعمال فلا فرق بين أن يكون المتوسل به حياً أو ميتاً فالتفرقة بين الحي والميت في ذلك لا تصدر إلا عمن ينطوي على اعتقاد فناء الأرواح المؤدي إلى إنكار البعث وعلى ادعاء انتفاء الإدراكات الجزئية من النفس بعد مفارقتها البدن المستلزم لإنكار الأدلة الشرعية في ذلك.

وسأورد لك من السنة النبوية ما يدل على عدم الفرق بين الأحياء والأموات في مبحث أدلة التوسل في السنة.

وأريدك أن تعلم الآن أن الأنبياء أحياء في قبورهم وأن هذا معلوم من الدين بالضرورة وقد بسطناه في الجواب المرسخ فانظره لزاماً.

فلم يبق مجال في كون الوسيلة في الآية الشريفة عامة وأن تخصيصها محض هوى والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٥- قال الله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨] من هذه الآية يعرف مقام آثار الرسل فهذه البقية وهي آثار موسى وهارون تحملها الملائكة في التابوت مع

Scanned by CamScanner

السكينة تشريفاً وإعزازاً لها وجعل ذلك آية للمؤمنين.

وهذا كتاب الله عز وجل ينادي بذلك وليس حكايات يمكن إنكارها وقد فسرها السلف كابن عباس وغيره بأنها عصا موسىٰ أو عصا هارون أو ثيابهما كما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وسعيد بن منصور وعبد بن حميد كما في تفسير ابن كثير.

وفي تاريخ ابن كثير أنهم كانوا يحملون التابوت في حروبهم للاستنصار وفي التفاسير ومنها تفسير البغوي وهو من كبار علماء الحديث أنهم كانوا يستفتحون به.

٦- روىٰ بن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس في تفسير قوله تعالىٰ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قول موسىٰ عليه السلام: (إن كنت رسولك فاغضب لي).

وهو صريح في توسل موسىٰ بذاته المرسلة.

٧- قال تعالىٰ حاكياً عن يوسف ووالده يعقوب عليهما وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ * فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٣-٩٦] فهذا نبي استشفع بقميص نبي وحصلت له بركته عليهم الصلاة والسلام.

ومن أدلة جواز الاستعانة والاستغاثة في القرآن:

١- في سورة القصص قوله تعالىٰ ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] يقص الله تعالىٰ علينا قصة رجل قبطي من شيعة نبي الله سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام استغاث بالنبي فأغاثه والأنبياء عليهم السلام كلهم جاؤوا بالتوحيد وعدم الشرك فلو

Scanned by CamScanner

كانت استغاثة الرجل به نوعاً من الشرك لنهاه عن ذلك ولما قص الله علينا ذلك مقرراً له.

٢- في سورة الكهف قوله تعالى حاكياً عن ذي القرنين وهو مسلم ومؤمن ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:٩٥] فقد طلب من أتباعه أن يعينوه ولو كان طلب العون منهم نوعاً من أنواع الشرك لما أقره الله على ذلك ولأنكره عليه ولما ذكره في كتابه مقررا له.

فإن قيل: هذا شرع من قبلنا.

فالجواب: هذا ليس حكماً من أحكام الشريعة التي يجوز أن تقبل النسخ وإنما هو من أمور العقائد المتعلقة بالتوحيد وأمور العقائد لا فرق فيها بين جميع الشرائع السماوية لأن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام عقيدتهم واحدة لا شرك فيها بوجه من الوجوه.

وقد ورد في شرعنا ما يماثله وذلك في نصوص كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فلولا وجود عون عند كل واحد منا من الله تعالى إمداداً لما وجد مضمون الأمر والنهي الوارد في هذا النص في الواقع امتثالاً ويكون هذا النص حينئذ معطلاً وهو باطل.

وقد قال النبي ﷺ (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) رواه مسلم فالله يعينك ويعين بك أخاك ونسب ذلك إلى العبد وأضافه مجازاً لاعتقادنا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فإذا قلت لعبد أعني أو أغثني فالمراد من ذلك: أعني بعون الله تعالى الذي أمدك به وأغثني بحول الله تعالى وقوته التي أيدك بها ومن اعتقد أن مخلوقاً يعين أو ينفع أو يضر بذاته من ذاته فهو مشرك.

فإن قيل: قولك أعني أو أغثني سؤال لمخلوق فكيف جاز ذلك والنبي ﷺ قال لابن عباس رضي الله عنهما (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) رواه الترمذي؟

Scanned by CamScanner

فالجواب: قول النبي ﷺ هذا لابن عباس رضي الله عنهما لا يعني إلغاء الأسباب ولا ينفي سؤالها والطلب منها طلباً لسانياً وإنما معناه والله ورسوله أعلم أنه إذا عرضت لك حاجة فاسألها من الله تعالى قبل توجهك اللساني الظاهر إلى الأسباب التي ترجو أن يكون قضاء تلك الحاجة على أيديها وبعد هذا التوجه القلبي لله أن ييسر قضاء حاجتك تلك على أيدي الصالحين من عباده تتوجه بالطلب اللساني منهم.

ويصح أن يقال أيضاً: حال سؤالك اللساني للأسباب تحقق أنك تسأل الله تعالى لأنه هو الذي يجري ما يشاء من المقادير على أيدي خلقه بحوله وقوته وليسوا شركاء معه في شيء منها فاشهد بعد ذلك التحقق القلبي المقرون بالسؤال اللساني للأسباب ما سيخلقه الله تعالى ويجريه من منع أو عطاء.

والذي أوجب هذا التأويل قول النبي ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ (سلني قال: أسألك مرافقتك في الجنة قال: أو غير ذلك قال: هو ذاك قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم.

فهل النبي ﷺ يأمر ربيعة بالشرك عندما يقول له: (سلني)؟ حاشاه من ذلك وعندما قال له ربيعة: (اسألك مرافقتك في الجنة) لم يقل له لا أقدر على ذلك أو لم يؤذن لي فيه أو ليس هذا من اختصاصي ولا في وسعي بل عليك أن تسأل الله ذلك وإنما قبل منه سؤاله وأقره عليه وقال له: (أعني على نفسك بكثرة السجود).

ولولا أن ربيعة كان يشهد بقلبه وحدانية الله تعالى وأن نبيه محمداً ﷺ ليس شريكاً مع الله تعالى في شيء وأن حوله وقوته بالله وأن الله هو الذي يجري ما يشاء من المقادير على يديه لما قال له: (سلني).

وفي حديث ربيعة هذا رد على القائلين بأنه يطلب منه ما يقدر عليه ولا يطلب منه ما لا يقدر عليه وذلك لأن المرافقة في الجنة لا يقدر عليها أحد من البشر فكيف وافقه النبي ﷺ على طلبه هذا؟

Scanned by CamScanner

فتبين أننا لا نتعامل مع النبي ﷺ عند الطلب منه فيما هو معتاد للبشر إنما نتعامل معه فيما ليس معتاداً لهم باعتبار خصوصيته عليه الصلاة والسلام فيما انفرد به عن الخلق جميعاً إلا الأنبياء بوصف النبوة والرسالة الذي شاركه فيه إخوانه الأنبياء والمرسلون عليهم السلام وسرىٰ إلىٰ وراثهم شيء منه يسمىٰ عند علماء التوحيد الكرامة وهو الأمر الخارق للعادة لا الجاري علىٰ وفق العادة مما يقدر عليه البشر.

وقد رأيت في كلام شيخنا السيد المحدث محمد علوي المالكي رحمه الله ما يوضح هذا الأمر وأنا أنقله بلفظه:

«وقد طلب نبي الله سليمان عليه السلام من أهل مجلسه من الجن والإنس أن يأتوا بعرش بلقيس العظيم من اليمن إلىٰ موضعه بالشام والإتيان بالعرش لا يقدر عليه إلا الله وليس داخلاً تحت مقدور الإنس ولا الجن عادة وقد طلبه نبي الله سليمان من أهل مجلسه وقال له ذلك الصديق ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

فهل طلب نبي الله سليمان كفر؟ وهل جواب ذلك الولي شرك؟ حاشاهما ذلك بل هذا علىٰ طريقة خرق العادة فيكون مما أقدرهم الله عليه وملكهم إياه وإسناد الفعل إليهما علىٰ طريقة المجاز ا.هـ.

فقول النبي ﷺ لابن عباس (إذا سألت فاسأل الله) وقوله لربيعة رضي الله عنه (سلني) لا مخالفة في أحدهما للآخر من حيث العقيدة وأنهما سواء وذلك لأن حول رسول الله وقوته بالله تعالىٰ وكذلك عموم الخلائق.

قال الله عز وجل لنبيه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وهو العبد الذي فتح الله علىٰ يديه ويفتح من الخير لأمته كلها ما لا يفتحه علىٰ يد عبد آخر وقد قال عليه الصلاة والسلام (إنما أنا قاسم والله يعطي) رواه الشيخان.

وقال أيضاً: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله علىٰ يديه) رواه الشيخان وهذا قاله في حق سيدنا علي

Scanned by CamScanner

ﷺ وكرم الله وجهه فكيف هو في فتح الله على يديه وقد كمل فيه مقام المحبة لله والمحبوبية عنده؟ ألا يفتح الله على يديه أعظم مما يفتحه الله على أيدي جميع محبيه ومحبوبيه؟

بلى يفتح الله على يديه ﷺ.

أدلة التوسل في السنة:

حصر هذا الباب صعب واستقصاؤه فيه طول وقد سبق الكثير من الأحاديث الدالة على التوسل وأضيف إليها هنا ما تيسر لي جمعه في هذه العجالة:

١- قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: حدثنا عمرو بن علي قال حدثنا أبو قتيبة قال حدثنا عبدالرحمن بن عبدالله بن دينار عن أبيه قال سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقال عمر بن حمزة حدثنا سالم عن أبيه ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو قول أبي طالب ا.هـ.

قلت: طريق عمر بن حمزة العمري وصلها بسند صحيح أحمد وابن ماجة والبيهقي في دلائل النبوة وفي السنن الكبرى كلهم من طريق أبي عقيل عبدالله بن عقيل وهو ثقة.

وهذا نص صريح في توسل ابن عمر رضي الله عنهما بذاته ﷺ.

و أخرج البيهقي من غير وجه في دلائل النبوة عن سعيد بن خيثم الهلالي عن مسلم الملائي عن أنس بن مالك قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لقد أتيناك وما لنا بعير يئط ولا صبي يصيح

Scanned by CamScanner

وأنشده:

أتيناك والعذراء يدمى لبانها وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الصبي استكانة من الجوع ضعفاً ما يمر لا يخلي

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامي والهلعز الغسل
وليس إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلاَّ إلى الرسل

فقام رسول الله ﷺ حتى صعد المنبر ثم رفع يديه إلى السماء فقال (اللهم اسقنا غيثاً مريئاً مريعاً غدقاً طبقاً عاجلاً غير رائث نافعاً غير ضار تملأ به الضرع وتنبت به الزرع وتحي به الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) فوالله ما رد يديه إلى نحره حتى ألقت السماء بإبراقها وجاء أهل البطانة يعجون يا رسول الغرق الغرق فرفع يديه إلى السماء ثم قال (اللهم حوالينا ولا علينا) فانجاب السحاب عن المدينة حتى احدق بها كالإكليل فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال لله در أبي طالب لو حياً قرت عيناه من ينشدنا قوله؟ فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال يا رسول الله كأنك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
كذبتم وبيت الله نُبْزِيّ محمدا ولما نقاتل دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

Scanned by CamScanner

ومسلم الملائي ضعيف قال الحافظ في الفتح: وإسناد حديث أنس وإن كان فيه ضعف لكنه يصلح للمتابعة تأمل كيف أقر النبي ﷺ الشاعر على قوله ليس إلا إليك فرارنا البيت ولم يعده شركاً لأن القصر فيه إضافي والمعنى أن الفرار المرجو نفعه المؤكد خيره إليك لا إلى من دونك وإلى الرسل لا إلى من دونهم فإن المرسلين أعلى من يتوسل بهم إلى الله عز وجل وأعظم من يقضي الله الحوائج على أيديهم للملتجئين إليهم والمستغيثين بهم.

٢- قال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا أحمد بن حماد بن زغبة حدثنا روح بن صلاح حدثنا سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أنس بن مالك قال لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال (رحمك الله يا أمي كنت أمي بعد أمي تجوعين وتشبعيني وتعرين وتكسيني وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة ثم أمر أن تغسل ثلاثاً فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده ثم خلع رسول ﷺ قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين وكبر عليها أربعاً وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبوبكر الصديق رضي الله عنهما).

Scanned by CamScanner

ورواه من هذا الوجه الطبراني في الأوسط ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في العلل المتناهيه وهو حديث حسن قال الهيتمي في المجمع رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح ا.هـ.

قلت: شيخ الطبراني أحمد بن حماد بن زغبة ثقة من شيوخ النسائي ولم يخرج له في الصحيح أما روح بن صلاح فقد اختلف فيه فوثقه قوم وضعفه آخرون فمثله يحتاج لإعمال النظر في بيان حاله فقال عنه الحاكم في سؤالات السجزي ثقة مأمون وذكره ابن حبان في الثقات وروىٰ عنه يعقوب بن سفيان الفسوي في المعرفة والتاريخ فهو ثقة عنده قال الفسوي كما في التهذيب لابن حجر كتبت عن ألف شيخ وكسر كلهم ثقات ا.هـ.

أما من جرحه فلم يذكر سبب جرحه ولم يفسره ففي المؤتلف والمختلف للدار قطني قال: روح ابن صلاح بن سيابه يروي عن ابن لهيعة وعن الثوري وغيرهما كان ضعيفاً في الحديث سكن مصر ا.هـ.

ومثله لابن ماكولا في الإكمال وابن عدي في الكامل وهذا جرح مبهم غير مفسر فيرد في مقابل التعديل المذكور قبله كما هو مقرر.

مثاله قول الحافظ في مقدمة الفتح في ترجمة محمد بن بشار بن بندار ضعفه عمرو بن علي الفلاس ولم يذكر سبب ذلك فما عرجوا علىٰ تجريحه.

وبقية رجال الإسناد ثقات أئمة فالحديث حسن وفي هذا الحديث الثابت توسله ﷺ إلىٰ ربه بذاته الشريفة التي هي أرفع الذوات قدراً عند الله وبإخوانه من النبيين وجلهم موتىٰ عليهم جميعاً الصلاة والسلام فانظر أيها المؤمن التقي بأيهما تقتدي أبرسول الله ﷺ في توسله بالأنبياء أحياء كانوا أو أمواتا أم بهؤلاء المانعين من التوسل بمن مات من الأنبياء والصالحين وعدهم ذلك غير مشروع أو شركاً !

Scanned by CamScanner

٣- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك) أخرجه ابن ماجه ورواه أحمد في المسند وابن خزيمة في التوحيد والطبراني في الدعاء وابن السني في عمل اليوم والليلة والبيهقي في الدعوات الكبير وابن أبي شيبة في المصنف.

وهو حديث حسن حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ الدمياطي في المتجر الرابح والحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ الحافظ المنذري كما في الترغيب والترهيب والحافظ العراقي في تخريج الإحياء والحافظ ابن حجر العسقلاني في أمالي الأذكار.

وقال الحافظ البوصيري في مصباح الزجاجة: لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده ا.هـ. وحسنه عبد الحافظ عبد المغني المقدسي وقبله ابن أبي حاتم وابن خزيمة.

٤- قال ﷺ (حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ووفاتي خير لكم تعرض عليَّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه وما رأيت من شر استغفرت لكم) أخرجه البزار وقال الحافظ العراقي في طرح التثريب إسناده جيد وقال الهيتمي في المجمع رواه البزار ورجاله رجال الصحيح وصححه السيوطي في الخصائص وفي تخريج أحاديث الشفاء وتمام الكلام على من صححه مبسوط في الجواب المرسخ فراجعه.

٥- قال ﷺ (إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله) رواه الطبراني في الكبير.

تأمل قوله (يفزع الناس إليهم في حوائجهم) تجده لم يجعلهم بسبب هذا الفزع إلى الناس مشركين بل ولا عاصين.

Scanned by CamScanner

٦- أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة أنه شكا إليه ﷺ النسيان لما يسمعه من حديثه الشريف وهو يريد أن يزول عنه ذلك فقال ﷺ يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً فأنساه فأحب أن لا أنسى فقال ﷺ (ابسط ردائك فبسطه فقذف بيده الشريفة من الهواء في الرداء ثم قال ضمه فضمه) فقال أبو هريرة: فما نسيت شيئاً بعد.

فها هو أبو هريرة ﷺ يطلب منه عليه الصلاة والسلام عدم نسيان شيء وهو مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فلم ينكر عليه ولم يرمه بشرك لما يعلم كل أحد من أن الموحد إذا طلب ذلك من ذوي الجاه عند الله فلا يريد منهم أن يخلقوا شيئاً ولا هو معتقد فيهم شيئاً من ذلك وإنما يريد أن يتسببوا له بما أقدرهم الله عليه من دعاء وما شاء الله من تصرف وها أنت ذا ترى أنه عليه الصلاة والسلام أجابه إلى طلبه ولم يرو أنه دعا له في هذه القصة وإنما غرف من الهواء فألقاه في الرداء وأمره فضمه إلى صدره فجعل الله ذلك سبباً بفضله لقضاء حاجة أبي هريرة وكذلك لم يقل له عليه الصلاة والسلام مالك تسألني والله أقرب إليك مني لما هو ظاهر عند كل أحد أن المعول عليه في قضاء الحوائج حقيقة هو الله عز وجل والرسول ﷺ سبب لقربه من الله عز وجل وكمال قبوله عند الله ورفعة مكانته عند الله عز وجل.

٧- صح عند البخاري وغيره أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أصرع وإني أتكشف فقال ﷺ (إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك فقالت: أصبر ولكن ادع الله ألا أتكشف فدعا الله لها بذلك فكانت بعد ذلك إذا صرعت لا تتكشف) وأخرج الحافظ بن عبدالبر في الاستيعاب بسنده عن طاوس قال كان النبي ﷺ (يؤتى بالمجانين فيضرب صدر أحدهم فيبرأ).

٨- وصح عند البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أنهم لما قدموا المدينة كانت أوبأ أرض الله فكثرت فيهم الحمى فشكوا ذلك إلى

Scanned by CamScanner

رسول الله ﷺ فدعا وقال (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وانقل حماها إلى مهيعة – وهي الجحفة – فرأى رسول الله ﷺ في منامه أمرأة سوداء ثائرة الرأس أخرجت من المدينة إلى الموضع الذي سماه في دعائه قال فأولت أنه وباء المدينة نقل إليها) وترجم الإمام البخاري على هذه الرؤيا الشريفة في كتاب التعبير باب إذا رأى أنه أخرج الشيء من كوره وأسكنه موضعاً آخر والكورة بضم الكاف وبالراء المهملة الناحية والبلد فانظر إلى البخاري كيف نسب إخراج الحمى من المدينة إلى رسول الله ﷺ لما أنه تسبب فيه بدعائه فالإسناد من المجاز العقلي وهو ما يقصده الناس بأمثال هذا واستفاض في صحاح السنة مجيء الناس إليه ﷺ بمرضاهم ليزيل أمراضهم عنهم بإذن الله فلا يرد أحداً خائباً بل يعطف عليه بما آتاه الله من خير فمرة يدعو ويمسح على العلة فإذا الشفاء ومرة أخرى يأمر بصب ماء وضوئه على العليل فيعود بإذن الله صحيحاً ومرة يؤتى إليه ﷺ بالأرمد يقاد فلا يرده بل يتفل في عينيه فإذا العافية قد انبثت في العينين مع ريقه الشريف ﷺ في الحال وذلك كثير جداً تراه في كتب الحديث من الجوامع والسنن وغيرها وكتب السير المروية بصحاح الأسانيد.

٩- وصح عند البخاري وغيره أيضاً أنهم ازدحموا على الحلاق عند حلق رأسه الشريف ﷺ واقتسموا شعره.

وفي صحيح مسلم أنه لما حلق أعطى أبا طلحة شعره فقال اقسمه بين الناس.

وأخرج ابن ماجه والترمذي وحسنه عن امرأة من الأنصار يقال لها كبشة أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها قربة معلقة فشرب منها وهو قائم فقطعت فم القربة تبتغي بركة موضع في رسول الله ﷺ فإن قيل: كان هذا جائزاً في حال حياته لا بعد انتقاله إلى الحياة البرزخية فجوابه:

Scanned by CamScanner

١ - من اعتقد أن لأحد من الخلق تأثيراً في الحياة ينقطع عنه بانتقاله إلى البرزخ فهو مشرك فليس لأحد من الخلق تأثير ذاتي ولا قيام له بنفسه وحولهم وقوتهم بالله تعالى والله تعالى هو يجري على أيدي خلقه ما يشاء من المقادير في حال حياتهم الدنيوية وكذلك الأمر في حال الحياة البرزخية والأخروية.

فلو كان للنبي ﷺ أو لغيره تأثير في حياته كما توهم بعض القاصرين لصح نفيه عنه بعد انتقاله ولجاز حينئذ سؤاله ونداؤه في حياته فقط أما ما دام لا تأثير له في حياته الدنيوية كذلك لا تأثير له بعد انتقاله إلى الحياة البرزخية والله تعالى الذي أجرى بحوله وقوته على يديه الخير في حال حياته الدنيوية هو الذي يجري على يديه بعد انتقاله ومن الذي يقيد الله تعالى ويوجب عليه أن يفتح على أيدي خلقه في حال حياتهم الدنيوية ولا يفتح على أيديهم في حال انتقالهم إلى حياة أخرى برزخية أو أخروية؟

فالتوسل حكم مقرر جوازه من أحكام الشريعة المطهرة ومعمول به في عصره لا يتغير بانتقاله عليه الصلاة والسلام كما لا تتغير بقية أحكام التشريع فلا يحق لإنسان أن يقول:

هل الوضوء جائز بعد موت النبي ﷺ؟ وهل الصلاة جائزة بعد موت النبي ﷺ؟ وهكذا ومثل ذلك قولهم: هل التوسل أو الاستغاثة جائز بعد موته ﷺ.

لأنها جميعاً أحكام شرعية مقررة بأدلتها وهي معمول بها في حياته وبعد انتقاله ومن سأل عن ذلك أو فرق بين الأحكام فأجاز بعضها ومنع بعضها دل ذلك على جهله بالشريعة وأصولها فلا يلتفت إليه بعد إقامة الحجة عليه.

٢ - من توهم أن النبي ﷺ قد انتقص شيء من كمالاته التي كان عليها في الدنيا بالانتقال إلى البرزخ فهو مخطئ وربما جره ذلك إلى الكفر إذا قال بانفكاك وصف النبوة والرسالة عنه في برزخه وذلك أن جميع

Scanned by CamScanner

الكمالات التي أثبتها الله تعالى له في كتابه أو أخبر بها هو عن نفسه ثابتة له باعتباره نبياً ورسولاً ووصف النبوة والرسالة لا ينفك عنه في برزخ من البرازخ فجميع الكمالات الثابتة له لا يصح انفكاكها عنه وإن الرجل من أهل عصرنا عندما يسلم يقول: (أشهد أن محمداً رسول الله) ولا يقول: (أشهد أن محمداً كان رسول الله) ويقول في كل تشهد: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) ولا يقول: (السلام عليك يا من كنت نبياً في حياتك ولست نبياً بعد انتقالك) فهو محمد نبي الله ورسوله ﷺ كان ولا زال رسولاً وكل ما ثبت له من الفضائل والكمالات في حياته باعتباره نبياً ورسولاً ثابت له بعد انتقاله لأنه ما زال نبياً رسولاً وقد قال ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤] وثبت عنه قوله ﷺ (القبر أول منزل من منازل الآخرة) رواه الترمذي فبهذا يتبين أن ما هو عليه في قبره خير له مما هو عليه في الدنيا ا.هـ.

وقد تقدمت دلائل واضحة على أنه ﷺ في حياته الأخروية كهو في حياته الدنيا له العناية الكاملة بأمته والشفقة الوافرة عليهم يستجيب لداعيهم وينتدب لمن ندبه من المستغيثين به قد تكشفت له بإذن الله أمته وأحوالها ولا يزال فيهم شافعاً مشفعاً وبأمرهم معنياً لاسيما مع من كمل تعلقه به منهم وقد ثبت من رفيع قدره وعلو منزلته عند ربه أنه سبحانه لا يخيب من توسل به إليه وأن لا يقبل دعاء الداعين إلا إذا بدأوا دعاءهم وختموه بالصلاة عليه وقد صح عن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قالا لرجل دعا ولم يصل على رسول الله ﷺ: إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يرفع ولا تفتح له الأبواب حتى يصلي الداعي على النبي ﷺ ولهذا حكم المرفوع لأن مثله لا يقال من قبل الرأي بل ثبت هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ وروى أحمد والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم وصححه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتي قال: ما شئت قلت الربع قال: ما شئت وإن

Scanned by CamScanner

زدت فهو خير لك إلى أن قال: إني أجعل لك صلاتي كلها قال عليه الصلاة والسلام: إذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك) وفي رواية لأحمد بسند جيد كما قال الحافظ المنذري (أن رجلاً قال: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك قال: إذاً يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك) وروى معناه الطبراني أيضاً بسند حسن قال الحافظ المنذري: قوله أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتي) معناه أكثر الدعاء فكم أجعل لك من دعائي صلاة عليك ا.هـ.

وصح عن ابن عباس أن الله أوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم ولولاه ما خلقت الجنة والنار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن) أخرجه الحاكم في المستدرك وأخرجه غيره.

ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي وقال تعالى له ﷺ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] روى الإمام ابن جرير بسنده وغيره في تفسيرها مرفوعاً إليه عليه الصلاة والسلام قال (أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟ قال الله أعلم قال: إذا ذكرت ذكرت معي) فسبحان من جعل في كتابه اسم حبيبه الأعظم مضافاً إلى اسمه سبحانه سكون العرش بعد اضطرابه وفي ندائه ﷺ رد البصر للمنادي بعد ذهابه وما أحسن ما قال شاعره المؤيد بروح القدس حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغر عليه للنبوة خاتم من الله نور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

Scanned by CamScanner

وما أجمل ما قال الأديب الصرصري المتوفى سنة ٦٥٦هـ:

ألم تر أنَّا لا يَصِحُّ أَذَانُنَا ولا فرضنا إن لم نكرره فيهما

وكيف يتوقف مسلم تعلم من السنة وقرأ في الحديث النبوي في جواز التشفع بالأنبياء لا سيما في وقت الشدة وقد تواتر الحديث عنه عليه الصلاة والسلام بأن أهل الموقف إذا طال عليهم الوقوف واشتد عليهم الكرب استغاثوا في تفريج كربتهم بالأنبياء فيستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى فيحيلهم على سيد المرسلين حتى إذا استغاثوا به ﷺ سارع إلى إغاثتهم وأشفع طلبتهم وركب براقه إلى الجنة فاستفتح فقال الخازن من؟ فيقول ﷺ أنا محمد فيقول الخازن: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك فيفتح له فيتجلى له ربه فيخر له ساجداً ولا يزال كذلك حتى ينادى أن ارفع رأسك واشفع تشفع) فهذا إجماع من الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين وتقرير من رب العالمين بأن الاستغاثة عند الشدائد بأكابر المقربين من أعظم مفاتيح الفرج ومن موجبات رضى رب العالمين ولا يمكن أن يكون كفراً أو شركاً لأن الكفر والشرك لا يختلف باختلاف الأزمان ولا الشرائع ولا الأحوال فلو كان طلب الشفاعة أو الاستغاثة أو التوسل به ﷺ شركاً أو كفراً كما توهمه هؤلاء لما جاز في حال من الأحوال لا في الحياة الدنيا ولا في الحياة الأخرى لا يوم القيامة ولا قبلها فإن الشرك ممقوت عند الله في كل حال فافهم.

ومن أدلة جواز التوسل أيضاً: ما جاء عن قيلة بنت مخرمة وهي صحابية قولها: اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك) وإسناد هذه الرواية حسن كما نص على ذلك الهيتمي والسيوطي قال ابن الأثير: معناه أسألك بعز عرشك وقد ثبت له العز بنسبته إليه عز وجل وبوصفه له تعالى بالعظمة والكرامة والتمجيد وروى الإمام أحمد والطبراني عن معاذ وأبي

Scanned by CamScanner

موسىٰ أنهما قالا: للنبي ﷺ نسألك بحق الإسلام وبحق الصحبة لما أدخلتنا في شفاعتك فدعا لهما فاجتمع الناس فقالوا: مثل مقالتنا فقال (إني جاعل شفاعتي لمن مات لا يشرك بالله شيئا) قال الهيتمي في المجمع رجالهما رجال الصحيح غير عاصم أبي النجود وفيه ضعف وقد وثق.

ومما جاء صريحاً في التوسل استنصار بني شيبان باسمه ﷺ:

روىٰ الطبراني من حديث سعيد بن العاص وهو صحابي أدرك من حياة النبي ﷺ تسع سنين فهو من مراسيل الصحابة المقبولة عند المحدثين فإن الحادثة هذه لم يحضرها سعيد فيحتمل علىٰ أنه أخذها عن بعض من حضرها من الصحابة.

قال سعيد: أن بني شيبان جعلوا اسم النبي ﷺ محمداً شعاراً لهم في حرب ذي قار وقال النبي ﷺ (بي نصروا) رواه الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح غير خلاد بن عيسىٰ وهو ثقة قاله الحافظ الهيتمي في المجمع.

وفي البداية لابن كثير أن شعار الصحابة في اليمامة وامحمداه.

وجاء في حديث الدعاء بعد الأذان الذي رواه البيهقي من رواية محمد بن عون عن علي بن عياش قال الحافظ في الفتح وهو الذي روىٰ البخاري حديث الأذان عنه ففي هذه الرواية التي رواها محمد بن عون اللهم إني أسألك بحق هذه الدعوة التامة.....الخ الدعاء المعروف أفاده الحافظ في الفتح ومحمد بن عون الظاهر أنه الزيادي البصري وهو ثقة وهذا فيه التوسل بحق الدعوة التامة والصلاة القائمة وهو ليس توسلاً بعمل ولا باسم أو صفه لله بل بمحبوب لله – عز وجل – ومن الأدلة علىٰ جواز التوسل بالذات الشريفة ما رواه الطبراني وغيره بإسناد صحيح عن عبادة ﷺ أن النبي ﷺ قال (الأبدال في أمتي ثلاثون رجلا بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون) وأخرج الإمام أحمد في الزهد بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما خلت

Scanned by CamScanner

الأرض من بعد نوح من سبعة – أي مسلمين كما في رواية أخرىٰ – يدفع الله بهم عن أهل الأرض) وروىٰ النسائي والبخاري في صحيحه عن مصعب بن سعد أنه قال: رأىٰ أي ظن سعد ﷺ أنَّ له فضلاً علىٰ من دونه من أصحاب النبي فقال النبي (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم).

وفي المواهب اللدنية للقسطلاني أن عند بن شاذان من حديث ابن مسعود ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه علىٰ حمزة بن عبدالمطلب وضعه في القبلة ثم وقف علىٰ جنازته وانتحب حتىٰ نشغ من البكاء يقول يا حمزة يا عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله يا حمزة فاعل الخيرات يا حمزة كاشف الكربات يا ذاب عن وجه رسول الله وفي هذا القدر من السنة كفاية لمن نور الله بصيرته.

Scanned by CamScanner

دليل الإجماع:

نص غير واحد من العلماء المحققين أن التوسل بسيد المرسلين وسائر الأنبياء والصالحين عليهم جميعاً الصلاة والسلام والاستغاثة بهم على النحو الذي عليه الأمة من اعتقاد أنهم عباد مكرمون مقبولو الشفاعة عند الله بفضله هو مما أجمعت عليه الأمة ودل عليه الكتاب ونطقت به صحاح السنة ونص العلماء على جوازه بل وعدوه من سنن الدعاء ولم يتوقف أحد في سنيته من عهد الصحابة إلى القرن السابع ثم ظهر الخلاف فيه في القرن الثامن وكتب العلماء فيه وقرر جمهورهم الأعظم مشروعيته وسنيته وردوا على المخالفين بأبلغ رد وأوضح بيان وأقوى حجة وما هذا الذي جمعته إلا قطرة من بحر والله المستعان.

قال بعض الأفاضل: أمَّا إجماع الصحابة على أن التوسل بذوات الأنبياء والصالحين جائز فكما روى البخاري في صحيحه باب الاستسقاء أن عمر ﷺ قال متوسلاً بالعباس ﷺ (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا) قال عمر ﷺ خطاباً للصحابة فاتخذوه أي عباساً ﷺ وسيلة فلم ينكر أحد من الصحابة على عمر ﷺ في قوله وفعله.

وكذلك استسقى معاوية بن أبي سفيان ﷺ متوسلاً بيزيد بن الأسود بمحضر الصحابة والتابعين كما مر نقله عن طبقات ابن سعد فلم ينكره أحد من الحاضرين على معاوية ﷺ فثبت إجماع الصحابة والتابعين على جواز التوسل بالذوات ولو كان التوسل بذوات الصالحين شركاً أو حراماً أو ممنوعاً لما توسل عمر ومعاوية رضي الله عنهما بالصالحين ولما سكت سائر الصحابة والتابعين على فعلهما.

وقد صرح ابن تيمية في رسالة التوسل والوسيلة بانعقاد إجماع الصحابة في القضيتين المذكورتين حيث قال بعد ذكر قصة توسل عمر بالعباس هذا الدعاء أقره جميع الصحابة ولم ينكر عليه أحد مع شهرته

Scanned by CamScanner

وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية ودعا بمثله معاوية بن أبي سفيان في خلافته انتهى كلامه.

وكذا انعقد إجماع الصحابة على جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته في زمن عمر كما في قصة بلال بن الحارث المزني المروية عند ابن أبي شيبة بإسناد صحيح والبيهقي والبخاري في تاريخه الكبير وابن عبدالبر وسيف بن عمر التميمي وابن خيثمة ونقلها الحافظ في الفتح وفي الإصابة وقد ذكرناها وملخصها أن رجلاً هو بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه جاء إلى قبر رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتي الرجل في المنام فقيل له ائت عمر فقل له إنكم مسقون فعليك الكيس قال فبكى عمر وقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت منه.

وقوله: عليك الكيس أي عليك بالاجتهاد بالسعي في خدمة الأمة.

ومعنى قول عمر: يا رب ما آلو إلا ما عجزت منه أي لا أقصر إلا ما عجزت أي سأفعل ما في وسعي لخدمة الأمة.

فلم ينكر عمر ومن بمحضره من الصحابة على بلال بن الحارث في قوله وعمله.

وكذلك لم ينكر عثمان بن عفان على الرجل الذي علمه عثمان بن حنيف التوسل بالنبي ﷺ للدخول على عثمان بن عفان وتقدمت قصته وهي صحيحة فهذا من أوضح الأدلة على الإجماع الإقراري.

Scanned by CamScanner

دليل القياس:

قال العلامة سلامة القضاعي رحمه الله: لو لم يكن للفقيه من الدليل على صحة التوسل والاستغاثة به ﷺ بعد وفاته إلا قياسه على التوسل به والاستغاثة به في حياته الدنيا لكفى فإنه حي الدارين دائم العناية بأمته متصرف بإذن الله في شؤنها خبير بأحوالها تعرض عليه أعمالها بل تعرض عليه صلوات المصلين عليه من أمته ويبلغه سلامهم على كثرتهم واختلاف أقطارهم وتباعد ديارهم حين يفرغون منها بل في حديث أبي الدرداء عرض صلاة الأمة عليه حين أدائها وقبل فراغها وهو قوله ﷺ (وإن أحداً لن يصلي عليَّ إلا عرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها قال قلت وبعد الموت؟ قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام) رواه ابن ماجة بسند جيد ومن اتسع علمه بشؤن الأرواح وما جعلها الله عليه من الخصائص لاسيما العالية منها اتسع قلبه للإيمان بذلك فكيف بروح الأرواح ونور الأنوار نبينا عليه الصلاة والسلام ا.هـ.

Scanned by CamScanner

ثبوت التوسل عقلاً:

اعلم أن التوسل برسول الله ﷺ كما هو ثابت شرعاً ثابت كذلك عقلاً ووجه ثبوته عقلاً أنه لما كانت الوسيلة باعثة لتقرب العباد إلى الله والتقرب إلى الله مقصود الإنسان ومطلوبه في عباداته وأعماله لأن السعادة والفلاح لا يحصل للإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة بدون التقرب والتقرب لا يحصل بدون الوسيلة فحصول السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة موقوف على الوسيلة.

وقد صرح ابن القيم الجوزية رحمه الله في كتابه زاد المعاد بقوله: لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ولا ينال رضى الله البته إلا على أيديهم ا.هـ.

فعلم أن الوسيلة التي حصل بها السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة هي ذوات الأنبياء والرسل وأيضاً أن الوسيلة يحصل بها الحوائج وحصول الحاجة نعمة من الله فالوسيلة يحصل بها النعمة وما حصلت به النعمة فهو أيضاً نعمة لأن سبب النعمة نعمة فإذا ثبت أن الوسيلة نعمة وإحسان من الله فما يكون أكمل نعمة فهو أكمل وسيلة ولا شك أن ذوات الأنبياء والرسل من أعظم إنعاماته تعالى فجاز أن تكون وسيلة.

إذا تقرر هذا فاعلم أن النعمة الكبرى والإحسان الأكبر والمن الأعظم من الله هو ذات محمد ﷺ لأنه هو الرسول الأعظم ورحمة للعالمين وخاتم النبيين وشفيع المذنبين إذ قال الله تعالى في شأنه عليه الصلاة والسلام ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فثبت أن النبي ﷺ هو الوسيلة العظمى في الدنيا والآخرة فلا يحصل الفلاح والسعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا به كما مر قول ابن القيم رحمه الله.

Scanned by CamScanner

فإذا كان يكفي أن يتوسل به علم أنه إحسان ونعمة من الله فذكر هذه النعمة والإحسان في الحاجة إلى الله كاف وإن كان غير موجود عندنا وقت التوسل كما أن الأعمال الصالحة يتوسل بذكرها وهي غير موجودة وقت التوسل كما روي عن ابن عمر في الصحيحين في قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين أووا إلى الغار فأطبقت عليهم الصخرة فتوسل كل واحد بصالح عمله الماضي.

كذلك يجوز التوسل بذكر النبي ﷺ ولو كان قبل ظهوره أو بعد ظهوره في حياته أو بعد مماته لأن الله تعالى لما أعلم العباد تخليقه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] علم العباد أنه عليه الصلاة والسلام نعمة الله تعالى العظمى ورحمة الله الكبرى فاتخذوه وسيلة وتوسلوا بذكره في حوائجهم قبل خلقه وبعد خلقه في حياته وبعد مماته.

نماذج من توسلات الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

١- قصة مالك الدار التي فيها توسل الصحابي بلال بن الحارث المزني ﷺ برسول الله ﷺ بقوله عند القبر الشريف (يا رسول الله استسق لأمتك وسبق تخريجها) وهي صحيحة.

٢- قصة عثمان بن حنيف وتعليمه للرجل الذي كان يختلف على عثمان بن عفان ﷺ التوسل برسول الله ﷺ وكان من جملة ما علمه في أن يدعو بقوله (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي...) الحديث وقد تقدم تخريجه وهو حديث صحيح.

٣- روى الحافظ أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في صفوة الصفوة ونقله المرتضى الزبيدي في شرح الإحياء أن خبيب بن عدي الأنصاري

Scanned by CamScanner

ﷺ لما قدم للقتل بعد ما أنشد الأبيات المعروفة التي منها:

فلست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

قال: يا محمد ثم ضربوه فقتلوه وخبيب هذا صحابي أنصاري بدري وقد ختم حياته بالنداء يا محمد فهل يعقل أن يختم هذا الصحابي حياته بالشرك حاشاه بل هذا هو حسن الخاتمة وهذه هي الخاتمة الرضية المرضية.

٤- قال البخاري في الأدب المفرد: حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن عبدالرحمن بن سعد قال: خدرت رجل ابن عمر فقال له رجل اذكر أحب الناس إليك فقال يا محمد وقد ترجم البخاري هذا الحديث باب ما يقول الرجل إذا خدرت رجله.

وقد روى هذا الحديث ابن السني في عمل اليوم والليلة وذكره ابن تيمية في الكلم الطيب بلفظ يا محمد.

٥- ذكر ابن الأثير في الكامل وابن كثير في البداية أن سيف الله خالد بن الوليد كان شعار كتيبته يوم اليمامة في حرب مسيلمة النداء يا محمداه فخالد نادى بذلك ونادى بندائه الجيش وفيه من فيه من الصحابة العلماء والحفاظ والبدريين ﷺ.

٦- قال ابن حبان في صحيحه أخبرنا أبو يعلى حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي قال: سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبدالله قال: رأيت أسامة بن زيد يصلي عند قبر النبي ﷺ فخرج مروان بن الحكم فقال تصلي إلى قبره فقال إني أحبه فقال له قولاً قبيحاً ثم أدبر فانصرف أسامة بن زيد فقال له يا مراون إنك آذيتني وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الله يبغض الفاحش المتفحش) وإنك فاحش متفحش قال المحققان

Scanned by CamScanner

لموارد الظمآن حسين سليم أسد وعبده علي كوش إسناده صحيح فقد صرح محمد بن إسحاق بالتحديث.

أقول: إسناده مسلسل بالأئمة الحفاظ.

وأخرجه الطبراني في الكبير من طريق معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني حدثنا وهب بن جرير بن حازم بهذا الإسناد ولفظه «رأيت أسامة بن زيد عند حجرة عائشة يدعو فجاء مروان فأسمعه كلاماً فقال أسامة إني سمعت رسول الله يقول (إن الله عز وجل يبغض الفاحش البذيء) قال العراقي إسناده جيد وقال الهيتمي رجاله ثقات».

٧- أخرج الحاكم في المستدرك من طريق سليمان بن داود عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده قال الحاكم: هذا الحديث رواته عن آخرهم ثقات وأعله الذهبي بالنكارة وإن سليمان بن داود متكلم فيه ورد المحققون كلام الذهبي بأن الجرح الذي ساقه في سليمان بن داود غير مفسر خاصة أن ابن حبان والحاكم قد نصا على توثيقه وروى عنه جمع من الرواة.

والمتكلم في سليمان بن داود هو الأزدي والأزدي نفسه ضعيف فكيف يقبل قوله في تضعيف الثقات.

٨- روى الإمام أحمد في المسند عن داود بن أبي صالح قال: أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر فقال: أتدري ما تصنع فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب فقال: نعم جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن أبكوا عليه إذا وليه غير أهله).

وأخرجه الحاكم في المستدرك وصححه وأقره الحافظ الذهبي وصححه الهيتمي والسيوطي وحسنه المناوي.

Scanned by CamScanner

وروىٰ هذا الخبر أيضاً أبو الحسين يحيىٰ بن الحسين بن جعفر في أخبار المدينة بسنده عن المطلب بن عبدالله بن حنطب قال: أقبل مروان بن الحكم فإذا رجل ملتزم القبر فأخذ مروان برقبته ثم قال: هل تدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فقال: نعم إني لم آت الحجر ولم آت اللبن إنما جئت رسول الله ﷺ وذكر الحديث قال المطلب وذلك الرجل أبو أيوب الأنصاري.

ورواه الطبراني في الكبير والأوسط بدون القصة.

قال العلامة داود النقشبندي: ويمكن أن الإمام أحمد أخذ جواز تقبيل القبر مما رواه في مسنده عن أبي أيوب الأنصاري وأشار إلىٰ الحديث ثم قال: قال الشيخ منصور البهوتي الحنبلي في حاشية الاقناع قال إبراهيم الحربي: يستحب تقبيل حجرة النبي ﷺ والله أعلم.

أقول: إبراهيم الحربي من أصحاب أحمد رضي الله عنه.

٩- قال الحافظ الدارمي باب ما أكرم الله تعالىٰ نبيه بعد موته حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبدالله قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلىٰ عائشة فقالت: انظروا إلىٰ قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كواً إلىٰ السماء حتىٰ لا يكون بينه وبين السماء سقف قال ففعلوا فمطرنا مطراً حتىٰ نبت العشب وسمنت الإبل حتىٰ تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق وإسناده حسن.

١٠- سفر سيدنا بلال لزيارة رسول الله ﷺ وتمريغ وجهه علىٰ قبره.

روىٰ ذلك ابن عساكر في تاريخه في موضعين الأول في ترجمة بلال رضي الله عنه والثاني في ترجمة إبراهيم بن محمد بن سليمان بن بلال بن أبي الدرداء بإسنادين إلىٰ محمد بن الفيض الغساني عنه وفيه:

Scanned by CamScanner

فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما فجعل يضمهما ويقبلهما.

نقل هذا الخبر عن ابن عساكر وذكر إسناده الإمام الحافظ تقي الدين السبكي في شفاء السقام ونص على أن إسناده جيد.

قال العلامة إبراهيم السمنودي في كتابه الجليل سعادة الدارين: وقد جاء بسند جيد عند ابن عساكر وغيره كما في المواهب وخلاصة الوفاء وغيرهما أن بلال بن رباح ﷺ وذكر القصة بتمامها ثم علق في الهامش على سند القصة فقال: تبعت في ذكر هذه القصة العلامة ابن حجر المكي حيث ذكرها في كتابه الجوهر المنظم تبعاً للأئمة المذكورين.

وإن قال ملا قاري في تذكرة موضوعاته ما نصه: وفي الذيل أن قصة رحيل بلال ثم رجوعه إلى المدينة بعد رؤيته عليه الصلاة والسلام في المنام وأذانه بها وارتجاج أهل المدينة لا أصل له وهي بينة الوضع ا.هـ.

وكأن ابن حجر المكي ما اطلع عليه وذكره في كتابه الموضوع للزيارة ا.هـ كلام الملا.

ثم رأيت في السعي المشكور لعبدالحي اللكنوي الهندي أن الذي أوقع ابن الجوزي في الحكم بوضع الحديث المذكور استناده في غالبه بضعف راويه الذي يرمى بالكذب مثلاً غافلاً من مجيئه من وجه آخر وربما يكون اعتماده في التفرد قول غيره ممن يكون كلامه فيه محمولاً على النسبي ثم أطال في الرد على الحكم بوضعه وأيد أن سنده جيد فراجعه إن شئت ولا تقلد القاري في تحامله وتعصبه على شيخه الإمام ابن حجر المكي ا.هـ. لمؤلفه ا.هـ. سعادة الدارين ج١ ص٩٩.

١١- قال النبي ﷺ لمعاذ حين أرسله إلى اليمن: (فلعلك تمر بقبري ومسجدي) رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات إلا يزيد لم يسمع من معاذ فتوفي رسول الله ﷺ وجاء معاذ إلى قبر النبي ﷺ باكياً وشاهده عمر بن الخطاب ﷺ على هذا الحال وجرت بينهما هذه المحادثة كما رواه

Scanned by CamScanner

زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرج عمر فوجد معاذ بن جبل عند قبر النبي ﷺ يبكي قال: ما يبكيك قال: حديث سمعته عن رسول الله اليسير من الرياء شرك قال الحاكم صحيح ولا يعرف له علة ووافقه الذهبي فقال صحيح لا علة له.

وقال المنذري في الترغيب والترهيب رواه ابن ماجة والبيهقي والحاكم وقال صحيح لا علة له وأقره المنذري.

١٢- جاء في البخاري عن أبي بردة قال: قدمت المدينة فلقيت عبدالله بن سلام فقال: انطلق إلى المنزل فأسقيك من قدح شرب فيه رسول الله ﷺ وتصلي في مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ.

١٣- في البخاري أن محمد بن سيرين قال: قلت لعبيدة عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس فقال عبيدة: لأن تكون عندي شعرة منه خير من الدنيا وما فيها.

١٤- في البخاري أيضاً حديث سهل بن سعد وفيه قال أبو حازم فأخرج سهل ذلك القدح فشربنا منه تبركاً برسول الله ﷺ ثم استوهبه عمر بن عبدالعزيز بعد ذلك من سهل فوهبه له ومعلوم أن عمر بن عبدالعزيز إنما استوهبه للتبرك به.

١٥- لما حضرت الوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لابنه عبدالله انطلق إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم بأمير المؤمنين وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه قال فاستأذن وسلم ثم دخل عليها وهي تبكي فقال يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي فلما أقبل قيل هذا عبدالله بن عمر قد جاء فقال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت فقال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر

Scanned by CamScanner

فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين أخرجه بطوله البخاري في كتاب الجنائز باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وفي كتاب فضائل الصحابة باب قصة البيعة وفيه دليل على التبرك بقبره الشريف ﷺ.

١٦- عن يزيد بن المهدي قال لما ودعت عمر بن عبدالعزيز قال: إن لي إليك حاجة قلت يا أمير المؤمنين كيف ترى حاجتك عندي قال: إني أراك إذا أتيت المدينة سترى قبر النبي ﷺ فأقرئه مني السلام وعن حاتم بن وردان قال كان عمر بن عبدالعزيز يوجه البريد قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرئ عنه النبي ﷺ ذكره عياض في الشفاء وذكر الخفاجي وملا قارئ في شرح الشفاء أنه رواه بن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب وقال الخفاجي: كان من دأب السلف أنهم يرسلون السلام إلى رسول الله ﷺ وكان ابن عمر ﷺ يفعله ويرسل له عليه الصلاة والسلام ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ا.هـ.

١٧- روى ابن أبي الدنيا بسنده في كتابه مجابي الدعوة قال جاء رجل إلى عبدالملك بن سعيد بن أبجر فجس بطنه فقال بك داء لا يبرأ قال ما هو؟ قال الدبيله – خراج أو دامل كبير في الجوف يقتل صاحبه غالبا – قال فتحول الرجل فقال: الله الله ربي لا أشرك به شيئا اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ تسليماً يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي قال فجس بطنه فقال: قد برئت ما بك من علة.

نقل ابن تيمية هذا الخبر ثم قال: قلت فهذا الدعاء ونحوه قد روي أنه دعا به السلف تأمل اعتراف ابن تيمية رحمه الله بقوله: دعا به السلف وابن أبجر من ثقات التابعين.

١٨- قال الإمام الحافظ أبو علي الغساني أخبرنا أبو الفتح نصر بن الحسن السكتي السمرقندي قدم علينا بلنسيه عام أربعة وستين وأربع

Scanned by CamScanner

مئة قال قحط المطر عندنا بسمرقند في بعض الأعوام فاستسقىٰ الناس مراراً فلم يسقوا فأتىٰ رجل صالح معروف بالصلاح إلىٰ قاضي سمرقند فقال له: إني رأيت رأياً أعرضه عليك قال أرىٰ أن تخرج ويخرج الناس معك إلىٰ قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وقبره بخرتنك ونستسقي عنده فعسىٰ الله أن يسقينا قال: فقال القاضي: نعم ما رأيت فخرج القاضي والناس معه واستسقىٰ القاضي بالناس وبكىٰ الناس عند القبر وتشفعوا بصاحبه فأرسل الله تعالىٰ السماء بماء عظيم غزير أقام الناس من أجله بخرتنك سبعة أيام أو نحوها لا يستطيع أحد الوصول إلىٰ سمرقند من كثرة المطر وغزارته وبين خرتنك وسمرقند نحو ثلاثة أيام.

القصة هذه ذكرها في كتاب تقييد المهمل لأبي علي الغساني وما زال مخطوطاً ونقلها عنه الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٤٦٩ والعلامة السبكي في طبقات الشافعية وقال بعدها قلت وأما الجامع الصحيح وكونه ملجأ للمعضلات ومجرباً لقضاء الحوائج فأمر مشهور ولو اندفعنا في ذكر تفصيل ذلك وما اتفق فيه لطال الشرح ا.هـ.

وشيخ الغساني نصر بن الحسن التنكتي محدث ثقة ورع مترجم في السير للذهبي ج١٩ ص ٩١-٩٠ وقد شهد نصر هذه القصة وعاينها.

وفي سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٤٣٠ وقال محمد بن أحمد بن الفضل البلخي وراق البخاري سمعت أبا سعيد الأشج وخرج إلينا في غداة باردة وهو يرتعد من البرد فقال: أيكون عندكم مثل هذا البرد؟ فقلت مثل ذا يكون في الخريف والربيع وربما نمسي والنهر جار فنصبح ونحتاج إلىٰ الفأس في نقب الجمد فقال لي: من أي خرسان أنت؟ قلت من بخارىٰ فقال له ابنه هو من وطن محمد بن إسماعيل فقال له: إذا قدم عليك من يتوسل به فاعرف له حقه فإنه إمام.

Scanned by CamScanner

١٩- نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب عن الإمام الحاكم في تاريخ نيسابور قال وسمعت أبا بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسىٰ يقول خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر بن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلىٰ زيارة قبر علي بن موسىٰ الرضا بطوس قال فرأيت من تعظيمه يعني بن خزيمة لتلك البقعة وتواضعه وتضرعه عندها ما تحيرنا ولما سئل قال: دعوني لما أجد في نفسي لعلي الرضا.

٢٠- أخرج الخطيب أن الحافظ أبا عبدالله المحاملي أحد أئمة الحديث الكبار قال: أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة وما قصده مهموم إلا فرج الله همه.

رواه الخطيب في تاريخ بغداد ج١ ص١٢٣ عن شيخه محمد بن علي عبدالله الصوري قال عنه الحافظ الذهبي في السير ج١٧ ص٦٢٧ الإمام الحافظ البارع الأوحد الحجة ا.هـ. وأثنىٰ عليه الخطيب ثناء عجيباً لقوة حفظه وضبطه تاريخ بغداد ج ٣ ص١٠٣ ورواه الصوري عن محمد بن أحمد بن جميع قال فيه الذهبي في السير ١٧/ ١٥٢ الشيخ العالم الصالح المسند المحدث الرحال ثم نقل عن الصوري قال: وكان شيخاً صالحاً ثقة متقناً ووثقه الخطيب وغيره والمحاملي قائل هذا الكلام هو الحسين ابن إسماعيل قال عنه الذهبي في السير ج١٥ ص٢٥٨ القاضي الإمام العلامة المحدث الثقة مسند الوقت ثم نقل عن محمد بن الإسكاف قال: رأيت في النوم كأن قائلاً يقول: إن الله ليدفع عن أهل بغداد البلاء بالمحاملي.

وقد روىٰ رؤية الإسكاف الخطيب في التاريخ ج٨ ص ٢٢ ولفظه: كنت ببغداد محتارا في أمر أبي عبدالله المحاملي وعبدالرحمن بن أبي حاتم فكنت أنا أفضل ابن أبي حاتم علىٰ المحاملي فرأيت تلك الليلة فيما يرىٰ النائم كأن قائلا يقول لي: استغفر في أمر المحاملي فإن الله ليدفع البلاء عن أهل بغداد به فلا تستصغر أمره ا.هـ. وابن أبي حاتم كان من الأبدال كما

Scanned by CamScanner

في السير للذهبي إذاً كيف يكون مقام المحاملي اللهم انفعنا ببركة الصالحين آمين.

وأخرج الخطيب أيضاً أن الإمام عبيد الله بن عبدالرحمن بن محمد الزهري قال سمعت أبي يقول: قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج ويقال إن من يقرأ عنده مائة مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وسأل الله تعالىٰ ما يريد قضىٰ الله حاجته.

وإسناد هذه الرواية مسلسل بالأئمة الثقات رواه الخطيب عن شيخه أبي إسحاق البرمكي قال الذهبي في السير ج١٧ ص٦٠٥ مادحاً له الإمام المفتي بقية المسندين..... برع في المذهب الحنبلي وشيخ البرمكي الذي روىٰ عنه هذا الأثر هو أبو الفضل عبيدالله بن عبدالرحمن بن محمد الزهري وصفه الذهبي بالشيخ العالم الثقة العابد مسند العراق انظر السير ج ١٦ ص٣٩٣-٣٩٢ قال الخطيب شيخ رضا مجاب الدعوة ووصفه بالثقة كما في التاريخ ج١٠ ص٣٦٨-٣٦٩ وأبو عبدالرحمن قائل هذا الكلام قال فيه الخطيب كان ثقة ثم نقل عن أبي بكر بن مجاهد أن عبدالرحمن الزهري دخل عليه وخلفه أولاده فقال: أنا أشبه أبا محمد ببعض الصحابة وخلفه اتباعه انظر تاريخ بغداد ج١٠ ص٢٨٩ وأخرج الخطيب في تاريخه عن أحمد بن جعفر القطيعي قال: سمعنا الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال وهو شيخ الحنابلة في وقته يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسىٰ بن جعفر يعني الكاظم عليه السلام فتوسلت به إلا سهل الله لي ما أحب.

وفي عشرين نموذج كفاية لأن الاستقصاء صعب فالسلف والخلف علىٰ التوسل ﷺ أجمعين.

وهاك الكلام علىٰ مشروعية التوسل في المذاهب الأربعة.

Scanned by CamScanner

التوسل في المذاهب الأربعة

أولاً: التوسل عند الحنفية:

نص الإمام الأعظم على التوسل بالنبي ﷺ:

روى الإمام الأعظم في مسنده عن نافع عن ابن عمر قال من السنة أن تأتي قبر النبي ﷺ من قبل القبلة وتجعل ظهرك إلى القبلة وتستقبل القبر بوجهك ثم تقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ا.هـ. مسند الإمام الأعظم بشرح ملا القاري ص٢٠١.

قال المجد اللغوي الفيروز أبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ عن ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ قال: سمعت أبا حنيفة يقول: قدم أيوب السختياني توفي ١٣١هـ وأنا بالمدينة فقلت لأنظرن ما يصنع فجعل ظهره مما يلي القبلة ووجهه مما يلي وجه رسول الله ﷺ وبكى غير متباك قال أبو حنيفة فقام مقام فقيه.

أقول: ويشهد له ما أخرجه أبو ذر الهروي في سننه في باب الإيمان والإسلام من أن حماد بن زيد حدث أبا حنيفة بالحديث في ذلك عن شيخه أيوب السختياني فقال له أبو حنيفة فحدثك أيوب بهذا وبكى ثم قال: ما ذكرت أيوب السختياني إلا بكيت فقد رأيته يلوذ بقبر رسول الله ﷺ شيئاً ما رأيته من أحد ا.هـ. نقله السمهودي.

فدل هذا على أن مختار الإمام الأعظم هو استقبال القبر الشريف واستدبار الكعبة في السلام والدعاء وماذاك إلا للتوسل برسول الله ﷺ وهذا ما عليه الحنفية قال محقق الحنفية ابن الهمام في فتح القدير ج٣ ص١٨٠: ثم يأتي القبر الشريف فيستقبل جداره ويستدبر القبلة على نحو أربعة أذرع من السارية التي عند رأس القبر في زاوية جداره.

وما عن أبي الليث أنه يقف مستقبل القبلة مردود بما روى أبو حنيفة في مسنده عن ابن عمر وساق الرواية ا.هـ.

Scanned by CamScanner

فالصحيح عند الحنفية استقبال القبر الشريف واستدبار القبلة حال السلام والدعاء.

ونقل شيخنا السيد محمد علوي المالكي رحمه الله تعالىٰ في كتاب الزيارة النبوية ص٤٠ أن الإمام الأعظم لما زار المدينة وقف أمام القبر الشريف وقال:

يا أكرم الثقلين يا كنز الورىٰ جد لي بجودك وارضني برضاك

أنا طامع في الجود منك ولم يكن لأبي حنيفة في الأنام سواكا

وقد اقتدىٰ في ذلك بالصحابي الجليل سواد بن قارب حيث قال:

فكن لي شفيعاً يوم لا ذو قرابة بمغن فتيلاً عن سواد بن قارب

وفي الطبقات السنية في تراجم الحنفية للعلامة تقي الدين عبدالقادر التميمي الداري الغزي المصري الحنفي المتوفىٰ سنة ١٠٠٥ه ذكر وصية الإمام الأعظم ﷺ لأبي يوسف رحمه الله ج١ ص١٦٦ وفيها قول الإمام الأعظم لأبي يوسف: وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والمواضع المباركة ا.هـ

ونقل أيضاً هذه الوصية ابن نجيم صاحب البحر الرائق في آخر الأشباه والنظائر وقد ذكر علماء الحنفية التوسل بأبي حنيفة - ﷺ - ويذكرون قصة الإمام الشافعي ﷺ أنه كان يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة ﷺ وأجيء إلىٰ قبره في كل يوم وكنت إذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلىٰ قبره وسألت الله تعالىٰ الحاجة فما تبعد عني حتىٰ تقضىٰ.

Scanned by CamScanner

وممن ذكرها من الحنفية:

١- العلامة الإمام المحدث المؤرخ الكبير أبو عبدالله حسين بن علي الصيمري المتوفى ٤٣٦هـ في أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص٨٩.

٢- الإمام الموفق بن أحمد المكي المتوفى سنة ٥٦٨هـ في مناقب أبي حنيفة ص٤٥٣.

٣- الإمام حافظ الدين بن محمد المعروف بالكردري المتوفى ٨٢٧هـ في مناقب أبي حنيفة ﷺ ص٣٨٣.

٤- صاحب الطبقات السنية المتقدم ذكره ج١ ص١٤٦.

أقول: والقصة أوردها الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده أخبرنا القاضي أبو عبدالله الحسين بن علي بن محمد الصيمري قال: أنبأنا عمر بن إبراهيم المقري قال: أنبأنا مكرم بن أحمد قال: أنبأنا عمر بن إسحاق بن إبراهيم قال: أنبأنا علي بن ميمون رحمه الله تعالى أنه قال: سمعت الشافعي ﷺ يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم – يعني زائراً – فإذا عرضت لي حاجة عنده فما يبعد عني حتى تقضى.

أقول: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات عدا عمر بن إسحاق بن إبراهيم وهو مستور ولكنه وقع بين ثقتين وقال اللكنوي في الرفع والتكميل: إن المستور إذا وقع بين ثقتين فهو ثقة فالرواية صحيحة وممن ذكرها العلامة ابن حجر الهيتمي في الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان.

وقال العلامة الإمام الحافظ المحدث محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي الشافعي المتوفى ٩٤٢ه في عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ص٣٦٣:

فصل لم تزل العلماء وذوو الحاجات يزورون قبر الإمام أبي حنيفة ﷺ ويتوسلون إلى الله تعالى عنده في قضاء حوائجهم ويرون نجح ذلك منهم الإمام الشافعي ﷺ لما كان ببغداد.

Scanned by CamScanner

روىٰ القاضي أبو عبدالله الصيمري والخطيب عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لاتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلىٰ قبره – يعني زائرا – فإذا عرضت لي الحاجة صليت ركعتين وجئت إلىٰ قبره وسألت الله عنده فما يبعد حتىٰ تقضىٰ.

قلت: وذكر شيخ شيوخنا الإمام العلامة الزاهد ولي الله تعالىٰ الشيخ شهاب الدين الابشيطي بسكون الموحدة وبالشين المعجمة والمثناة التحية نزيل المدينة الشريفة في بعض مصنفاته وغالب ظني أنه شرح خطبة منهاج الإمام النووي أن الإمام الشافعي ﷺ صلىٰ الصبح بمقام الإمام أبي حنيفة ﷺ فلم يقنت في صلاة الصبح فقيل له في ذلك فقال: تأدباً مع صاحب هذا القبر ثم رأيت الشيخ محي الدين القرشي ذكره في آخر طبقاته نقلاً عن بعض التواريخ وزاد أنه لم يجهر بالبسملة.

وروىٰ أبو محمد الحارثي عن بشر بن عثمان المروزي أن عبدالله بن المبارك قدم بغداد فقال دلوني علىٰ قبر أبي حنيفة فدلوه عليه فقام علىٰ قبره فقال: رحمك الله يا أبا حنيفة مات إبراهيم النخعي وترك خلفاً ومات حماد بن أبي سليمان وترك خلفاً وأنت يا أبا حنيفة مت ولم تترك علىٰ وجه الأرض خلفاً ثم بكىٰ بكاء شديداً.

وروىٰ القاضي أبو عبدالله الصيمري عن شبابة بن سوار عن أبيه قال: رأيت الحسن بن عمارة قاضي بغداد في مقابر الخيزران عند قبر أبي حنيفة يبكي ويقول رحمك الله كنت لنا خلفاً ممن مضىٰ وما تركت بعدك خلفاً إن خلفوك في العلم الذي علمتهم لم يمكنهم أن يخلفوك في الورع إلا بتوفيق فقلت قبر من هذا؟ قال: قبر أبي حنيفة.

ذكر علماء الحنفية في معتبراتهم صلاة الحاجة وعدوها من المندوبات ذكرها في التجنيس والملتقط وخزانة الفتاوىٰ وكثير من الفتاوىٰ والحاوي وشرح المنية والتنوير وغيرها من المعتبرات وها أنا أنقل لك نصها من شرح الحلبي الكبير علىٰ المنية ص٤٣٣ ومنها صلاة

Scanned by CamScanner

الحاجة عن عبدالله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ (من كانت له حاجة إلى الله تعالى أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليحسن الوضوء ثم ليصل ركعتين ثم ليثن على الله وليصل على النبي ﷺ ثم ليقل لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ولا هماً إلا فرجته ولا حاجة لك فيها رضى إلا قضيتها يا أرحم الراحمين) رواه ابن ماجه والترمذي وضعفه.

وعن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال ادع الله لي أن يعافيني قال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك قال: فادعه فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي اللهم فشفعه فيَّ) روياه أيضاً وقال الترمذي حسن صحيح ا.هـ وهذه دلالة واضحة على جواز التوسل عند الحنفية وأن هذه الصلاة من المستحبات التي ينبغي للمسلم فعلها وكتبهم بهذا طافحة ونصوصهم فيها واضحة.

كما نص الحنفية في كتاب الحج في فصل الزيارة لقبر رسول الله ﷺ على التوسل والاستشفاع به ﷺ ونصوصهم في ذلك فوق الحصر وأذكر لك منها نماذج يسيره:

قال العلامة الإمام المحقق كمال الدين محمد بن عبدالواحد السيواسي ثم السكندري المعروف بابن الهمام الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣هـ في كتابه المعتبر الجليل فتح القدير شرح الهداية ج٣ ص١٨٠:١٨٤ في آخر الكلام على الحج في زيارة قبر النبي ﷺ بعد أن قرر أن الأولى تجريد النية لزيارة قبر النبي ﷺ لما في ذلك من زيادة تعظيمه وإجلاله ﷺ إذ يكون مقصوداً لذاته وبعد أن ذكر صيغ السلام على رسول الله ﷺ ما نصه ويسأل الله تعالى حاجته متوسلاً إلى الله عز وجل بحضرة نبيه عليه

Scanned by CamScanner

الصلاة والسلام وأعظم المسائل وأهمها سؤال حسن الخاتمة والرضوان والمغفرة ثم يسأل النبي ﷺ الشفاعة فيقول: يا رسول الله أسألك الشفاعة يا رسول أسألك الشفاعة وأتوسل بك إلى الله في أن أموت مسلماً على ملتك وسنتك..

ثم ذكر استحباب إتيان الروضة والإكثار فيها من الصلاة والدعاء ما لم يكن وقت كراهة ويقف عند المنبر ويدعو ثم قال ما نصه: وكان السلف يستحبون أن يضع أحدهم يده على رمانة المنبر النبوي التي كان عليه الصلاة والسلام يضع يده عليها عند الخطبة وهناك الآن قطعة تدخل الناس أيديهم من طاقة في المنبر إليها يتبركون بها يقال: إنها من بقايا منبره عليه الصلاة والسلام ثم ذكر المساجد والمواضع المباركة في المدينة وذكر منها مسجد يقال له مسجد بني ظفر قال ما نصه: وفيه حجر جلس عليه النبي ﷺ ويقال ما جلست عليه امرأة تريد الولد إلا حبلت.

ثم ذكر في فصل الرجوع إلى أهله أنه ينصرف متباكياً متحسراً على فراق الحضرة الشريفة النبوية والقرب منها.

قال العلامة عبدالله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي المتوفى ٦٨٣ هـ في الاختيار ج١ ص٢٣٦:٢٣٩ ينبغي لمن قصد زيارة قبر النبي ﷺ أن يكثر الصلاة عليه فقد جاء في الحديث أنه يبلغه ويصل إليه..... إلى أن ذكر صلاة تحية المسجد والسجود شكراً لله على ما وفقه ثم ينهض فيتوجه إلى قبره ﷺ فيقف عند رأسه..... إلى أن ذكر صيغة السلام على رسول الله وفيها: يا رسول الله نحن وفدك وزوار قبرك جئناك من بلاد شاسعة ونواح بعيدة قاصدين قضاء حقك والنظر إلى مآثرك والتيامن بزيارتك والاستشفاع بك إلى ربنا فإن الخطايا قد قصمت والأوزار قد أثقلت كواهلنا وأنت الشافع المشفع الموعود بالشفاعة والمقام المحمود وقد قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]

Scanned by CamScanner

وقد جئناك ظالمين لأنفسنا مستغفرين لذنوبنا فاشفع لنا إلى ربك واسأله أن يميتنا على سنتك وأن يحشرنا في زمرتك وأن يوردنا حوضك وأن يسقينا كأسك غير خزايا ولا نادمين الشفاعة الشفاعة يا رسول الله يقولها ثلاثا.

وفيه أيضاً: ويمثل صورته الكريمة البهية ﷺ كأنه نائم في لحده عالم به يسمع كلامه قال ﷺ (من صلى عليَّ عند قبري سمعته).

قال العلامة أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن الضياء المكي الحنفي المتوفى ٨٥٤هـ في البحر العميق ج٥ ص٢٩٠٣ كيفية السلام عليه ﷺ حال الزيارة والسلام على ضجيعيه رضي الله عنهما ليقل بحضور قلب وغض طرف وخفض صوت وسكون جوارح: السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا نبي الله السلام عليك يا خيرة الله من خلقه السلام عليك يا حبيب الله واستطرد إلى أن قال ونحن وفدك يا رسول الله وأضيافك جئنا إليك وإلى بلدك الكريم من بلاد شاسعة وأماكن بعيدة نقصد بذلك قضاء حقك علينا والنظر إلى مآثرك والتيمن بزيارتك والتبرك بالسلام عليك والاستشفاع بك إلى ربنا عز وجل فإن خطايانا قد قصمت ظهورنا وأوزارنا قد أثقلت كواهلنا وأنت الشافع المشفع وقد قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئناك يا رسول الله ظالمين لأنفسنا مستغفرين لذنوبنا فاشفع لنا إلى ربنا واسأله أن يميتنا على سنتك ويحشرنا في زمرتك ويسقينا بكأسك غير خزايا ولا ندامى ويرزقنا مرافقتك في الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا يا رسول الله الشفاعة الشفاعة الشفاعة ا.هـ.

Scanned by CamScanner

ثم ذكر السلام على الصاحبين وفيه جئنا يا صاحبي رسول الله ﷺ زائرين لنبينا وصديقنا وفاروقنا ونحن نتوسل بكما إلى رسول الله ﷺ ليشفع لنا ا.هـ.

ثم قال: ومن أحسن ما يقول ما حكاه العلماء عن العتبي مستحبين له..... وذكر قصته وقد تقدمت ثم قال واستغفار الرسول ﷺ بعد الموت حاصل لأنه الشفيع الأكبر يوم القيامة والوسيلة العظمى في طلب الغفران ورفع الدرجات من بين سائر ولد آدم والمجيء إليه بعد موته تجديد لتأكيد التوسل به إلى الله تعالى وقت الحاجة.

وقال في ص٢٨٨٦: ولا شك أنه حي ﷺ وأن أعمال أمته معروضة عليه.

وقال ص٢٨٦٣: ولما دفن ﷺ جاءت فاطمة رضي الله عنها فوقفت على قبره وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعته على عينيها وبكت وأنشأت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت عليَّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

جاء في الفتاوى الهندية ج١ ص٢٦٥:٢٦٦ خاتمة في زيارة قبر النبي ﷺ قال مشايخنا – رحمهم الله تعالى – أنها أفضل المندوبات وفي مناسك الفارسي وشرح المختار أنها قريبة من الوجوب لمن له سعة.... ويصلي في طريقه في المساجد التي بين مكة والمدينة وهي عشرون مسجداً ذكر ذلك الكرماني في مناسكه فإذا وقع بصره على أشجار المدينة زاد في الصلاة والتسليم كذا في غاية السروجي شرح الهداية..... وما يفعله بعض الناس من النزول بقرب من المدينة والمشي إلى أن يدخلها حسن وكل ما كان أدخل في الأدب والإجلال كان حسنا كذا في فتح القدير ثم ذكر أدعية وآداباً ثم قال ثم يقف – أي الزائر – عند رأسه كالأول ويقول

Scanned by CamScanner

(اللهم إنك قلت وقولك الحق ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد جئناك سامعين قولك طائعين أمرك مستشفعين بنبيك إليك ا.هـ. وهاك طرفاً من نصوص الحنفية وتوسلاتهم المتفرقة.

• ختم الشرنبلالي كتابه إمداد الفتاح بقوله ص٧١٤: ونسأل الله سبحانه متوسلين إليه بالنبي المصطفىٰ الرحيم أن يجعله وما به من هذا الشرح خالصاً لوجهه الكريم.

وقال أيضاً فقيه النفس حسن بن عمار الشرنبلالي المتوفىٰ ١٠٦٩هـ في مراقي الفلاح ص٣٠٧ مع حاشية الطحطاوي: اللهم إني أتوسل إليك بحبيبك المصطفىٰ أن ترحم فاقتي بالموت علىٰ الإسلام والإيمان وأن تشفع فينا نبيك عليه أفضل الصلاة والسلام.

• قال العلامة محمد بن محمد مصطفىٰ الخادمي الحنفي نقلاً عن الزيلعي ويجوز التوسل إلىٰ الله تعالىٰ والاستغاثة بالأنبياء والصالحين بعد موتهم لأن المعجزة والكرامة لا تنقطع بموتهم وعن الرملي أيضاً بعدم انقطاع الكرامة بالموت وعن إمام الحرمين ولا ينكر الكرامة ولو بعد الموت إلا رافضي وعن الأجهوري الولي في الدنيا كالسيف في غمده فإذا مات تجرد منه فيكون أقوىٰ في التصرف كذا نقل عن نور الهداية لأبي علي السنجي ا.هـ. بريقة محمودية الجزء الأول.

• للعلامة المحدث الفقيه الحنفي محمد عابد السندي المتوفىٰ سنة ١٢٥٧ هـ رسالة في جواز التوسل بالأنبياء والصالحين.

• توسل العلامة ابن عابدين في مواطن متعددة من حاشيته التي هي عمدة الحنفية كما توسل في كثير من كتبه ورسائله وقد ختم رسالته المسماه إجابة الغوث ببيان حال النقباء والأبدال والأوتاد والغوث التي فرغ منها في شوال سنة ١٢٢٤هـ بتوسله بهم في قصيدة بائية من ستة وعشرين بيتاً.

Scanned by CamScanner

• قال ابن عابدين في الرسالة المذكورة من سلسلة رسائل ابن عابدين ج٢ ص ٢٨٠ وقد يسر المولى ختم تهذيب هذه المقالة وتذهيب ما جاء بهذه العجالة بتوسلات ألهمت لهذا العبد الضعيف بهؤلاء القوم ذوي المقام االمنيف راجياً من الله تعالى القبول بحرمة نبيه النبيه الرسول وأتباعه ذوي القرب والوصول عوالي الفروع ثوابت الأصول فقلت وعلى الله اتكلت:

توسل إلى الله الجليل بأقطاب ... وقف طارقاً باب الفتوح على الباب
وبالسادة الأبدال دوماً ذوي النقبا ... وبالسادة الأوتاد ثم بأنجاب
كذلك بالأخيار والنقبا تفز ... بخير على قطر السما والحصى رابي
فهم عدة للناس من كل نازل ... بهم يتقى من كل ضير وأوصاب

إلى أن قال:

وكن دائماً مستمسكاً لائذا بهم ... ودع قول أفاك جهول ومرتاب
وقل سيدي يا من له الأمر كله ... ومنه يفاض الخير من غير تطلاب
سألتك بالمختار سيدهم ومن ... علا كل عبد ناسك لك آواب
محمد المبعوث من خير عنصر ... وأشرف آباء وأطهر أصلاب
بأكرم آل طاهرين من الردى ... وأرفع أتباع وأشرف أصحابي

إلى أن قال:

أغثني أغثني يا مجيب ونجني ... بهم من همومي ثم ضيقي وأتعابي

Scanned by CamScanner

ولو أردت الاسترسال في تتبع ما قالوه في التوسل لطال الأمر جداً ولكني اختم بفتوىٰ علماء الحنفية حول هذه المسألة حيث سئل الإمام العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد السهارنفوري الحنفي صاحب بذل المجهود في حل سنن أبي داود المتوفىٰ سنة ١٣٤٦هـ بعض الأسئلة فأجاب عليها برسالة سماها المهند علىٰ المفند ذكر في أولها ما نصه:

ليعلم قبل أن نشرع في الجواب أنا بحمد الله ومشايخنا رضوان الله عليهم أجمعين وجميع طائفتنا وجماعتنا مقلدون لقدوة الأنام وذروة الإسلام الإمام الهمام الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ﷺ في الفروع ومتبعون للإمام الهمام أبي الحسن الأشعري والإمام الهمام أبي منصور الماتريدي رضي الله عنهما في الاعتقاد والأصول ومنتسبون من طرق الصوفية إلىٰ الطريقة العلية المنسوبة إلىٰ السادة النقشبندية والطريقة الزكية المنسوبة إلىٰ السادة الجشتية وإلىٰ الطريقة البهية المنسوبة إلىٰ السادة القادرية وإلىٰ الطريقة المرضية المنسوبة إلىٰ السادة السهروردية ﷺ أجمعين.

انظر ص٤١:٤٢ من المهند علىٰ المفند ونص السؤال المقصود وجوابه ص٥٠ من الكتاب المذكور.

س٣ / هل يجوز للرجل أن يتوسل في دعواته بالنبي ﷺ بعد الوفاة أم لا؟

س٤/ أيجوز التوسل عندكم بالسلف الصالحين من الأنبياء والصديقين والشهداء وأولياء رب العلمين أم لا؟

الجواب: عندنا وعند مشايخنا يجوز التوسل في الدعوات بالأنبياء والصالحين من الأولياء والشهداء والصديقين في حياتهم وبعد وفاتهم بأن يقول في دعائه «اللهم إني أتوسل إليك بفلان أن تجيب دعوتي وتقضي حاجتي» إلىٰ غير ذلك كما صرح به شيخنا ومولانا الشاة محمد إسحاق الدهلوي ثم المهاجر المكي ثم بينه في فتاواه شيخنا ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي رحمة الله عليهما وهي في هذه الزمان شائعة مستفيضة

Scanned by CamScanner

بأيدي الناس وهذه المسألة على ص٩٣ من الجزء الأول منها فليرجع إليها من شاء ا.هـ. بحرفه فرغ من الإجابة عليها ١٨ شوال سنة ١٣٢٥ هـ وصادق عليها وأيدها من الحنفية:

١- شيخ الحنفية العلامة المحدث مولانا الشيخ محمود حسن المتوفى ١٣٣٩هـ في دهلي ومن كلامه في التصديق قال: وهو معتقدنا ومعتقد مشايخنا جميعاً لا ريب فيه.

٢- العلامة الكبير الفقيه الشيخ مولانا مير أحمد حسن الأمروهي توفي ١٣٣٠هـ ومن كلامه في التصديق وكل ذلك هو معتقدنا ومعتقد مشايخنا وساداتنا أماتنا الله عليه وحشرنا مع عباده المخلصين المتقين وبوأنا في جوار المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين فآمين.

٣- العلامة الكبير عمدة الفقهاء المفتي الشيخ عزيزالرحمن الديوبندي توفي ١٣٤٧هـ ومن كلامه هو الحق عندي ومعتقدي ومعتقد مشايخي.

٤- العلامة الكبير حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله توفي ١٣٦٢هـ ومن كلامه نقر به ونعتقده.

٥- العلامة شيخ الأتقياء مولانا عبدالرحيم الرائفوري ومن كلامه هو معتقدي ومعتقد أشياخي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أحيانا الله بها وأماتنا عليها.

٦- العلامة رئيس الحكماء مولانا الحكيم محمد حسن الديوبندي ومن كلامه هو الحق عندنا ومعتقدنا ومعتقد مشايخنا.

٧- العلامة الكبير جامع الكمال مولانا الشيخ قدرة الله ومن كلامه هذا هو الحق الصواب.

٨- العلامة الكبير مولانا حبيب الرحمن الديوبندي ومن كلامه هو الحق والصواب والمطابق لما نطق به الكتاب والسنة وهو الذي نتدين الله

Scanned by CamScanner

تعالىٰ به وهو معتقدنا ومعتقد مشايخنا رحمهم الله تعالىٰ.

٩- العلامة مولانا الشيخ محمد أحمد قدس سره ومن كلامه هو الحق والصواب.

١٠- جامع المعقول والمنقول العلامة غلام رسول ومن كلامه قول حق وكلام صادق وهو معتقد جميع مشايخنا رحمهم الله.

١١- العلامة مولانا محمد سهول من كلامه هو معتقدنا ومعتقد مشايخنا.

١٢- العلامة مولانا الشيخ محمد عبدالصمد البجنوري رحمه الله ومن كلامه وهذه عقائدنا وعقائد مشايخنا ونحن نرجو من الله أن يحيينا ويميتنا عليها.

١٣- مولانا الشيخ العلامة محمد إسحاق النهتوري ومن كلامه صدقت بما فيه بلا شك ولا ريب.

١٤- العلامة مولانا الشيخ محمد رياض الدين ومن كلامه أصاب من أجاب.

١٥- العلامة الكبير المفتي مولانا كفاية الله الدهلوي توفي ١٣٧٢هـ من كلامه هو معتقدي ومعتقد مشايخي رحمهم الله تعالىٰ.

١٦- مولانا الشيخ محمد ضياء الحق كلامه أصاب من أجاب.

١٧- مولانا الشيخ محمد قاسم كلامه الجواب صحيح.

١٨- العلامة مولانا محمد عاشق إلهي الميرتهني من كلامه هذا هو معتقدي ومعتقد مشايخي نقر به لساناً ونعتقده جناناً.

١٩- العلامة مولانا محمد سراج أحمد كلامه إن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

٢٠- العلامة المقرئ الشيخ محمد إسحاق الميرتهي من كلامه هو حق صحيح بلا ارتياب.

٢١- العلامة الحكيم محمد مصطفىٰ البجنوري كلامه إنه لقول

Scanned by CamScanner

فصل وما هو بالهزل.

٢٢- تصديق العلامة الشيخ محمد مسعود أحمد.

٢٣- تصديق العلامة مولانا محمد يحيىٰ السهسرامي.

٢٤- تصديق العلامة مولانا الشيخ محمد كفاية الله رحمه الله.

٢٥- تصديق الإمام العلامة أحمد رشيد الحنفي.

٢٦- تصديق العلامة الإمام محب الدين المهاجر المكي الحنفي.

٢٧- تصديق العلامة الشيخ محمد صديق الأفغاني المكي.

٢٨- تصديق العلامة السيد محمد أبو الخير الشهير بابن عابدين توفي ١٣٤٣هـ.

وصادق عليها من الشافعية العلامة الكبير المفتي محمد سعيد بابصيل مفتي الشافعية بمكة المكرمة.

وصادق عليها من المالكية العلامة الكبير المفتي محمد عابد بن حسين المالكي والعلامة محمد علي بن حسين المالكي والعلامة الشيخ أحمد بن محمد خير الشنقيطي المالكي.

ومن الشافعية أيضاً العلامة الكبير الشيخ سيد أحمد البرزنجي وصادق علي تصديق البرزنجي واحد وعشرون من كبار علماء المدينة المنورة وغيرها.

وصادق عليها علماء الأزهر منهم شيخ الأزهر العلامة الإمام الأكبر سليم البشري المتوفىٰ ١٣٣٥هـ.

وصادق عليها من الحنابلة الإمام الشيخ مصطفىٰ أحمد الشطي الحنبلي ت ١٣٤٨هـ

كما صادق عليها من علماء الشام العلامة محمود رشيد العطار والعلامة محمد البوش الحموي.

والعلامة محمد سعيد الحموي والعلامة علي بن محمد الدلال الحموي.

Scanned by CamScanner

والعلامة محمد أديب الحوراني والعلامة عبدالقادر اللبابيدي والعلامة محمد سعيد والعلامة محمد سعيد اللطفي الحنفي والعلامة الشيخ فارس بن محمد الشقفة والعلامة مصطفىٰ الحداد.

فها أنت ترىٰ من خلال هذه النقول عن الحنفية التي هي قطرة من بحر أنهم يجيزون التوسل بالنبي ﷺ وإخوانه من الأنبياء وبالصديقين والشهداء والصالحين.

ومنه تعلم أن قول الألوسي رحمه الله في روح المعاني أن بعضهم نقل عن الإمام أبي حنيفة ﷺ أنه منع التوسل أنه نقل غير صحيح إذ لم ينقله عنه أحد من أهل مذهبه وهم أدرىٰ به بل كتبهم طافحة ونصوصهم ظاهرة وأفعالهم في التصانيف بينة تنادي باستحبابهم للتوسل اعتقاداً وقولاً وعملاً فنقل المخالف غير معتبر خاصة مع مخالفته لتصريحهم باستحباب التوسل فإياك والاغترار بمثل هذه النقول الغير موثقة.

فإن قلت: نقرأ في كتب الحنفية المعتبرة في باب الكراهية والاستحسان أو الحظر والاباحة أنه يكره للرجل أن يقول في دعاءه: «اللهم إني أسألك بمقعد العز من عرشك» ويكره أيضاً أن يقول الرجل في دعاءه: «اللهم إني أسألك بحق أنبيائك ورسلك».

ألا يدل هذا علىٰ منعهم التوسل خاصة والكراهة تحريمية بل صرح بعضهم بالتحريم.

أقول: سأوضح لك هذا الأمر توضيحاً جلياً.

Scanned by CamScanner

اعلم أولاً: أن أئمتنا الحنفية قرروا جواز التوسل إلى الله عز وجل بأنبيائه ورسله كما سبق نقل ما يدل عليه تصريحاً وأزيدك هنا قول العلامة محمد الحامد الحنفي رحمه الله يجوز التوسل إلى الله برسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وعلى آلهم وبأوليائه رضوان الله تعالى عليهم فإنه جائز وسائغ عند أهل الحق بل إنه مستحب إذ هو من أسباب إجابة الدعاء وليس فيه أدنى شبه بشرك لأن الله تعالى هو المدعو وحده لا شريك له في الخلق والتأثير، والاستشفاع غير الدعاء فلا من ضرر يلحق الداعي ولا من لوث يمس عقيدة التوحيد فيه وإن الناس في الآخرة يستشفعون إلى الله تعالى برسله عليهم الصلاة والسلام ليأذن في فصل القضاء ويعتذرون واحداً بعد واحد حتى يرسو الأمر عند سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام فيقول أنا لها ويشفع يسأل الله الإذن في فصل القضاء للخلاص من حر الموقف وشدته إما إلى الجنة وإما إلى النار وهذه هي الشفاعة العظمى له عليه وآله الصلاة والسلام وهي المقام المحمود المذكور في القرآن الكريم وله غيرها شفاعات عديدة كثيرة ا.هـ.

وقال العلامة الشرنبلالي الحنفي وأما التوسل بالأنبياء والأولياء فجائز إذ لا يشك في مسلم أنه يعتقد في سيدي أحمد أو غيره من الأولياء أن له إيجاد شيء من قضاء مصلحة أو غيرها إلا بإرادة الله تعالى وقدرته والمسلم متى أمكن حمل كلامه على معنى صحيح سالم من التكفير وجب المصير إليه ا.هـ.

قال العلامة العارف بالله سيدي عبدالمغني النابلسي بعد نقل فتوى الشرنبلالي الحنفي السابقة وغيرها عن علماء الشافعية في جواز التوسل ما نصه: إذا علمت ذلك علمت أن التوسل بالأنبياء والأولياء جائز وارد عن السلف والخلف سواء كانوا أحياء أم أمواتاً ولا ينكر ذلك إلا من ابتلي بالحرمان أو سوء العقيدة نعوذ بالله منه ومن سيرته فجميع ما قاله مردود عليه ووجب أن لا يعول عليه ا.هـ كلام النابلسي الحنفي رحمه الله

Scanned by CamScanner

إذا علمت هذا وتقرر لديك فهاك الكلام عن العبارتين المتقدم ذكرهما:

١- كراهية أن يقول الرجل في الدعاء: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك.

نص الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله توفي ١٨٩هـ على هذه المسألة في الجامع الصغير بقوله ويكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك قال العلامة عمر بن عبدالعزيز بن مازه البخاري الحنفي المتوفى ٥٣٦هـ في شرحه على الجامع الصغير ص٥٥٨ ما نصه لأنه وصف الله تعالى بما هو باطل وهو تعلق عزه بالعرش وعن أبي يوسف رحمه الله أنه لم ير به بأساً لأن العادة جرت به.

وفي المحيط البرهاني للإمام برهان الدين أبي المعالي محمود بن صدر الشريعة بن مازه البخاري المتوفى ٦١٦هـ ج٧ ص٥١١ مسألة رقم ٩٤٤٤ روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال: يكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك يروى هذا اللفظ بروايتين بمعقد العز من عرشك من العقد وبمقعد العز من عرشك من القعود فبالرواية الثانية لا شك في الكراهة لأنه وصف الله تعالى بما لا يليق به وهو القعود والتمكن في العرش وهو قول المجسمة وأما باللفظ الأول فلأنه يوهم تعلق عزه بالعرش وأن عزه حادث إذا تعلق بالحادث والله تعالى متعال عن صفة الحوادث.

وعن أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه لا يكره قال الفقيه أبو الليث: وبه نأخذ فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول (اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك واسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامة) ا.هـ بحروفه.

Scanned by CamScanner

قال في الهداية مع شرحها البناية للعلامة العيني المتوفى ٨٥٥هـ ج١٢ ص٢٤٦:٢٤٧.

قال: ويكره أن يقول الرجل في دعائه (أسألك بمعقد العز من عرشك) أي قال في الجامع الصغير قوله: معقد العز أي موضع عقده وللمسألة عبارتان أي للمسألة المذكورة لفظان هذه أي إحدى العبارتين هذه وهي قوله: أسألك بمعقد العز من عرشك بتقديم العين والعبارة الثانية هي قوله أسألك بمقعد العز من عرشك بتقديم القاف على العين من القعود ولا ريب في كراهية الثانية لأنه من القعود أي لاشك في كراهية العبارة الثانية وهي قوله: أسألك بمقعد العز من عرشك لأنه من القعود وهو التمكن على العرش وذلك قول المجسمة وهو باطل وكذا الأولى أي وكذا تكره العبارة الأولى وهي أسألك بمعقد العز من عرشك بتقديم العين على القاف لأنه يوهم تعلق عزه بالعرش وهو محدث أي العرش محدث والله تعالى بجميع صفاته قديم فإذا علق عزه القديم بالعرش الحادث يتوهم أن عزه حادث لتعلقه بالحادث وعن أبي يوسف – رحمه الله أنه لابأس به أي بالقول الأول وهو أسألك بمعقد العز بتقديم العين على القاف وبه أخذ الفقيه أبو الليث رحمه الله أي بما روي عن أبي يوسف رحمه الله أخذ الفقيه أبو الليث رحمه الله نص عليه في شرح الجامع الصغير لأنه مأثور عن النبي ﷺ وذكر الدعاء كما سبق نقله عن المحيط البرهاني وذكر العيني أنه أخرجه البيهقي في الدعوات الكبير وابن الجوزي في الموضوعات ا.هـ.

Scanned by CamScanner

وأطال في إعلاء السنن الكلام على تحقيق حكم ابن الجوزي على الأحاديث بالوضع ج١٧ص٤٩٨:٥٠٠ فتلخص من هذه النقول ما يلي:

١- أن للمسألة عبارتان الأولى أسألك بمقعد العز من عرشك وهذه تحرم في قول أئمتنا الثلاثة جميعاً والعلة في المنع ليس التوسل كما توهموه وإنما هو استحالة معناها على الله عز وجل لأنها تكون حينئذ من القعود تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فالقعود والتمكن في العرش هو قول المجسمة والله عز وجل منزه عن ذلك وهذا يدل على أن مذهب الحنفية هو نفي المكان عن الله عز وجل وأن الله تعالى مستغني عن العرش وأنه تعالى موجود بلا مكان وأظن هذه الأمر قد اتضح لك تماماً وأنه لا علاقة له بالتوسل لا من قريب ولا من بعيد.

٢- المسألة الثانية أو العبارة الثانية اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك بتقديم العين على القاف منع منها أبو حنيفة ومحمد رضي الله عنهما وأجاز ذلك أبو يوسف ﷺ وبه أخذ الفقيه أبو الليث رحمه الله تعالى.

أما وجه المنع فهو أن اللفظ موهم يوهم أن عزه تعالى متعلق بالعرش والعرش حادث وما يتعلق به يكون حادثاً ضرورة والله عز وجل متعال عن تعلق عزه بالحادث بل عزه قديم لأنه صفته وجميع صفاته قديمة قائمة بذاته لم يزل موصوفاً بها في الأزل ولن يزال في الأبد ولم يزدد شيئاً من الكمال لم يكن له في الأزل بحدوث العرش وغيره.

وها أنت ترى من خلال وجه المنع أن لا علاقة له بالتوسل من قريب أو بعيد بل غاية ما فيه تنزيه الحق عز وجل عما لا يليق بجلاله وهذا يدل على دقة الحنفية في المحافظة على العقيدة الصحيحة.

وأجازه أبو يوسف رحمه الله لوروده كما قال بعضهم أو لاحتماله معنى صحيحاً كما قاله البعض الآخر والمعنى الصحيح هو جعل العز

Scanned by CamScanner

صفة للعرش لأن العرش موصوف في القرآن بالمجد والكرم فكذا بالعز ولا يشك أحد أنه موضع الهيبة وإظهار كمال القدرة وإن كان الله عز وجل مستغنياً عنه.

قال في إعلاء السنن ج١٧ ص٥٠٠ ما نصه: وظني أن أبا حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى كرها إطلاقه نظراً إلى المفسدة لما فيه من إيهام تعلق عزه تعالى بالعرش والعرش حادث وما يتعلق به يكون حادثاً ضرورة والله تعالى متعال عن تعلق عزه بالحادث سبحانه بل عزه قديم لأنه صفته وجميع صفاته قديمة قائمة بذاته لم يزل موصوفاً بها في الأزل ولا يزال في الأبد وأجازه أبو يوسف نظراً إلى صحة الكلام بالتأويل لو جعل العز صفة للعرش لأن العرش موصوف في القرآن بالمجد والكرم والعظمة فكذا بالعز ولا يشك أحد أنه موضع الهيبة والجلال ومحط أنوار الرحمة والجمال ومحل إظهار القدرة على الكمال وإن كان الله تعالى مستغنياً عنه وكانت القدرية والمجسمة والزنادقة قد أخرجوا رؤوسهم ورفعوا لواء البدعة في آخر الدولة الأموية وأول الدولة العباسية فرأى أبو حنيفة منع العوام عن مثل هذه الكلمات كيلا يتشبث به أهل الأهواء فيضلوا به السفهاء فلما خمدت فتنتهم في عهد المهدي وكان مولعاً بقتل الزنادقة واستئصالهم أجاز أبو يوسف الدعاء بهذه الكلمات نظراً إلى ورودها في الأثر وصحتها بالتأويل الذي مر ذكره.

ونظيره ما قالوا في أنا مؤمن إن شاء الله فإنهم كرهوا ذلك وإن قصد التبرك دون التعليق لما فيه من الإيهام ولا ريب أن الدعاء بمثل هذه الكلمات ليس بواجب شرعاً بل غاية ما فيه الجواز على تقدير ثبوت الأثر وقد أجمعوا على ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر عنه فهم بعض الناس فيقعوا في أشد منه كما بوب عليه البخاري واحتج له بحديث عائشة قالت: قال النبي ﷺ (يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم بالكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين.....) الحديث ا.هـ.

Scanned by CamScanner

استفدنا من كلامه رحمه الله سبب المنع وسبب الجواز.

وأقول: متى زال الإيهام جاز اتفاقاً وتأمل جيداً قول العلامة المحقق الكبير فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي في كتابه المعتبر عند علماء الحنفية تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ج٦ ص٣١ والدعاء بمعقد العز من عرشك أي يكره أن يقول في دعائه: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك وللمسألة عبارتان بمعقد وبمقعد فالأولى من العقد والثانية من القعود تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ولا شك في كراهية الثانية لاستحالة معناها على الله تعالى وكذا الأولى لأنه يوهم أن عزه متعلق بالعرش والعرش حادث وما يتعلق به يكون حادثاً ضرورة والله متعال عن تعلق عزه بالحادث بل عزه قديم لأنه صفته وجميع صفاته قديمة قائمة بذاته لم يزل موصوفاً بها في الأزل ولن يزال في الأبد ولم يزدد شيئاً من الكمال لم يكن له في الأزل بحدوث العرش وغيره وعن أبي يوسف رحمه الله أنه لا بأس به وبه أخذ الفقيه أبو الليث لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان من دعائه (اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامة) والأحوط الامتناع لكونه خبر واحد فيما يخالف القطعي إذ المتشابه يثبت بالقطعي ولو جعل العز صفة للعرش كان جائزاً لأن العرش موصوف في القرآن بالمجد والكرم فكذا بالعز ولا يشك أحد أنه موضع الهيبة وإظهار كمال القدرة وإن كان الله تعالى مستغنياً عنه ا.هـ. بحروفه.

تأمل قوله لو جعل العز صفة للعرش كان جائزا.

Scanned by CamScanner

المسألة الثانية قولهم: ويكره أيضاً أن يقول الرجل في دعائه: اللهم إني أسألك بحق أنبيائك ورسلك عللوه بأنه لا حق لأحد من المخلوقين على الله تعالى نص عليه في المحيط البرهاني ج٧ص٥١١ ونص عليه ابن عابدين رحمه الله في حاشيته ج٥ ص٢٥٤ ونص على عدم مخالفة أبي يوسف في هذه المسألة كما أفاده الاتقاني.

ونقل عن التتارخانية ما نصه: جاء في الآثار ما دل على الجواز ا.هـ.

قال في إعلاء السنن: أن هذا مبني أيضاً على ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر عنه فهم بعض الناس فيقعوا في أشد منه والفقيه من عرف أهل زمانه فافهم ا.هـ.

أقول: تأمل كلام التتارخانية وفي الآثار مادل على الجواز فهذا صريح في جوازه.

غاية وجه المنع الإيهام ووجهه أن بعض القاصرين قد يفهم أنَّ ثمة حق على الله ولا حق للمخلوق على الخالق فلا علاقة للمنع بالتوسل بل غاية ما فيه تنزيه الحق عما لا يليق بجلاله فإذا زال الإيهام جاز كما صرح بذلك الحنفية أنفسهم قال ملا علي القاري رحمه الله في فتح باب العناية في شرح النقاية ج٤ص٥٠ قيل ويحرم أن يقول في دعائه: بحق فلان نبياً كان أو ولياً أو بحق البيت أو المشعر الحرام لأنه لا حق للخلق على الله لكن قد يقال إنه لا حق لهم وجوباً من أصله لكن الله سبحانه جعل لهم حقاً من فضله أو يراد بالحق الحرمة والعظمة فيكون من باب الوسيلة وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وقد عد من آداب الدعاء التوسل بالأنبياء والأولياء على ما في الحصن الحصين وجاء في رواية (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي إليك فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً.....) الحديث ا.هـ. بحروفه والحديث أخرجه ابن ماجة وأحمد.

Scanned by CamScanner

وفي اليعقوبية يحتمل أن يكون الحق مصدراً لا صفة مشبهة فالمعنى بحقية رسلك فلا منع فليتأمل ا.هـ.

قال ابن عابدين: أي المعنى بكونهم حقاً لا بكونهم مستحقين ا.هـ.

فتبين لك من هذه النقول أن لا علاقة للمنع بالتوسل وأن وجه المنع هو إيهام اللفظ وجود حق على الله لخلقه ولا حق للمخلوق على خالقه فإذا زال الإيهام وعرف المعنى أن الحق حق تفضل لاحق إيجاب إذ لا يجب شيء على الله سبحانه وتعالى جاز هذا اللفظ كما جاءت به النصوص وصرح به فقهاؤنا فإن قلت أن ثمة مانع آخر وهو الإقسام بغير الله تعالى كما ذكر ذلك ابن عابدين رحمه الله.

قلت: إن ابن عابدين نفسه نقل بعد ذلك جواز الإقسام على الله بنبيه محمد ﷺ دون غيره عن العز بن عبدالسلام الشافعي وأن ابن أمير حاج الحنفي نازعه في دعوى الخصوصية وأطال الكلام على ذلك في الفصل الثالث عشر آخر شرحه على المنية.

ونقل كذلك ابن عابدين الحنفي عن السبكي قوله يحسن التوسل بالنبي إلى ربه ولم ينكره أحد من السلف والخلف إلا ابن تيمية فابتدع ما لم يقله عالم قبله وأقره ابن عابدين ولم يتعقبه بشيء.

وفي كتاب طوالع الأنوار على شرح الدر المختار للعلامة السيد محمد عابد السندي وكره قوله أي الداعي في التوسل بحق رسلك وأنبيائك وأوليائك أو بحق البيت الحرام لأنه لا حق للخلق على الخالق قيل هذا إذا كان الحق صفة مشبهة كما هو الظاهر وأما إذا أريد به المصدر أي بحقية رسلك إلخ فلا كراهة حينئذ على أنه قد يقال لا حق لهم وجوباً على الله سبحانه وتعالى لكن الله سبحانه وتعالى جعل لهم حقاً من فضله أو يراد بالحق الحرمة والعظمة فيكون من باب الوسيلة وقد قال تعالى ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وقد عُدّ من آداب الدعاء التوسل إلى الله تعالى بأنبيائه والصالحين من عباده كما ذكره ابن الجزري في الحصن

Scanned by CamScanner

لكن قد يقال إن المنع في كلام الفقهاء ليس للتوسل بل لثبوت حق للمخلوق على الله تعالى وقد يجاب عنه بأنه ثبت في حديث أبي أمامة الباهلي عند الطبراني في الكبير وفي كتاب الدعاء له في أدعية الصباح والمساء (أسألك بنور وجهك الذي أشرقت به السموات والأرض وبكل حق هو لك وبحق السائلين عليك..... الخ) وفي حديث معاذ عند البخاري (حق العباد على الله أن لا يعذبهم إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئا) ا.هـ. باختصار

فتلخص لك أن المنع ليس للتوسل ولكن للإيهام من اللفظ هذا الإيهام هو تصور حق للعبد على خالقه ولا حق للمخلوق على خالقه فإذا فهم المعنى وهو أن الحق حق تفضل لا حق وجوب جاز بلا كراهة بل كان من التوسل المستحب الذي هو من آداب الدعاء وإنما حصل الإيهام من قول بعض الفرق الضالة بوجوب الأصلح على الله تعالى الله عن ذلك وما على الإله شيء يجب فمنع الحنفية من مثل هذه الألفاظ حتى لا يتشبث بها أهل الضلال لترويج ضلالهم فإذا استقامت المعاني على طريقة أهل السنة وزال الوهم عاد الأمر إلى وضعه الطبيعي وهو الجواز والاستحباب ولله در الحنفية ما أدقهم وأحرصهم على صيانة عقائد المسلمين عن شبهات المبطلين جزاهم الله خير الدنيا والآخرة فلا شك لديك بعد هذا الإيضاح أن الحنفية على استحباب التوسل بالنبي ﷺ وآله والصالحين ﷺ أجمعين وكلهم يصلون على رسول الله ويقصدونه بالزيارة ويستشفعون به ويتوسلون به كما هو مصرح به في مناسكهم.

Scanned by CamScanner

وأختم هذا البحث بذكر رأي الألوسي في روح المعاني ومناقشته:

قال العلامة الألوسي في روح المعاني بعد أخذ ورد في قضية التوسل ما نصه: وبعد هذا كله أنا لا أرى بأساً في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي عند الله تعالى حياً وميتاً ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته فيكون معنى قول القائل إلهي أتوسل بجاه نبيك أن تقضي لي حاجتي إلهي اجعل محبتك له وسيلة في قضاء حاجتي ولا فرق بين هذا وقولك إلهي أتوسل برحمتك أن تفعل كذا إذ معناه أيضاً إلهي اجعل رحمتك وسيلة في فعل كذا بل لا أرى بأساً أيضاً بالإقسام على الله تعالى بجاهه بهذا المعنى والكلام في الحرمة كالكلام في الجاه ولا يجري ذلك في التوسل والإقسام بالذات البحث م٣ج٦ ص١٢٨.

فها أنت ترى تسليم الألوسي بالتوسل إلى الله تعالى بجاه النبي وحرمته ومنعه التوسل بالذات ويقال للألوسي من أين جاء الفرق إن كان من نص فبينوه لنا وإن كان من فهم فهو غير مقبول لمخالفته لفهم السلف والخلف الذين قرأوا حديث عثمان بن حنيف وتعليم النبي للضرير أن يقول (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي) وهو صريح في التوسل بذاته وقد تقدم طرف من أدلة التوسل بالذوات وأزيدك هنا أنه إذا صح التوسل إلى الله عز وجل بالأعمال الصالحة كما في حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار كما في الصحيح وأعمالهم مخلوقة بلا شك ولا ريب فالتوسل بالنبي: وبإخوانه من النبيين وكذا الشهداء والصالحين أولى وأحق لأنه عليه الصلاة والسلام أفضل من كل مخلوق كيف لا وقد جمع الله عز وجل فيه الفضائل وإذا كان هؤلاء قد أجازوا التوسل بالأعمال الصالحة مع كونها أعراضاً نقول لهم توسلوا بالذوات الفاضلة لأن الذوات الفاضلة أولى كما توسل الأعمى بتعليم النبي وكما فعل صاحب الحاجة التي كانت له

Scanned by CamScanner

عند عثمان بن عفان ﷺ حيث توسلا بالنبي الأول في حياته والثاني بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى وأيضاً نقول لهم إذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة كما في حديث الغار وهي مخلوقة فما المانع من جوازه بالنبي باعتبار ما قام به من النبوة والرسالة والكمالات التي فاقت كل كمال وعظمت عن كل عمل صالح في الحال والمآل مع ما ثبت من الأدلة على التوسل بالذوات وقد أطبق على ذلك العلماء سلفاً وخلفاً ومثل النبي سائر الأنبياء والمرسلين وكذا الأولياء وأهل الصلاح لما فيهم من الطهارة القدسية ومحبة رب البرية وحيازة أعلى مراتب الطاعة واليقين ﷺ.

قال السمهودي الحنفي في خلاصة الوفا التوسل والتشفع به: وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسيرة السلف الصالحين ا.هـ. والله أعلم.

Scanned by CamScanner

ثانياً: التوسل عند المالكية:

ذكر القاضي عياض بسنده في الشفاء في فصل في أن حرمة النبي بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان في حال حياته قال ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوماً فقال ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ومدح قوماً فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣] وذم قوماً فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً فاستكان لها أبو جعفر وقال يا أبا عبدالله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤].

وقال الحافظ المحدث تقي الدين السبكي في شفاء السقام إن إسنادها جيد فهذه الحكاية عن الإمام مالك صريحة في جواز التوسل بل استحبابه.

ولم يحفظ عن أحد من المالكية قال بمنع التوسل بالنبي أو كراهته بل كلهم متفقون على جوازه واستحبابه.

قال الإمام ابن الحاج المالكي رحمه الله في المدخل في باب صفة زيارة القبور فإن كان الميت المزار ممن ترجى بركته فيتوسل به إلى الله تعالى وكذلك يتوسل الزائر بالنبي: بل يبدأ بالتوسل إلى الله تعالى بالنبي: إذ هو العمدة في التوسل والأصل في هذا كله والمشرع له فيتوسل به: وبمن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وقد روى البخاري عن أنس أن عمر ﷺ كان

Scanned by CamScanner

إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا فيسقون ا.هـ. ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعني بالصالحين منهم في قضاء حوائجه ومغفرة ذنوبه ثم يدعو لنفسه ولوالديه ولمشايخه ولأقاربه ولأهل تلك المقابر ولأموات المسلمين ولأحيائهم وذريتهم إلى يوم الدين ولمن غاب عنه من إخوانه ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر فمن أراد حاجة فليذهب إليهم وليتوسل بهم فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه وقد تقرر في الشرع وعلم ما لله تعالى بهم في الاعتناء وذلك كثير مشهور وما زال الناس من العلماء والأكابر كابراً عن كابر مشرقاً ومغرباً يتبركون بزيارة قبورهم ويجدون بركة ذلك حساً ومعنى.

وقد ذكر الشيخ الإمام أبو عبدالله النعمان رحمه الله في كتابه المسمى بسفينة النجاء لأهل الالتجاء في كرامات الشيخ أبي النجاء في أثناء كلامه على ذلك ما هذا لفظه تحقق لذوي البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبة لأجل التبرك مع الاعتبار فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت في حياتهم والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين ا.هـ. كلام ابن الحاج بحروفه وفي هذا كفاية.

Scanned by CamScanner

ثالثاً: التوسل عند الشافعية:

سبق نقل توسل الشافعي ﷺ بأبي حنيفة ﷺ وقال الإمام الشافعي ﷺ:

آل النبي وسيلتي وهم إليه ذريعتي
أرجو بهم أعطىٰ غدا بيدي اليمين صحيفتي

نقله ابن حجر الهيتمي في الصواعق المرسلة.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني يمدح النبي ويتوسل به:

بباب جودك عبد مذنب كلف يا أحسن الناس وجهاً مشرقاً
بكم توسل يرجو العفو عن زلل من خوفه جفنه الهامي لقد ذرفا
وإن يكن نسبة يعزىٰ إلىٰ حجر فطالما فاض عذباً طيباً وصفا
والمدح فيك قصور عنكم وعسىٰ في الخلد يبدل من أبياته غرفا
لازال فيك مديحي ما حييت له فما أرىٰ لمديحي عنك منصرفا

وقال أيضاً:

اصدح بمدح المصطفىٰ واصدع به قلب الحسود ولا تخف تفنيدا
واقصد له واسأل به تعط المنىٰ وتعيش مهما عشت فيه سعيدا
خير الأنام فمن أوىٰ لجنابه لابدع أن أضحىٰ به مسعودا

Scanned by CamScanner

وقال ابن دقيق العيد:

يا خاتم الرسل الكرام نداء من وافى إليك بمدحه مستعذرا

أنا ضيفك المدعو يوم معادنا المرتجي فاجعل قراي الكوثرا

قال الإمام النووي رحمه الله المتوفى ٦٧٦هـ في إيضاح المناسك وهو يتكلم عن زيارته ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله: ويتوسل به في حق نفسه ويتشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى ومن أحسن ما يقول ما حكاه أصحابنا عن العتبي مستحسنين له قال كنت جالساً عند قبر النبي فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤] وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته على الصراط إذا ما زلت القدم

وصاحباك فلا أنساهما أبداً مني السلام عليكم ما جرى

قال: ثم انصرف فغلبتني عيناي فرأيت رسول الله في النوم فقال يا عتبي الحق الأعرابي وبشره بأن الله تعالى قد غفر له) وذكر النووي نحو ذلك في المجموع شرح المهذب وفي الأذكار.

وللسبكي كتاب شفاء السقام في زيارة خير الأنام.

ولابن حجر الهيتمي الجوهر المنظم في زيارة القبر المعظم.

Scanned by CamScanner

قال العلامة الشهاب الرملي الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والأولياء والعلماء والصالحين جائزة وللرسل والأنبياء والأولياء إغاثة بعد موتهم أما الأنبياء فإنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم والشهداء أيضاً أحياء شوهدوا نهاراً جهاراً يقاتلون الكفار وأما الأولياء فهي كرامة لهم انتهى كلام الرملي رحمه الله.

قال الشيخ محمد الخليلي الشافعي: قد نص أئمتنا يعني الشافعية على أنه يجوز التوسل بأهل الخير والصلاح.

وقال العلامة أبو العز أحمد بن العجمي الشافعي الوفائي الأزهري وقول يا سيدي أحمد أو يا شيخ فلان ليس من الإشراك لأن القصد التوسل والاستغاثة قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥].

وقال أبو بكر الحصني الشافعي: ونتوسل إليك بسيد الأولين والآخرين محمد كما توسل به أبو البشر فقبلته فهو أحمد المحمود صاحب الحوض المورود والمقام المحمود فهو أعظم الوسائل ولا يخيب من توسل به.... الخ من دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى مذهب الإمام الجليل أحمد.

قال الإمام الغزالي في الإحياء في كتاب آداب الحج: ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته ا.هـ. ونص على التوسل زكريا الأنصاري في كتبه والخطيب الشربيني في كتبه.

ونصوص الشافعية رحمهم الله كثيرة وكتبهم طافحة بجواز التوسل وفي هذا القدر كفاية.

Scanned by CamScanner

رابعاً: التوسل عند الحنابلة:

نقل ابن تيمية عن أحمد بن حنبل في منسك المروذي التوسل بالنبي ﷺ في الدعاء وانظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة وقال في رده على الأخنائي نقل عن أحمد في منسك المروذي وسل الله حاجتك متوسلاً إليه بنبيه: تقض من الله عز وجل.

كان إمام السنة أحمد بن حنبل قد وقعت له ثلاث شعرات من شعر النبي ﷺ فأوصى أن توضع اثنتان على عينيه وواحدة على لسانه ذكر ذلك مسنداً الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام.

قال الإمام الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء ما نصه:

«قال أبو بكر الأثرم: قلت لأبي عبدالله احمد بن حنبل قبر النبي ﷺ يمس ويتمسح به؟ فقال: ما أعرف هذا؟ قلت له فالمنبر؟ فقال: أما المنبر فنعم فقد جاء فيه قال أبو عبدالله شيء يروونه عن ابن أبي فديك عن أبي ذئب عن ابن عمر أنه مسح على المنبر قال ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة قلت يعني الأثرم ويروون عن يحيى بن سعيد الأنصاري أنه حيث أراد الخروج إلى العراق جاء المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنه ثم قال لعله عند الضرورة لا شيء فيه قيل لأبي عبدالله أنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر وقلت له رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه ويقومون ناحية منه فيسلمون فقال أبو عبدالله نعم هكذا كان ابن عمر يفعل ثم قال أبو عبدالله بأبي هو وأمي ﷺ وجاء في مسائل الإمام أحمد لابنه عبدالله قال سألت أبي عن الرجل يمس قبر النبي ﷺ يتبرك بمسه وتقبيله ويفعل بالمنبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى فقال لا بأس به.

Scanned by CamScanner

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي فيضعها على فيه يقبلها وأحسب أني رأيته يضعها على عينه ويغمسها في الماء ويشربه ويستشفي به ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها ورأيته يشرب من ماء زمزم ويستشفي به ومسح به يديه ووجهه.

قلت القائل الذهبي: أين المتنطع المنكر على أحمد وقد ثبت أن عبدالله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبي ﷺ ويمس الحجرة النبوية فقال لا أرى بذلك بأساً ا.هـ.

أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج وأهل البدع ا.هـ كلام الحافظ الذهبي في السير ج١١ ص٢١٢.

وفي كتاب العلل والسؤالات لعبدالله بن أحمد بن حنبل سألت أبي عن الرجل يمس منبر النبي ﷺ يتبرك بمسه ويقبله ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى قال لا بأس به وفي الرد المحكم المتين قال الحافظ العراقي أخبرني الحافظ أبو سعيد العلائي قال رأيت في كلام ولد أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبي وتقبيل غيره فقال لا بأس بذلك فأريناه ابن تيمية فصار يتعجب من ذلك ويقول عندي أحمد جليل يقول هذا؟! قال وأي عجب في ذلك ا.هـ.

قال الإمام الرباني سيدي عبدالقادر الجيلاني الحنبلي توفي ٥٦١ه في كتابه الغنية بعد الكلام على الحج والعمرة وهو يتكلم عن زيارة النبي ﷺ إنك قلت في كتابك لنبيك ﷺ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤] وإني أتيت نبيك تائباً من ذنوبي مستغفراً فأسألك أن توجب أي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه حال حياته فأقر عنده بذنوبه فدعا له نبيه فغفرت له اللهم إني أتوجه إليك بنبيك عليه سلامك نبي

Scanned by CamScanner

الرحمة يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي اللهم إني أسألك بحقه أن تغفر لي وترحمني ..... إلخ قال قاضي القضاة أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي ت ٥١٣هـ في التذكرة مخطوط بظاهرية دمشق رقم ٨٧ فقه حنبلي «فصل ويستحب له قدوم مدينة الرسول صلوات الله عليه فيأتي مسجده فيقول عند دخوله باسم الله اللهم صل على محمد وآل محمد وافتح لي أبواب رحمتك وكف عني أبواب عذابك الحمد لله الذي بلغ بنا هذا المشهد وجعلنا لذلك أهلاً الحمد لله رب العالمين ثم تأتي حائط القبر فلا تمسه ولا تلصق به صدرك لأن ذلك عادة اليهود واجعل القبر تلقاء وجهك وقم مما يلي المنبر وقل السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته اللهم صل على محمد وعلى آل محمد..... إلى آخر ما تقوله في التشهد الأخير ثم تقول: اللهم اعط محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذي وعدته اللهم صل على روحه في الأرواح وجسده في الأجساد كما بلغ رسالاتك وتلا آياتك وصدع بأمرك حتى آتاه اليقين اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك ﷺ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤] وإني قد أتيت نبيك تائباً مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته اللهم إني أتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي اللهم إني أسألك بحقه أن تغفر لي ذنوبي اللهم اجعل محمداً أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين اللهم كما آمنا به ولم نره وصدقناه ولم نلقه فأدخلنا مدخله واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشرباً صافياً رويا سائغاً هنياً لا نظمأ بعده أبداً غير خزايا ولا ناكثين ولا مارقين ولا مغضوباً علينا ولا ضالين واجعلنا من أهل شفاعته ثم تقدم عن يمينك فقل السلام عليك يا أبا بكر الصديق السلام عليك يا عمر الفاروق اللهم اجزهما عن نبيهما وعن الإسلام خيرا اللهم

Scanned by CamScanner

اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) وتصلي بين القبر والمنبر في الروضة وإن أحببت تمسح بالمنبر وبالحنانة وهو الجذع الذي كان يخطب عليه: فلما اعتزل عنه حن إليه كحنين الناقة وتأتي مسجد قباء فتصلي لأن النبي ﷺ كان يقصده فيصلي فيه وإن أمكنك فأت قبور الشهداء وزرهم وأكثر من الدعاء في تلك المشاهد حتى كأنك تنظر إلى مواقفهم واصنع عند الخروج ما صنعت عند الدخول».

قال أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الحسين السامري نصير الدين ت ٦١٦هـ في كتاب المستوعب في باب زيارة قبر النبي ﷺ «وإذا قدم مدينة رسول الله ﷺ استحب له أن يغتسل لدخوله ثم يأتي مسجد رسول الله ﷺ ويقدم رجله اليمنى في الدخول ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ثم ذكر كيفية السلام والدعاء وأطال ومنه «اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ الآية وإني قد أتيتك مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حال حياته اللهم إني أتوجه إليك بنبيك...«وذكر دعاء طويلاً ثم قال وإذا أراد الخروج عاد إلى القبر فودع».

وهذا أبو عبدالله من أئمة الحنابلة ساق هذا الكلام سياق المتفق عليه ومن جملة ما أفاد: أنه يتوسل بالنبي ﷺ ويتوجه به بعد وفاته كما في حياته وأن الآية عامة وشاملة للحياة وبعد الوفاة.

قال الإمام موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة ت ٦٢٠هـ في كتاب المغني وهو أجل كتب الفقه الحنبلي على الإطلاق في باب صفة زيارته ﷺ تأتي القبر فتولي ظهرك القبلة وتستقبل وسطه وتقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه إلى أن قال اللهم أجز عنا نبينا أفضل ما جازيت به أحداً من النبيين والمرسلين وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون

Scanned by CamScanner

إلى أن قال اللهم إنك قلت وقولك الحق ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربي ا.هـ.

والاستشفاع أحد صور التوسل كما مر وقد بين لنا الإمام أن الزائر يستغفر والرسول: يستغفر وهو في البرزخ أيضا بنص الآية الكريمة التي استدل بها.

وموفق الدين ابن قدامة هذا هو من قال فيه الشيخ ابن تيمية «إنه لم يدخل الشام بعد الأوزاعي أفضل منه» ا.هـ.

قال قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مفلح الراميني تلميذ ابن تيمية ت٧٦٣هـ في كتاب الفروع في الفقه ١/ ٥٩٥ «ويجوز التوسل بصالح وقيل: يستحب قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي: «إنه يتوسل بالنبي في دعائه «وجزم به في المستوعب وغيره» ا.هـ.

وابن مفلح هذا قال عنه ابن شطي في مختصر طبقات الحنابلة «قال ابن القيم ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح حضر عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية ونقل عنه كثيراً وكان يقول له ما أنت ابن مفلح بل أنت مفلح وكان أخبر الناس بمسائله واختياراته حتى كان ابن القيم يراجعه بذلك وله على المقنع نحو ثلاثين مجلداً وعلى المنتقى مجلدان وله كتاب الفروع في الفقه وهو من أجل الكتب وأنفعها وأجمعها للفوائد لكنه لم يبيضه....» ا.هـ.

Scanned by CamScanner

قال الشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي المصري ت ١٠٥١هـ في كتابه كشاف القناع عن متن الاقناع في كتاب الحج:

فصل: وإذا فرغ من الحج استحب له زيارة النبي ﷺ وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لحديث الدار قطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ (من خرج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي) وفي رواية (من زار قبري وجبت له شفاعتي) رواه باللفظ الأول سعيد».

تنبيه قال ابن نصر الله: لازم استحباب زيارة قبره ﷺ استحباب شد الرحال إليها لأن زيارته للحاج بعد حجه لا تمكن بدون شد الرحل فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحل لزيارته ﷺ إلى أن قال «ثم يأتي القبر الشريف فيقف قبالة وجهه ﷺ مستدبر القبلة ويستقبل جدار الحجرة والمسمار الفضة في الرخامة الحمراء فيسلم عليه فيقول السلام عليك يا رسول الله كان ابن عمر رضي الله عنه لا يزيد على ذلك وإن زاد فحسن ولا يرفع صوته ثم يستقبل القبلة والحجرة عليهما بخلاف حج الفرض فيمحض النية له فإذا دخل مسجدها أي مسجد المدينة سن له أن يقول عند دخوله ما يقول في دخول غيره من المساجد وتقدم في صفة الصلاة ثم يصلي تحية المسجد لعموم الأوامر ثم يأتي القبر الشريف فيقف قبالة وجهه ﷺ مستدبر القبلة ويستقبل جدار الحجرة ويستقبل المسمار الفضة في الرخام الحمراء ويسمى الآن بالكوكب الدري فيسلم عليه ﷺ فيقول: السلام عليك يا رسول الله كان عبدالله ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه وعن سائر الصحابة لا يزيد على ذلك وإن زاد عليه فحسن قال في الشرح وشرح المنتهى ويقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه وعباده أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أشهد أنك بلغت

Scanned by CamScanner

رسالات ربك ونصحت لأمتك ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين صلى الله عليك كثيراً كما يحب ربنا ويرضى اللهم اجز عنا نبينا أفضل ما جزيت أحداً من النبيين والمرسلين وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم إنك قلت وقولك الحق ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤] وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربك فأسألك يا رب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته اللهم اجعله أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين برحمتك يا أرحم الراحمين ثم يدعو لوالديه ولإخوانه وللمسلمين أجمعين.

فائدة: يروى عن العتبي قال كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

Scanned by CamScanner

ثم انصرف الأعرابي فحملتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله تعالى قد غفر له.

ولا يرفع صوته لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] وحرمته ميتاً كحرمته حياً ثم يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره قريباً لئلا يستدبر قبره[1] ﷺ ويدعو بما أحب..... إلخ كلامه.

والشيخ منصور البهوتي هذا ذكره الغزي فقال: هو الشيخ الإمام شيخ الإسلام كان إماماً هماماً علامة في سائر العلوم فقيهاً متبحراً أصولياً مفسراً جبلاً من جبال العلم وطوداً من أطواد الحكمة وبحراً من بحور الفضائل له اليد الطولى في الفقه والفرائض وغيرهما ا.هـ. النعت الأكمل ٢١٠- ٢١٣ وفي هذا القدرية كفاية.

---

(١) انظر حسن الأدب عند هذا العالم الجليل في تحذيره للزائر من أن يستدبر القبر بخلاف بعض المعاصرين في زماننا الذين يأمرون الناس بتعمد استدبار القبر نعوذ بالله من سوء الأدب مع رسول الله ﷺ.

Scanned by CamScanner

التوسل عند المفسرين:

ذكر المفسرون التوسل برسول الله في مواطن متعددة وبالرجوع إلى مبحث التوسل في القرآن من هذا الكتاب تستطيع الوقوف على نصوصهم وأنا أرشدك الآن على عجل على من ذكر التوسل من المفسرين مقراً له:

١- إمام المفسرين ابن جرير الطبري في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

٢- وفي نفس الموطن الزمخشري في الكشاف.

٣- والنيسابوري في الوسيط.

٤- الخازن.

٥- البغوي.

٦- النسفي.

٧- ابن القيم في بدائع الفوائد.

٨- وابن عطية في المحرر الوجيز.

٩- وابن عجيبة في البحر المديد.

١٠- والخطيب الشربيني في السراج المنير.

١١- والإمام الفقيه أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الحنفي ت ٣٧٥هـ في تفسيره المسمى بحر العلوم.

١٢- الإمام الماتريدي المتوفى ٣٣٣هـ في تفسيره المعتبر تأويلات أهل السنة.

١٣- العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد السيواسي الحنفي ت ٨٦٠ هـ في عيون التفاسير.

١٤- تفسير أبي السعود الحنفي.

١٥- تفسير ابن جزي المسمى بالتسهيل.

Scanned by CamScanner

١٦- تفسير ابن الجوزي زاد المسير توسل فيه بقوله بحق محمد.
١٧- الرازي في تفسيره.
١٨- مجاهد في تفسيره.
١٩- السيوطي في الدر المنثور.
٢٠- البيضاوي في تفسيره.
٢١- ذكر الحافظ ابن كثير قصة العتبي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤].
٢٢- ذكر الإمام القرطبي في تفسيره قصة الإمام علي قال قدم علينا المدينة أعرابي بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وحثا على رأسه من ترابه فقال قلت يا رسول الله فسمعنا قولك ووعيت عن الله فوعينا عنك وكان فيما أنزل الله عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ .....﴾ الآية وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر إنه قد غفر لك وليس المقصود هو الاستقصاء لكل التفاسير إنما هذا نموذج بسيط ولو شئت نقل عباراتهم وتتبع بقية التفاسير لطال الأمر جدا.

Scanned by CamScanner

التوسل عند المحدثين:

سبق ذكر تخريج الأحاديث الواردة في السنة الدالة على التوسل وكل من أخرجها قائل بها عامل بما فيها وأذكر الآن بعض أسماء من يجيز التوسل من المحدثين لأن حصرهم صعب لكثرتهم:

الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني كلهم أخرجوا حديث عثمان بن حنيف وفيه تعليم النبي للرجل الأعمى أن يدعو بصيغة التوسل الصريحة وابن أبي خيثمة، وزاد وإذا كانت لك حاجة مثل ذلك فافعل وأخرجه البخاري في تاريخه وابن ماجه في الصلاة والحاكم في المستدرك وصححه وأقره الذهبي ونقله القاضي عياض في الشفاء وابن الجزري في الحصن الحصين والخطيب التبريزي في المشكاة والقسطلاني في المواهب والزرقاني في شرحه والسمهودي في خلاصة الوفا والنووي في الأذكار والسيوطي في الجامع الكبير والصغير وأيده الخفاجي وملا القاري في شرحهما على الشفاء والشوكاني في شرح الحصن الحصين وأخرج الدارمي حديث عائشة في فتح الكوة وترجم الحافظ ابن الجوزي على هذا الأثر الباب التاسع والثلاثون في الاستسقاء بقبره ﷺ وأخرج ابن أبي شيبة حديث مالك الدار ونقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري وصححه.

وفي كتاب الأذكار للإمام النووي أن النبي ﷺ أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر ثلاثاً (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ومحمد ﷺ أجرني من النار) قلت وقد رواه الحاكم وابن السني قال العلامة ابن علان في شرح الأذكار إنما خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم في قبول الدعاء وإلا فهو سبحانه رب جميع المخلوقات فأفهم ذلك أن التوسل بالملائكة مشروع أيضاً.

Scanned by CamScanner

وثبت توسل الإمام أحمد بالشافعي رضي الله عنهما حتى تعجب ابنه عبدالله بن الإمام أحمد فقال له الإمام أحمد إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن.

وقد صحح حديث (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك) العراقي والبوصيري وابن خزيمة والدمياطي والمنذري وشيخه أبو الحسن وعبدالغني المقدسي وابن أبي حاتم والحديث أخرجه أحمد وأبو نعيم وابن السني.

وممن قال بالتوسل الإمام المحدث تقي الدين السبكي في شفاء السقام والحافظ ابن عساكر.

والحافظ العجلوني قال في كشف الخفا ومما يناسب إيراده هنا ما نسب لبعضهم وساق أبياتاً وفيها:

يا رب فارحمني بجاه المصطفى كنز الوجود وذي الهبات الباهرة
وبخير خلقك لم أزل متوسلاً ذي المعجزات وذي العلوم الفاخرة

والحافظ القضاعي توسل بقوله: توسلوا به إلى الله كما في التكملة لكتاب الصله.

والمحدث الكلابادي توسل بقوله وعلى نبيه أصلي وبه أتوسل كما في التعرف لمذهب أهل التصوف والمحدث اللكنوي توسل بقوله متوسلاً بنبيه كما في الرفع والتكميل في الجرح والتعديل والحافظ عبدالحق الإشبيلي في كتابه العاقبة في علم التذكير فيندب لولي الميت أن يقصد به قبور الصالحين ومدافن أهل الخير فيدفنه معهم وينزله بإزائهم ويسكنه في جوارهم تبركاً وتوسلاً بهم نقله المحدث المناوي في فيض القدير.

Scanned by CamScanner

والإمام الحافظ الزبيدي صاحب التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح توسل فيه بقوله بجاه سيدنا محمد وآله.

والحافظ ابن ماكولا قال: على قبر أحد الصالحين يتبرك به قد زرته كما في الإكمال.

والحافظ ابن نقطة ذكر أحد الصالحين وقال: قبره بالقرافة يتبرك به كما في التقييد.

والحافظ الذهبي ذكر أحد الصالحين وقال: كان ورعاً تقياً محتشماً يتبرك بقبره ج١٨ سير أعلام النبلاء والحافظ أبو الطيب المكي الفاسي توسل بقوله بمحمد سيد المرسلين كما في ذيل التقييد والحافظ أبو المحاسن بن حمزة الحسيني الدمشقي توسل بقوله بجاه المصطفى كما في ذيل تذكرة الحفاظ والحافظ أبو زرعة الرازي كان يقول لعلي الرضا حدثنا بحق آبائك والحافظ أبو عبدالله الصفار الإسفرايني أخذ عنه الحاكم توسل كثير من الصالحين.

والحافظ ابن أبي الدنيا توسل بقوله: بحق النبي في كتابه قرى الضيف والحافظ ابن الجزري نص على استحباب التوسل في آداب الدعاء من الحصن الحصين.

والحافظ ابن عساكر كتب في أربعينياته يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي.

والحافظ ابن كثير نقل التوسل في البداية والنهاية وأقره انظر ج١٣ ص١٩٢ على سبيل المثال.

والحافظ السخاوي توسل في شرح الألفية بقوله: وسيلتنا وسندنا.

والحافظ السلفي له توسل في معجم السفر.

والحافظ المنذري له كتاب في من توسل من العميان.

Scanned by CamScanner

التوسل عند المؤرخين:

١- الإمام ابن خلدون صاحب التاريخ المشهور قال في شعره فبفضل جاهك.

٢- المؤرخ العلامة أبو العباس الناصري صاحب كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصىٰ توسل بقوله: بجاه جده الرسول.

٣- الإمام العلامة الواقدي إمام السير قال في فتوح الشام: فأدع الله وأتوسل إليه بمحمد.

٤- الإمام المؤرخ الجبرتي صاحب عجائب الآثار توسل بقوله: ويتوسل إليه في ذلك بمحمد ﷺ.

٥- العلامة المؤرخ البريهي صاحب طبقات صلحاء اليمن توسل بقوله: بمحمد وآله آمين.

٦- نظام الملك الطوسي توسل بقوله: بحق محمد وآله انظر كتابه سيات نامه.

٧- العلامة ناصر خسرو توسل بقوله: بحق محمد وآله الطاهرين انظر سفر نامة.

٨- العلامة ابن جبير توسل بقوله: بحرمة الكريم وبلده الكريم انظر رحلة ابن جبير.

٩- العلامة المؤرخ البصروي صاحب تاريخ البصروي توسل بقوله: بمحمد وصحبه.

١٠ – ابن العديم توسل بقوله: ببركة سيد المرسلين وأهل بيته بغية الطلب في تاريخ حلب.

١١- العلامة العيدروس صاحب النور السافر توسل بقوله: إني أتوسل بالمصطفىٰ ﷺ.

١٢- العلامة المؤرخ ابن ثغربردي توسل بقوله: بمحمد وآله انظر النجوم الزاهرة.

Scanned by CamScanner

١٣- ياقوت الحموي توسل بقوله: وبحق محمد وآله انظر معجم البلدان.
١٤- طاش كبرىٰ زاده توسل بقوله: بحرمة نبيك كما في الشقائق النعمانية.
١٥- الحافظ ابن الأثير صاحب الكامل توسل بقوله: بمحمد وآله.
١٦- الإمام المؤرخ ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان توسل بقوله: بمحمد النبي وصحبه وذويه.
١٧- الإمام العلامة إبراهيم اللقاني صاحب جوهرة التوحيد قال: ليس للشدائد مثل التوسل به ﷺ نقله عنه المحبي في خلاصة الأثر.
١٨- الإمام المؤرخ ابن العماد الحنبلي نقل جملاً كثيرة في التوسل في شذرات الذهب.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

متفرقات

قال العلامة الشوكاني في تحفة الذاكرين بعد ذكر حديث عثمان بن حنيف: وفي الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله عز وجل.

وقال فيه أيضاً: يتوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين ومن التوسل بالأنبياء ما أخرجه الترمذي وغيره من حديث عثمان بن حنيف فذكر الحديث.

وقال الشوكاني أيضاً في رسالته الدر النضيد: أن التوسل به ﷺ يكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ومغيبته أنه قد ثبت التوسل به ﷺ في حياته وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة انتهى كلامه.

ونقله ابن المباركفوري في شرح الترمذي.

وأثبت الشوكاني أيضاً التوسل بذوي الصلاح في كتابه نيل الأوطار حيث ترجم باب الاستسقاء بذوي الصلاح فانظره إن شئت.

نصوص وفتاوى العلماء في جواز التوسل:

١- جواب العلامة عبدالكريم محمد المدرس (العراق): وفيه بعد الحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله وبعد فإن التوسل بذوات الأنبياء والرسل العظام عليهم الصلاة والسلام في الحياة والممات جائز ومشروع..... إلخ الجواب.

٢- وقد أيد الجواب السابق العلامة محمد نمر خطيب (العراق).

٣- وقد أيد الجواب السابق العلامة نوري سياب إمام الحضرة القادرية.

٤- والعلامة رشيد حسن.

٥- العلامة محمد علي (حمأة سوريه).

٦- العلامة عبدالباقي محمد نجيب القادري البغدادي.

٧- العلامة الكبير أحمد حسن ألطه مدرس بكلية الشريعة بغداد.

٨- عبدالحميد طهماز (حمأة سورية).

٩- العلامة الكبير صالح النعمان أمين فتوى حمأة.

١٠- العلامة الكبير أبو سليمان سهيل الزبيبي إمام جامع النجارين بدمشق.

١١- العلامة الكبير مفتي لبنان الشيخ حسن خالد ومن جوابه: أنه جرت الأمة طبقة فطبقة على التوسل بالأنبياء والصالحين أحياء وأمواتا.

١٢- ومن جوابه أيضاً: وقد أجاز التوسل في عصرنا هذا مفتي الدنيا شيخنا العلامة أبو اليسر عابدين رحمه الله.

١٣- ومن جوابه كذلك ممن أجاز التوسل شيخنا المحدث عبدالله الهرري الحبشي الشيبي العبدري نسبة لعبدالدار.

١٤- ومن جوابه وكذا شيخنا صالح فرفور العلامة تلميذ الشيخ المحدث الأكبر بدر الدين الحسني قدس الله سره وعلى ذلك عمل أهل الشام وكفى بهم حجة ا.هـ.

Scanned by CamScanner

١٥- العلامة الحاج أحمد شيخو رئيس المجلس المركزي لاتحاد المبلغين بجاكرتا ومن جوابه: اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين... إلخ جوابه.

١٦- العلامة المفتي محمد عبدالقيوم القادري الهزاروي الباكستاني.

١٧- العلامة المفتي محمد عبدالحكيم شرف القادري.

ومن جوابه: أما بعد فالاعتقاد بالتوسل بالأنبياء والمرسلين بل الصالحين حق ثابت بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة ومن قال أنه شرك فهو جاهل أو ضال ومضل لأن التوسل مطلوب وحسن شرعاً بل هو مأمور به من الله فكيف يكون شركاً والشرك قبيح لذاته والأمر من الله يقتضي حسن المأمور به فما هو حسن يستحيل أن يكون قبيحاً لذاته.....إلخ جوابه.

١٨- كتب شيخنا العلامة السيد محمد علوي المالكي رحمه الله كتابه القيم مفاهيم يجب أن تصحح وذكر فيه أدلة جواز التوسل وقد قرضه وصادق عليه جمع كبير من علماء العصر.

١٩- أدركنا مشايخنا الأجلة العظام في تهامة اليمن من فقهاء ومحدثين ﷺ على جواز التوسل وفي ذكر الأسماء ونقل النصوص والفتاوى طول والمقصود الإشارة وفي هذا القدر كفاية.

واعلم أن الله عز وجل هو الودود للمقبلين عليه القائمين بأمره لاود يشبه وده ولا يدانيه وإن من وده إنزال الغوث والرحمة على من يذكر أحباءه ويناديهم ويستغيث بهم ولو كانوا غائبين أو متوفين وقد أشير في الكتاب العزيز إلى ما هو أبلغ من ذلك في قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] قيل كان جداً سابعاً فتبارك هذا الرب ما

Scanned by CamScanner

أعظم وده حفظ الغلامين بمجرد نسبتهما إلى أب صالح بينه وبينهما أجيال أفلا يكون من وده تبارك وتعالى أن يحفظ المستغيثين بأنبيائه ورسله المتوسلين إليه بهم؟ هذا والله من الظاهر الذي لا يخفى ولكن الأمر كما قال عز وجل ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] نسأل الله العافية مما ابتلاهم به بجاه المصطفين الأخيار عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وعلى هذا المعنى الشريف دلت السنة الصحيحة الصريحة في قوله ﷺ لمن شكا إليه ذهاب بصره وأنه في حاجة إلى أن يرد عليه بصره قل (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك) فلم يقتصر عليه الصلاة والسلام على أن يقول له قل (اللهم إني أسألك أن ترد عليَّ بصري) تعليماً منه ﷺ للأمة أن دعاءهم لله من غير توسل به كالمفتاح بلا أسنان أو بأسنان غير تامة والمفتاح إذا كان كذلك قلما يقع الفتح به بل قال له بعد كلمة أسألك أن يقول (وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة) ولم يكتفِ بهذا التوجه إليه سبحانه به عليه الصلاة والسلام حتى علمه أن يتوجه إليه ﷺ في الدعاء ويناديه قائلاً مخاطباً لحضرته الشريفة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في قضائي حاجتي مبالغة في كمال الاستشفاع به ﷺ وتأمل قوله ﷺ (وإذا كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك) إن في هذا أوضح بيان للأمة أن الإقبال على رسول الله ﷺ وتذكره والاستنجاد به ونداءه حين التوجه إليه سبحانه بالدعاء وطلب الحوائج منه عز وجل ليس شركاً ولا حراماً ولا مكروهاً ولا خلاف الأولى بل ذلك أفضل في الأدب مع الربوبية وأشد اجتلاباً للرحمة واستنزالاً للقبول وأقوى مظان الإجابة وأدنى إلى الرشد وأبعد من الرد وحرمان الإجابة ومن حسنت في ذلك عقيدته وتنقت من شوائب الدخل سيرته وقويت في الله رغبته سارعت إليه الرحمة ورأى آثار الإجابة وناب حضور قلبه مع رسول الله عن حضور بدنه بين يديه إعظاماً من الله لقدر رسوله أن يتوسل به العبد إليه

Scanned by CamScanner

ولا يجاب وتفخيماً منه عز وجل لشأن هذا الحبيب الأحب إليه أن يستغاث به وينادىٰ ويرد مناديه والمستغيث به خائباً والله تبارك وتعالىٰ هو ذو الجلال والإكرام ونبيه المصطفىٰ ﷺ هو أهل أن ينال عند ربه كمال التفخيم والإعظام وإن شئت أن تزيد في هذا المعنىٰ استبصاراً فانظر كيف شرع الله لعباده في كل صلاة مفروضة كانت أو نافلة أن يتوجهوا عقب تحياتهم لله إلىٰ نبيهم فيسلموا عليه سلام الناظر المشاهد له بصيغة خطاب الحاضر بين يديه فيقولوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ثم يسلموا علىٰ أنفسهم وعلىٰ عباد الله الصالحين بصيغة الغيبة ثم يجمعوا بين الذكرين ذكر الله عز وجل وذكر رسوله ﷺ في الشهادتين ثم يختموا صلاتهم بالصلاة والبركة عليه وعلىٰ آله ليكون ذلك خاتمة لصلاتهم وفاتحة لباب قبول صلاتهم ودعواتهم.

والحاصل هو أن مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبي ﷺ في حياته وبعد وفاته وكذا بغيره من الأنبياء والملائكة والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكذا بالأولياء والشهداء والصالحين أحياء وميتين كما دلت عليه النصوص الشرعية في الكتاب والسنة ودرج عليه السلف والخلف من المسلمين قبل ظهور المنكرين بغير حجة ولا برهان لأنَّا معشر أهل الحق لا نعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إيجاداً ولا إعداماً ولا نفعاً ولا ضراً إلا لله عز وجل وحده لا شريك له ولا نعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً للنبي ﷺ ولا لغيره من الأحياء والأموات ولا نعظمهم بمثل ما كانت عليه المشركون أصلاً فلا فرق في التوسل بالنبي ﷺ وغيره من الذوات الفاضلة بين كونهم أحياء وأمواتاً لأنهم لا يخلقون شيئاً وليس لهم تأثير في شيء وإنما يتبرك بهم ويتوسل ويستشفع بهم لكونهم أحباء الله تعالىٰ وأما الخلق والإيجاد والإعدام والنفع والضر فإنه لله تعالىٰ وحده لا شريك له سبحانه جل وعلا.

Scanned by CamScanner

وأختم الكتاب بهذا الدعاء الجليل للعلامة زروق في شرحه على حزب البحر بعد ذكر كثير من الأخيار:

اللهم إنا نتوسل إليك بهم فإنهم أحبوك وما أحبوك حتى أحببتهم فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك فتمم لنا ذلك مع العافية الكاملة الشاملة حتى نلقاك يا أرحم الراحمين ا.هـ.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
تصدير	٥
الدين النصيحة	٨
ذم من يتبع نفسه وهواه	١٠
الدين عماده شيئان	١٤
ضرورة التمسك بما عليه الجماعة	١٦
بيان أن اتفاق المذاهب الأربعة على قول حجة عند أهل العلم	١٨
ليس كل خلاف معتبر	٢٠
من علامات الساعة	٢٢
الحق والباطل	٢٣
أمثلة للتوضيح	٢٣
مثال قرآني	٢٣
من مبادئ الإسلام الالتزام بالحق	٢٥
ومناصرته والنفور من الباطل ومكافحته	٢٥
الخطأ المعفو عنه	٢٧

Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الشرط الأول	٢٧
الشرط الثاني	٢٧
الشرط الثالث	٢٧
العجب مفتاح الشرور وأقبحه العجب بالرأي الخطأ	٢٩
رد الأحاديث الصحيحة كقبول الأحاديث الموضوعة	٣٢
حكم من أنكر شيئاً من الأحاديث النبوية	٣٣
الثابتة عن سيدنا رسول الله ﷺ	٣٣
من يستحق أن يسمى فقيها أو عالما حقيقة لا مجازاً	٣٤
ومن يجوز له الفتيا عند العلماء	٣٤
ذم القول في دين الله تعالى بالرأي	٣٥
والظن والقياس على غير أصل	٣٥
خطر تطبيق الآيات النازلة في المشركين على المسلمين	٣٦
ضابط من له الحكم على الأحاديث قبولاً ورداً	٣٧
شروط الناقد	٣٨

Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
أولاً:	٣٨
ثانياً:	٤٠
ثالثاً:	٤١
رابعاً:	٤٢
الباب الأول في تخريج الحديث	٤٤
باب في رد الشبهات الواردة على الحديث	٤٩
الفصل الأول: فيما يتعلق بالصنعة الحديثية	٤٩
الشبهة الأولى	٤٩
والجواب	٤٩
الشبهة الثانية	٥٠
الشبهة الثالثة	٥٠
الشبهة الرابعة	٥٠
الشبهة الخامسة	٥١
الشبهة السادسة	٥٧

Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
والجواب	٥٨
الفصل الثاني: في رد الشبهات الأخرىٰ	٦٠
أولاً: ادعاء أن مضمون حديث الأعمىٰ محصور في التوسل بدعاء النبي ﷺ	٦٠
ثانياً: ادعاء أنه لو كان السر في شفاء الأعمىٰ أنه توسل بجاه النبي ﷺ	٦٣
ثالثاً: ادعاء أنه لو كان توسل الأعمىٰ به ﷺ هو السبب في رد بصره لفعل ذلك عميان الصحابة أو بعضهم ولم ينقل ذلك عنهم	٦٤
رابعاً: ادعاء أن توسل عمر بالعباس بمحضر المهاجرين والأنصار يدل علىٰ نفي التوسل بذات النبي ﷺ	٦٤
خامساً: ادعاء أن التوسل الوارد في حديث عثمان بن حنيف خاص بحال حياة النبي ﷺ	٧٣
سادساً: مخالفته لقوله ﷺ إذ استعنت فاستعن بالله	٧٤
سابعاً: ادعاء أن التوسل مخالف للحديث الصحيح	٧٩

Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
ثامناً: قولهم أن التوسل ينافي القاعدة المقررة	٨١
تاسعاً: ادعاء أن في التوسل طلب ما لا يقدر عليه عادة من غير الله وهذا شرك	٨٦
عاشراً: ادعاؤهم أن في التوسل نداء للأنبياء والصالحين بعد وفاتهم وهذا كفر	٩٢
الحادي عشر: إن في التوسل بالنداء للنبي إثبات سماع الغائب النداء من بعيد	٩٤
الثاني عشر: مخالفة الحديث لكثير من الآيات القرآنية	٩٥
فالقلبية:	١٠٠
والقالبية:	١٠١
فما هو هذا الميثاق وهذا العهد؟	١٠٨
فهل أخذ الله عليهم العهد الأول بعبارة ألست بإلهكم؟	١٠٨
الثالث عشر: مخالفة الحديث لقوله ﷺ (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)	١٢١

Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الرابع عشر: ادعاء أن التوسل الجائز مخصوص بالنبي ﷺ	١٢٤
تعريف التوسل	١٢٩
التوسل في اللغة	١٢٩
السؤال: ما معنى الاستغاثة والاستعانة؟	١٣١
السؤال الثاني: هل يجوز الطلب من غير الله؟ وما هي الأدلة على الجواز إذا قيل به؟	١٣١
أدلة التوسل في القرآن الكريم	١٣٣
ومن أدلة جواز الاستعانة والاستغاثة في القرآن:	١٥٠
أدلة التوسل في السنة	١٥٤
ومن أدلة جواز التوسل أيضاً	١٦٤
دليل الإجماع	١٦٧
دليل القياس	١٦٩
ثبوت التوسل عقلاً	١٧٠
التوسل في المذاهب الأربعة	١٨١

Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
أولاً: التوسل عند الحنفية	١٨١
س٣ / هل يجوز للرجل أن يتوسل في دعواته بالنبي ﷺ بعد الوفاة أم لا؟	١٩١
س٤/ أيجوز التوسل عندكم بالسلف الصالحين من الأنبياء والصديقين والشهداء وأولياء رب العلمين أم لا؟	١٩١
الجواب:	١٩١
ثانياً: التوسل عند المالكية	٢٠٧
ثالثاً: التوسل عند الشافعية	٢٠٩
رابعاً: التوسل عند الحنابلة	٢١٢
تنبيه قال ابن نصر الله: لازم استحباب زيارة قبره ﷺ	٢١٧
التوسل عند المفسرين	٢٢٠
التوسل عند المحدثين	٢٢٢
التوسل عند المؤرخين	٢٢٥
متفرقات	٢٢٧
نصوص وفتاوى العلماء في جواز التوسل	٢٢٨
	٢٣٩

Scanned by CamScanner